العالم الإسلامي

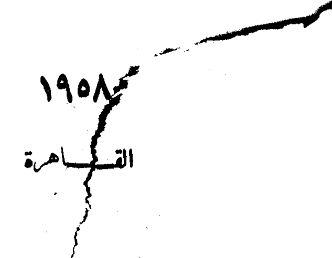
والاستعمار

بقلم

أنور الجندي

قصة الصراع بين العالم الاسلامى والاستعمار

فى الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٩٥٨



١٩٥٨

القاهرة

مطبعة الرسالة
شارع [illegible] ٣ عابدين

مؤلفات أنور الجندى

دراسات تاريخية :

أضواء على تاريخ الاسلام ١٩٥٧
العالم الاسلامى والاستعمار ١٩٥٨
الشخصية العربية ... ... « اخترنالك »
أيام حاسمة فى تاريخ الأمة العربية ... ... « تحت الطبع »
أيام خالدة فى تاريخ الاسلام ... ... « »

دراسات أدبية :

نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر ١٩٥٧
أدب القومية العربية فى نصف قرن ... ... « تحت الطبع »
أضواء على الحياة والأدب ١٩٥٦
جولات فى الأدب والفن والحياة ١٩٥٦

تراجم الأعلام :

شخصية محمد ... ... « دار الفكر العربى »
أعلام الاسلام ... ... « دار المكشوف »
جمال عبد الناصر رائد العرب ... ... « تحت الطبع »
الأدباء المعاصرون ١٩٥٥
الكتاب المعاصرون ١٩٥٨
تراجم معاصرة ... ... « تحت الطبع »
أعلام النساء ... ... « » « »
قمة الثورية العربية ... ... « تحت الطبع »
وراء كل عظيم امرأة ١٩٥٨
الأعلام الألف ... ... (ج ١) ١٩٥٧
رواد القومية العربية ... ... (ج١) ١٩٥٨
الجباة العالية ... ... (ج١) ١٩٥٦

إبحاث منوعة :

مصابيح على الطريق ... ... « تحت الطبع »
كلمات خالدة ... ... « »
بلا امل (قصه) ١٩٥٧

احداث العالم الإسلامى

١٨٩٧ - ١٩٥٨

١٩	مايو	١٧٩٧	الحملة الفرنسية على مصر
٢٠	مارس	١٨٠٠	ثورة القاهرة على الفرنسيين
		١٨٠١	حركات الوهابيين فى جزيرة العرب
٢٧	مايو	١٨٠١	الجلاء الفرنسى عن مصر
٣٠	مارس	١٨٠٧	طرد الانجليز من رشيد وهزيمة فريزر
٥	يوليو	١٨٣٠	احتلال الجزائر
١٧	نوفمبر	١٨٦٩	افتتاح القنال للملاحة
٢٥	نوفمبر	١٨٧٥	شراء بريطانيا لأسهم القناة
٢٥	يونيو	١٨٧٩	خلع اسماعيل
٢٦	أغسطس	١٨٧٩	اخراج جمال الدين الأفغانى من مصر
		١٨٨١	احتلال تونس
١٨٨١	—	١٨٨٥	حركات المهدى فى السودان
٢٥	مايو	١٧٨٢	وفاة عبد القادر الجزائرى
١١	يونيه	١٨٨٢	مذبحة الأسكندرية

١١ يوليـــه ١٨٨٢ ضرب الأسكندرية

١٢ سبتمــبر ١٨٨٢ معركة التل الـكبير

١٨٨٥ مقتل غردون

٢٢ يونيـــه ١٨٨٥ وفاة المهدى

١٠ يوليـــو ١٨٩٧ حادث فاشوده

٤ سبتمـــبر ١٨٩٧ العودة إلى السودان

١٩ ينـــاير ١٨٩٩ اتفاقية السودان

١٣ يونيـه ١٩٠٦ دنشواى

١١ أبريـل ١٩٠٧ استقالة كرومر

٢٧ أبريـل ١٩٠٩ خلع السلطان عبد الحميد

١٨٦٨ — ١٩٠٩ حكم عبد الحميد

١ أبريـــل ١٩١٠ رفض مد امتياز قناة السويس بعد الحرب العالمية الأولى

١٧١٢ فـكرة الجامعة الطورانيه

٢ ينـاير ١٩١٥ هاجم الجيش العثمانى قناة السويس

٥ مـــايو ١٩١٦ مقتل الشهداء السورين الذين أعدمهم أحمد جمال السفاح

٨ مــايو ١٩١٦ معاهدة سكس بيكو

١٩١٧ الثورة العربية الـكبرى

٩ ينـــاير ١٩١٧ استيلاء الأنجليز على رفح

٩ مـــارس ١٩١٩ الثورة المصرية

٢٥ مارس ١٩١٩ حوادث العزيزية والشوبك

١٩٢١ ثورة عبد الكريم

١٩٢٣ إعلان الجمهورية التركية وإلغاء السلطنه

٢٣ مارس ١٩٢٤ لغاء الخلافة

٨ يناير ١٩٢٦ تولى السعودين ملك الحجاز

١٩٢٩ تنازل أمان الله خان عن عرش أفغانستان

١٩٣٧ تركيا تنتزع لواء الأسكندرونه من سوريا

١ أبريل ١٩٤٠ حركة رشيد الكيلانى

١١ مايو ١٩٤٥ ميثاق الجامعة العربية

١٧ أبريل ١٩٤٧ استقلال سوريا

١٥ مايو ١٩٤٨ دخول الجيش المصرى إلى فلسطين

٢٤ فبراير ١٩٤٩ الهدنة بين مصر واليهود

٢٦ يناير ١٩٥٠ إعلان جمهورية الهند

٣ ابريل ١٩٥١ تأميم البترول فى إيران

١٣ مارس ١٩٥٤ اغتيال حسين فاطمى

٢٣ يوليو ١٩٥٢ ثورة مصر العربية الكبرى

٣٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم القنال

٥ نوفمبر ١٩٥٦ معركة السويس

١ فبراير ١٩٥٨ إعلان الجمهورية العربية المتحدة

٨ مارس ١٩٥٨ الاتحاد الفيدرالى بين الجمهورية العربية واليمن

٨ مايو ١٩٥٨ ثورة لبنان

نحو قومية عربية إسلامية

من كلمات الرئيس جمال عبد الناصر

« حين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليونا من المسلمين فى أندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما . وما يقرب من مائة ميلون فى الباكستان وأكثر من مائة مليون فى منطقه الشرق الأوسط . وأربعين مليونا داخل الأتحاد السوفيتى وملايين غيرهم فى إرجاء الأرض المتباعدة — حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بأحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون هؤلاء المسلمين جميعا . تعاون لايخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الأصلية بالطبع . ولكنه يكفل لهم ولأخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة » .

« من كتاب فلسفة الثورة »

— ٢ —

ليس أجل من تعاون الأمم الإسلامية والعربية التى تشترك فى أدوار التاريخ والتقاليد الدينية والأجتماعية والتى مرت بها تجارب عدة فى حياتها السياسية . وعانت ألوانا من الشدائد وتعلمت من دروس الماضى كيف كان النزاع سببا فيما أصاب المسلمين من كوارث وكيف كانت الأطماع وضعف الأخلاق أساساً لما وصل إليه المسلمون من ضعف أتاح للاجنبى السيطرة والسيادة والأستغلال ولا بد للتعاون بين الأمم الإسلامية من صدق الإرادة وإخلاص النية فإن مجد المسلمين فى الماضى حققه رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه وأخلصوا فيما هدفوا اليه فأمدهم

الله بنصره . وكانت لهم في العالم الكلمة العليا وازدهرت حضارة الإسلام بجهود هؤلاء الرجال واخلاصهم .

— ٣ —

تيار قوى فى العالم العربى

أن العرب على مر الزمان لم يستكينوا أبداً للاستعمار ولم يقبلوا أبداً أن يكونوا ضمن مناطق النفوذ وطالما حارب العرب وطالما قاوم العرب ولم ييأسوا ولم يهنوا ولم يضعفوا .

واليوم نرى أنهم يحاربون ويناضلون فى كل مكان ويقاتلون ويستشهدون فى سبيل كرامتهم وفى سبيل حرية بلادهم .

جمال عبد الناصر

فجر جديد للعالم الإسلامى

بقلم الأستاذ أحمد حسن الباقورى

ربما كان من الجراة على الحق أن ينظر ناظر إلى مستقبل العالم الإسلامى منذ عشرين أو ثلاثين سنة مضت . ذلك لما كان يحيط بالعالم الإسلامى وقتئذ من ظروف غامضة مرهقة . وما كان يشيع فى أممه من أمراض اختلفت عليها ، وأصابت الصميم منها .

ولعل أقتل هذه الادواء التى ألحت على العالم الإسلامى وأشدها فتكا به ذلك الأحتلال الذى كان مضروبا عليه ، والذى نزل بكل صقع من أصقاعه ، فلم تسلم أمة من الأمم الإسلامية من هذا الداء ، بطريق مباشر أو غير مباشر .

والأحتلال حين ينزل بأمة من الأمم إنما معناه الهدم المتصل فى كل مقومات الحياة المادية والمعنوية فيها ، وأنه لا يهدأ للمحتل بال ، ولا تنام له عين حتى يأتى على كل ما تستند إليه الأمة من قوى مادية أو روحية .. يريد بهذا أن يقتل منها وسائل المقاومة ، ويضعف روح التماسك ، فتخضع لارادته ، وتذل لسلطانه ، وتستكين لجبروته ، ولا تنزع بها همة إلى الثورة على الظلم ، ولا التنكر للمظالم بعد أن غرقت فى هذا الظلم ، وتشبعت من هذا الزاد الخبيث الذى أفسد إحساسها وعطل شعورها .

وإذا كانت هذه هى أساليب الاستعمار ، وتلك هى وسائله فى اخضاع الأمم وإذلال الشعوب ، فأن للاستعمار مع الأمم الإسلامية أسلوبا آخر ، أقسى قسوة ،

وأمر مرارة مما يصيب الأمم غير الإسلامية ، فهو يحمل معه إلى أمم الاسلام ـ مع كل ما يحمل من ألوان التسلط والجشع والعدوان ـ طابع التعصب الدينى ، والقهر للاسلام ومبادئه حتى تموت فى المسلمين كل دوافع الحياة وتجف مواردها .

فإذا كان المستعمر يسلب الأمم المستعمرة غير الإسلامية مواردرزقها ويمتص دماء الحياة منها ، ويقتل مواطن الاحساس بالقومية والاعتزاز بالوطنية فيها ، فانه فى الأمم الإسلامية يفعل هذا كله فى صورة أشد وأعنف ، ثم يجاوز هذا كله إلى الشعور الدينى فيعمل جاهدا على أضعافه أو قتله بما يتهيأ له من أساليب يبدعها ويفتن بها ... فهو تارة يجىء إلى معاهد العلم والدين يمسخ مناهج الدراسة فيها ويحشوها بالجاف الثقيل من الدروس ، ويباعد بينها وبين الدين وما يتصل بالدين، وتارة ينشر الآراء المتطرفة الهدامة فى الأمة ويغذيها ويقوى دعامتها ، ليمكن لها فتعمل عملها القاتل فى الأمة بما يشيع فيها من استهتار وانحلال ... وأحيانا يفرض الاستعمار لغته فرضا على الأمة المستعمرة فيجعلها لغة الحياة فيها حتى تذهب اللغة العربية ـ لغة القرآن والدين ـ وتنسى الأمة رابطة من أقوى الروابط التى تصلها بالدين ، وتجمعها إلى جماعة المسلمين .

ولعل الصورة الكاملة لمآسى الاستعمار ـ واضحة أشد الوضوح فى البلاد الإسلامية فى شمال افريقيا وفى كثير من البلاد فى الشرق الأقصى ، فقد مسخها الاستعمار مسخا ، وجعلها غريبة فى أوطانها ، لا تعرف لها لغة بالماضى أو تعيش عليها فى الحاضر .

أن جناية الاستعمار على الأمم الإسلامية لا تقف عند حد ... لقد عبث الاستعمار بكل صالحة فيها ... أرهقها بالفقر والبؤس والحرمان ، وساقها إلى متاوه الجهل ، وأمات منها شعورها الوطنى ، واحساسها القومى ، ثم عدا على لغتها فصرفها عنها وانساها اياها ، فضعف شعورها بالدين وصلتها بجماعة المسلمين .

هكذا كانت الأمم الإسلامية إلى نهاية العقد الثانى من هذا القرن أمما متناثرة تعمل فيها عوامل التدمير والهدم ، فلم يكن من المستطاع ـ والحال هذه ـ أن ينظر ناظر فى اضواء المستقبل فيرى للعالم الإسلامى مكانا فى الحياة أو يحس له وجودا بين الاحياء ، وكيف يستطيع انسان أن يرى خلال هذه السحب المتكاثفة من الظلم والجور وجها للحق وآية للخير الذى تقوم عليه الأمم وتحيا به الشعوب ؟ .

وكيف يستطيع إنسان أن يحس فى هذا الموات أثراً للانسانية . أو يقدر لها بعثا من هذا الركام .

ولكن اينتهى العالم الإسلامى إلى هذه النهاية المحزنة ؟ وهل تطوى صفحة المسلمين من هذا الوجود ؟ وهل تجرى الحياة فى طريقها ولا يضطرب ميزانها وقد طويت صفحة الاسلام وذهبت دولة المسلمين ؟ .

لا يأس من روح الله ... فان من سنن الله فى خلقه ، أن يرفع ويخفض ويعز ويذل .

وهكذا تجرى حكمة الله فى الحياة ... حيوانها ، ونباتها ، وجمادها ، « ألم تر أنا نسوق المـــاء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ؟ » .

وكذلك كان لطف الله بالاسلام وفضله على المسلمين فساق إليهم من رحمته روحا جلت سحب الاستعمار وآذنت ليله بزوال ، فبدأت الأمم الأسلامية تخلص من هذا السجن ، وتتحرر من هذا الأسر واحدة واحدة ، وأخذت معالم الطريق تلوح للمجتمع الإسلامى ، وجملت الصحوة الكبرى تفعل فعلها فى هذا العالم الكبير وتنتظم كيانه !

ففى اعقاب الحرب العالمية الأولى أخذت يد الاستعمار تضعف شيئا فشيئا ، وأخذ ظله ينكمش قليلا قليلا ، فقد أيقظت هذه الحرب روح المقاومة فى الامم الضعيفة المستعمرة وأيقظت مشاعر الحياة فيها ولفتتها إلى واقعها المرير ... فبدأت صيحاتها تعلو فى وجه الغاصب وبدأ الصراع بينها وبين المستعمر يشتد ويتصل ، وكان من أثر هذا أن تخلصت كثير من الأمم الإسلامية التى خضعت للاستعمار أجيالا متعاقبة ، ثم لم تكد الحرب العالمية الثانية تنتهى حتى تحطمت الحلقات الأخيرة من سلاسل الاستعمار الذى كان مضروبا على العالم الإسلامى فى كل مكان... فأصبح هذا المجتمع الكبير طليقا يسعى سعيه فى الحياة ، ويبذل جهده فى اللحاق بركبها ، على أنه كان لابد لكل أمة أفلتت من قبضة الاستعمار من وقت تضمد فيه جراحها ، وتعالج مشكلاتها ، وتسترجم المسلوب من قواها ، والضائع من شعورها فمرت فترة شغلت فيها كل أمة بأمورها الخاصة تعالجها وتصلح من شأنها حتى إذا مرت الحياة الطبيعية فيها جعلت تتلفت إلى جاراتها واخواتها تحاول أن تجتمع إليها وتتصل بها ، وتتعرف إلى أحوال الاسلام والمسلمين فيها .

وبهذا بدأ الشعور الإسلامى يسرى بين المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، بعد أن استوفت كل أمة حظها من مشاعرها الوطنية والقومية ، ولم يبق إلا هذا الرباط العام من الدين الذى عاش عليه المسلمون ازمانا كانوا فيها سادة العالم وقادة الحياة .

فالحاضر الذى يقوم عليه العالم الإسلامى اليوم حاضر مزدحم بالآمال الكبار ، مبشر بالمستقبل العظيم ، إذا خلص المجتمع الإسلامى من ذاته ، واستقبل أيام الصحة والعافية ... وحسبك بالمجتمع الإسلامى أن تنزاح عنه العلل الطارئة والضربات الفاجئة ، وأن يلقى الحياة على طبيعتها أنه إذا ذاك أقدر المجتمعات على تمثيل الحياة ، وهضمها ، وامتصاص رحيقها ، وأنه إذ ذاك لأ كل المجتمعات

ها إلى الكمال البشرى ، واصلحها لبناء الحياة الصالحة
... الإسلام بين الإنسانية جميعها . وكيف لا يقوم المجتمع الإسلامى بهذه الرسالة الكريمة فى الحياة وكيف لا يحقق مجتمعة كل هذه الفضائل وجماعاته وقد جمع المجد من اطرافه ، وأخذ من الحياة بأكرم عناصرها

فالأمم التى يشتمل عليها العالم الإسلامى أمم عريقة فى المدينة ، ضاربة فى اعماق السؤود والمجد ، قد كتبت الفصول الأولى فى تاريخ الإنسانية . ومثلت أعظم أدوار الحضارة على هذه الأرض .. وهل عرف التاريخ فى قديمة وحديثة أروع ولا أعظم من حضارة مصر والهند ، وفارس والصين ؟ .

وهل شهدت الإنسانية آيات النبوغ كاملة . وروائع العبقرية معجزة إلا فى هذه المواطن وبين تلك الديار .

فكيف بهذه الأمم وقد صاحبها صوت الإسلام وغذتها تعاليمه وسرت فيها روحه وانتظمتها أحكامه ومبادئه .

أنها لأكرم العناصر وأطيب المنابت . تتغذى من ينابيع الحكمة والمعرفة وتستقبل أرواح الحق والهدى فلا بد أن تقدم أشهى الثمرات وأوفاها حظا لخير الإنسانية واسعادها .

ذلك هو المجتمع الاسلامى الذى نشهد مستقبلة ونرقب صحوته . ونتشوق إلى العظيم الرائع من خطواته الواثبة إلى المجد والسيادة .

لقد بدأ الركب يسير إلى غاياته نحو صبح مشرق ونهار وضاح ، وبدأت المشاعر الإسلامية تنتظم هذا العالم الكبير وتهز الطيب من أعراقه ، والأصيـــل من غرائزه ، والدفين من ماضيه ، لتجعل منه أمة واحدة تحيا على هدى الكتاب الكريم وتعيش فيه وتعمل على نصرة الخير واذاعته فى الناس ؟

فهرس الموضوعات

ص

١ – [فصول عامة]

٢ – [دراسات تفصيلية]

ص

العالم الإسلامي والاستعمار

سبقت البرتغال الدول إلى المحيط الهندي ، وأرست مراكبها بشواطىء الهند في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بقيادة هنرى الملاح وفاسكودى جاما ، وتلتها إلى هذه الشواطىء هولندا فاستقرت في الخليج الفارسي ومصايد اللؤلؤ . ثم اقتحمت فرنسا هذه الشواطىء بعد لأى فاستقرت في الهند إلى أن زاحمتها انجلترا واستطاعت بعد قليل إجلاءها .

وفي عام ١٨٥٨ انقلبت شركة الهند الشرقية التي أسستها انجلترا في الهند إلى حكومة . وقبل هذا بقليل في عام ١٧٩٨ تحرك نابليون من فرنسا يخوض البحر الأبيض حتى وصل إلى مصر تملأ نفسه مطامع ضخمة وآمال واسعة في أن يقيم امبراطورية في الشرق .

وقد كان وصوله إلى مصر سببا من أسباب تنبه انجلترا إلى موقع مصر الجغرافي وادعائها بأنها طريق المواصلات إلى الهند .

كان موقع مصر الخطير موضع التقدير من أوربا حين تفتحت عينا الاستعمار على غزو الشرق خاصة بعد أن أصبحت شركة الهند الشرقية سلطانا مسلحا في الهند ، فضلا عن أن مصر هي قلب الشرق الأوسط وزهرة الشرق أجمع فلا بد من أن ترنو إليها فرنسا وتهتم بها . وكانت فرنسا تزاحم انجلترا وتسابقها ، ولكن الروح المصرية القوية الممثلة في يقظة الشعب بقيادة عمر مكرم كانت قادرة رغم ضعفها في العدد والالات على أن تقاوم الفرنسيين وأن تزعجهم وأن تنغص عليهم أيامهم فلا يجدون بها استقرارا . إلى أن قام الشعب

بثورته الجامحة فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ مما اضطر الفرنسيين إلى التفكير جديا فى العودة إلى بلادهم وقد عادوا فعلا فى عام ١٨٠٠ بعد هزيمة نابليون فى عكا .

والواقع أن الزحف الفرنسى كان هو القارعة الأولى على أبواب الشرق الأوسط ، وعن طريق مصر . ولقد لفت هذا الوضع الجغرافى الأنظار فاتجهت إليه قوى المستعمرين . وسبق إليه نابليون . ثم بدأت انجلترا ترنو إليه رغبة فى احتلاله والسيطرة عليه . ولذلك آزرت تركيا على مقاومة نابليون وأرسلت من ورائه « نلسون » لحطم أسطوله . فمات ذلك لا لترد عن تركيا ومصر عادية المغير وإنما لتحفظ لنفسها الحق الأول فى السيطرة على مصر .

وقد امتدت نار التنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا طويلا حتى انتهت عام ١٩٠٤ حينما اتفق الاستعمار على تقسيم الغنيمة وابتلاع الوطن الإسلامى ، وفى الوقت الذى وقفت فيه فرنسا إلى جوار محمد على كانت انجلترا تقف إلى جوار الباب العالى وتؤازره . ثم عادت فرنسا فغدرت بمصر .

هذه الخصومة التى بدأت عندما اتفقت فرنسا مع مصر على حفر قناة السويس وعارضت بريطانيا فى حفرها أشد المعارضة . فلما أنشئت عملت انجلترا على شراء أسهمها سرا فى شبه مؤامرة ، وفى أزمة من أزمات الخديو . وظل الخصام قائما بين انجلترا وفرنسا ، وازداد حدة بعد أن احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢ ، إذ كان أسطولا انجلترا وفرنسا قائمين فى البحر الأبيض عند أزمة يناير سنة ١٨٨٢ ، ثم آثر أسطول فرنسا العودة . وبعد أن كانت السيطرة المالية فى سياسة الديون ، والرقابة الثنائية ، وصندوق الدين ، تقوم عليها فرنسا وانجلترا أصبحت تحت سيطرة انجلترا وحدها مما استدعى بعدها وقوع حادث فاشودة الذى اضطر انجلترا أن تعلن بأن هذه الأرض أرض مصرية .

وظن بعض زعمائنا أن فرنسا تعطف على القضية المصرية حتى انكشف الأمر عن مؤامرة « وفاق عام ١٩٠٤ » حين قبلت كل من فرنسا وانجلترا أن تطلق يد الأخرى في مصر وتونس . ومنذ ذلك اليوم زاد ضغط الاستعمار في مصر حدة وقسوة فكان من آثاره البشعة حادث دنشواى .

وكل ما أريد أن استخلصه من القارعة الأولى أنها كشفت لأوربا ضعف الشرق عن مواجهة الحملة الغربية مما قوى مطامع انجلترا على التوغل في الشرق .

والواقع أن تركيا العثمانية كانت أم المشكلة جميعها . فقد زحف الاستعمار والتغريب إلى تركيا مبكرين أول ما زحف إلى الشرق . وكانت تركيا قد دخلت في دور الضعف بعد أربعمائة عام من القوة الحربية . وأخذت تنطوى على نفسها حتى أفاقت أخيرا على واقع مؤلم لا يستطاع معه تدارك الصدع ، مما انتهى بالامبراطورية العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى إلى هذه النتيجة الخطيرة التى مزقتها تمزيقا . وكانت قد انضمت إلى ألمانيا ، واتجه العرب نحو بريطانيا وحلفائها على أساس وعود مكتوبة ، فلما انتهت الحرب كانت بريطانيا قد خدعت العرب — إذ كانت في نفس الوقت الذى تتعاقد معهم على أساس ما أطلق عليه « محادثات الشريف حسين — مكماهون » ، هذه المحادثات التى اتفق فيها على قيام الدولة العربية ، كانت بريطانيا تقسم أسلاب هذه المنطقة بينها وبين فرنسا بمعاهدة سكس بيكو . وفي نفس الوقت صدر تصريح مشئوم أطلق عليه وعد بلفور أعلن تأييد دولة الانتداب (بريطانيا) في فلسطين بالعمل على إقامة وطن قومى لليهود في هذه المنطقة .

ومن ثم تبددت آمال العرب في إقامة حكومة عربية . فقد هاجت فرنسا سوريا

وهزمت قواتها فى معركة « ميسلون » بعد أن كافح السوريون كفاحا مجيدا فى سبيل الثورة العربية التى قادها الشريف حسين سنة ١٩١٧ والتى استهدفت تحرير الوطن العربى من الاحتلال التركى ومعاونة الحلفاء على أساس إقامة الحكومة العربية المنشودة بعد الحرب ، واستولى الفرنسيون على لبنان وسوريا ، واستولت بريطانيا على العراق وفلسطين ، كما أقامت امارة شرق الأردن . وكانت ايطاليا قد وضعت يدها على ليبيا منذ سنة ١٩١١ ، وما زال المغرب بأجزائه الثلاثة : « تونس ومراكش والجزائر » فى يد فرنسا وجزء من مراكش تحت سيطرة أسبانيا .

ولكن الدول العربية لم تستسلم لهذا الواقع الأليم وسرعان ما اندلعت الثورات فى مصر ، والعراق ، وسوريا وفلسطين .

ولم يبق هناك من الأقطار الاسلامية بدون احتلال غير أفغانستان وايران والحجاز وان كانتا مرتبطين ببعض المواثيق مع الغرب .

أما تركيا فقد تحررت بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة من أعباء الامبراطورية ومن الخلافة ومن اللون الإسلامى ، وبدأت تتجه نحو الجمهورية للارتباط بالحضارة الغربية فى الكتابة من الشمال واستعمال القبعة وغيره من ضروب التغريب .

أما الحجاز فقد تولى أمره السعوديون بعد أن حررته الثورة العربية من يد الأتراك .

العرب بين الأتراك والانجليز

زحف الاستعمار والتغريب إلى تركيا مبكرين أول ما زحفا إلى الشرق الإسلامي. ولكن الاستعمار كان يمضى حثيثا محاولا ألا يرتطم بصخرة ضخمة يكون لها أثرها فى تنبيه الأذهان إلى مؤامرته الرهيبة قبل أن تستفحل آثارها وتقوى جذورها. ففى مفتتح القرن السادس عشر بدأت تركيا العثمانية تتألق كدولة حربية ذات صبغة إسلامية فى الشرق فتأخذ مكانها فى العالم وتسيطر على مصر والمغرب والجزيرة والعراق وسوريا وتلح بالزحف على أوربا الشرقية حتى تصل إلى أبواب فينا، وقد ظلت تركيا تحمل لواء الدولة الإسلامية أربع قرون إلى أن بدأت الحملة الفرنسية تنبه الأذهان إلى الخطر الجديد. وفى عام ١٨٣٠ احتلت فرنسا مراكش وفى عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر كما احتلت ايطاليا طرابلس عام ١٩١١ وفرنسا المغرب عام ١٩١٢. وفى خلال ذلك سيطرت البعثات الاستعمارية على شواطىء جزيرة العرب الجنوبية وعلى شواطىء الخليج الفارسى.

وفى نفس الوقت الذى أخذت تركيا فيه تهوى من مكانها نزعت إلى مغامرة أخيرة قصدت بها محاولة استعادة مجدها. وهى فكرة الجامعة الطورانية التى ترمى إلى «تتريك» العرب وجمع العناصر المتصلة بالدولة وإخراجها من حيز قوميتها الخاصة. وقد نشط شباب الأتراك للحركة الطورانية نشاطا كبيرا وجندوا لها كل القوى حتى لفتوا الأنظار، وأثاروا النفوس وبلغ بهم الأمر مرحلة حادة خطيرة.

والواقع أن العرب كانوا يعتقدون أن حركة إعلان الدستور العثمانى فى ٢٣

يوليو ١٩٠٨ هى خاتمة الدوار السياسى الذى أصاب تركيا عهدا طويلا ، ولكن الواقع كان غير ذلك تماما . فإن فكرة « الطورانية » التى استبدت بزعماء تركيا قد أدت أخيراً إلى بلوغها مرحلة من الحدة انتهت بالانفصال والخصومة بين العرب والأتراك وقد عرفت تركيا جيداً أن معقل الحركة العربية الجديدة هو سوريا فعمدت إلى إرسال أحمد جمال باشا الذى سمى فيما بعد بالسفاح إلى دمشق فكانت تصرفاته القاسية من الأسباب التى عجلت بوقوع أضخم تمزق فى جسد الدولة العثمانية . فقد شملت أحكام الإعدام والنفى والسجن فى عهده ثلاثمائة من أسر الشام خلال شهرى مارس وابريل ١٩١٦ أرسل من لم يعدم منهم إلى الأناضول كما وصودرت أموالهم قبل صدور الأحكام عليهم .

وقد أنشأ جمال ما أسماه ديوان الحرب فى مدينة عالية كان يقدم إليه كل من يرى فيه بارقة ذكاء أو اتجاه وطنى فيأمر بإعدامه أو التخلص منه . والعجيب أن جمال باشا بدأ عهده بخطبة رنانة قال فيها « إن الأمانى التركية والأمانى العربية لا يتعارضان مطلقا فالترك والعرب ليسوا سوى إخواننا فى غايتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض . إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء فى اللحظة التى يتجادلون فيها . فالنزاع والخلاف بين عمودى الاسلام لابد أن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نير الاستعمار السلافى » ،

والعجيب أن جمال باشا عمد بعد إلقاء هذه الكلمة الحماسية إلى قتل واحداً وعشرين عربيا على الشبهة . وقد تفنن بعد ذلك فى ابتكار وسائل القتل والإرهاب . ولكن ذلك لم يثن العرب عن أمانيهم وثقتهم فى النصر . فلم يفز جمال بطائل وظل العرب رغم ذلك أقوياء . وقد استقبل زعماؤهم أحكام الإعدام بالإيمان والغبطة ثقة منهم بأنهم إنما يستشهدون فى سبيل أعدل قضية .

وقد عرف فيما بعد من الوثائق التي نشرها البلاشفة عام ١٩١٨ أنه كانت هناك صلة بين جمال باشا وبين الأرمن ، وأنهـم كانوا بسبيل حمل الحلفاء على الاعتراف به سلطاناً على تركيا مقابل قضائه على الدولة .

وقد عجل هذا للعرب بالانفصال عن تركيا والقيام بحركة صريحة في سبيل إقامة دولة عربية قومية كبرى . وقد استطاعت بريطانيا أن تستغل هذا الخلاف عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ حينما أعانت الشريف حسين على إعلان الثورة على الأتراك فانهارت بذلك آخر حلقة من حلقات العلاقة بين العرب والترك ، ثم لم تلبث أن حصرت الثورة في الحجاز . وحالت بينها وبين تحقيق أغراضها ومضت تستغل نتائجها لصالحها فدخلت مع العرب سوريا وفلسطين .

وبحكم وجود الشريف في الحجاز وبحكم بروزه في خصومة الأتراك ألقت الحوادث بالأمور كلها في يده إذ اتصل به « كتشنر » في أول الحرب يسأل عن موقف العرب وقد ظهرت إذ ذاك نيات تركيا في انضمامها إلى ألمانيا . وعرضت بريطانيا مساعدة العرب في سبيل إقامة دولة عربية كبرى . وأكدت انجلترا هذه الوعود رسمياً بكتابات تبودلت بين الشريف وممثل بريطانيا في القاهرة « مكماهون » .

وقد ظهرت للشريف عوامل المماطلة منذ اللحظة الأولى . فما إن أعلن ان العرب انضموا إلى الحلفاء وأنه لا سبيل لهم إلى اتجاه آخر ، حتى مضت تراوغه في الحصول على وعد قاطع صريح . وقد انتهى الاتفاق بينه وبين مكماهون الذي استمر عاماً كاملا بأمداد الانجليز للعرب ببعثة عسكرية وكميات من الذخائر والكابتن لورنس . ومن ثم سيطرت البعثة وسيطر لورنس على الجيش العربي كله إذ كانت له القيادة الفعلية والتوجيه الأعلى .

وقد استجاب للثورة العربية عدد كبير من الشباب العربى من مختلف الأقطار الإسلامية ممن رغبوا فى المشاركة فى حركة التحرير واندفعت القوات العربية من الحجاز إلى الشمال حتى وصلت العقبة سنة ١٩١٧ ووصل الاورد اللنبى إلى فلسطين فى نفس العام .

وفى هذا الوقت هاجمت انجلترا مواقع الأتراك فى العراق وحدثت مصادمات قوية فى البحرين من القوات الهندية التى دفعت بها انجلترا للاستيلاء على أرض العراق وآبار البترول باسم حماية الهند وكان على رأس هذه المؤامرة الأخرى « برسى كوكس » وقد ظلت المناوشات بين الأتراك والعراق من جهة، والإنجليز من جهة أخرى حتى اقتحم الجنرال مور بغداد سنة ١٩١٧ .

وفى نفس الوقت الذى كان الإنجليز يفاوضون فيه الشريف حسين ويتعهدون له كما نصت اتفاقية (حسين — مكماهون) « بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها على أن تكون حدودها شرقاً من خليج فارس ومن أبواب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض وشمالا حتى ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة عند مصبها فى بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود . وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود وكذا رعاية وصيانة تلك الحدود وتلك الاتفاقية »

فى هـذا الوقت نفسه كانت انجلترا وفرنسا تتآمران على العرب بعقد معاهدة أخرى لتقسيم أسلاب البلاد العربية فيما بينهم أطلق عليها فيما بعد معاهدة « سا كس — بيكو » حيث كان يقوم بالمفاوضة فيها مستر مارك سا كس المندوب الإنجليزى لشئون الشرق العربى والمسيو جورج بيكو المندوب الفرنسى لشئون الشرق الأدنى .

وفى نهاية الحرب كان الانجليز قد اتجهوا إلى إقناع الشريف حسين لقبول ملك الحجاز فقط . ونفذت فرنسا اتفاقية سايكس بيكو باقتحام سوريا ولبنان والاستيلاء عليها وفى نفس الوقت أعلنت بريطانيا وعد بلفور الذى أعطى اليهود حق إقامة وطن قومى فى فلسطين التى استولت بريطانيا عليها وعلى العراق وبذلك تحطمت كل الآمال التى عقدها العرب على بريطانيا وحلفائها .

ولم يلبث أن ثار فى نفس الوقت خلاف قديم بين الهاشميين وآل سعود وهاجم السعوديون أطراف الحجاز حيث استولوا على مكة والمدينة والطائف فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

وفى نفس الوقت هاجم الفرنسيون سوريا فى معركة ميسلون التى قتل فيها عدد كبير من مجاهدى سوريا . ثم أنشأت إمارة شرق الأردن للأمير عبد الله ابن الحسين ولكن البلاد العربية لم ترضخ لهذا القيد الحديدى . فلقد تحررت من تركيا العثمانية ولكنها دخلت فى حلقة ضخمة من الاستعمار البريطانى والفرنسى .

وقد كان الموقف فى نهاية الحرب العالمية الأولى على الوضع الآتى :

- فلسطين تحت الانتداب البريطانى الذى يهيء لإقامة وطن قومى لليهود .
- مصر والعراق تحت قبضة الاحتلال البريطانى .
- سوريا ولبنان فى الانتداب الفرنسى .
- ليبيا فى يد الإيطاليين .
- المغرب العربى « تونس ومراكش والجزائر » محتلة احتلالا فرنسياً .

فماذا فعل العرب بعد أن بدأ الاستعمار يركز قواعده فى البلاد .

بين حربين عالميتين

١٩١٨ — ١٩٣٩

سارت الأمور منذ منتصف القرن التاسع عشر على وتيرة واحدة : شرق غافل وغرب مستعمر ، يزحف فى جرأة إلى قلب أفريقيا وآسيا ، ثم بعد ذلك حركات ضعيفة خافتة تجد من المستعمرين مقاومة غادرة .

وقد ظل الأمر كذلك حتى وقعت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ ولم تكن مفاجئة على كل حال . فقد كانت الظروف جميعها فى الشرق والغرب تمهد لها . كانت الرأسمالية قد غلت غلواً كبيراً وامتدت أطماعها إلى الشرق تبحث عن الأسواق والمواد الأولية وحقول البترول والزيت والمطاط .

وكان النزاع قائماً بين دول أوربا على هذا الميراث الذى لا وارث له . ميراث الرجل المريض . وكانت عوامل الفكرة القومية وعصبية الجنس تعمل عملها بين أهل القارة التى كانت تسيطر على العالم .

وكانت ألمانيا وانجلترا تتنافسان على منافذ البحار ومواقع النفوذ فى آسيا وفى مصر ، وفى جزيرة العرب . وكانت تركيا قد اختارت جانب ألمانيا فى الوقت الذى أخذت تعمل فيه للفكرة الطورانية التى أزعجت العرب وحملتهم على التفكير الجدى فى مصيرهم حتى لا يضيعوا فى غمار الجامعة التركية التى شغل بها زعماؤهم فى أحرج الأوقات التى كان عليها فيها أن تعمل للاحتفاظ بصداقة العرب .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن انجلترا هى أول من خنق الصوت الأول لإقامة « امبراطورية عربية » فقد عملت جاهدة للقضاء على الامبراطورية التى حاول إقامتها محمد على وقوضت أركانها فى أقل من ربع قرن . وأبقت الدولة العثمانية

فى هزالها وضعفها حتى لا يحل محلها من يرث مجدها ، وحتى تستطيع فيما بعد أن تلتهمها .

وقد صورنا من قبل كيف اتفقت بريطانيا مع العرب على إقامة دولة عربية برئاسة الشريف حسين واتفقت فى نفس الوقت مع فرنسا على اقتسام أرض هذه المنطقة فيما بينهما . واتفقت فى نفس الوقت مع اليهود على إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين لا يكون لصالح اليهود بقدر ما يكون شوكة فى جسم الأمة العربية والعالم الإسلامى وركيزة من ركائز الاستعمار .

* * *

ظلت الحرب مشتعلة من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٨ استغلت بريطانيا خلالها موانىء الأقطار العربية من مصر إلى حدود العراق ومن جنوب الجزيرة العربية إلى شمال سوريا . وانتفعت بهذه المواقع الاستراتيجية ومعسكراتها وقنواتها وبواغيزها ومفاتيح بحارها . كما جندت العدد الضخم من الجنود . جندت من مصر وحدها مليوناً ونصف مليون أكلتهم الصحراء فضلا عن المؤن والمحاصيل. وبهذه القوات الضخمة التى قدمتها انجلترا إلى أتون الحرب ، وبهذا الوضع الذى احتلته فى المنطقة العربية كسبت الحرب . وبدون هذا الوضع كان من المشكوك فيه جداً أن تربح انجلترا وحلفاؤها تلك الحرب أو تنتصر على خصومها .

وهكذا انتهت الحرب العالمية الأولى فى أواخر عام ١٩١٨ بانتصار انجلترا وحلفائها وهزيمة خصومها الألمان والأتراك وكانت روسيا قد انسحبت قبيل انتهاء الحرب نظراً لاشتعال الثورة الشيوعية بها — ووقفت انجلترا وفرنسا وإيطاليا موقف الوارث الذى لاينازعه منازع فى هذه المنطقة الواسعة الشاسعة الممتدة من المحيط الهادى إلى حدود الدار البيضاء ، على المحيط الأطلسى .

وانضمت أمريكا فى نهاية الحرب إلى الحلفاء فرجحت كفة النصر . وقد اشترط ولسون لدخوله الحرب إقرار شروطه الأحد عشر التى رسم بها تقرير المصير للدول الصغيرة مع إنالتها حريتها . وكانت خدعته الكبرى هى إعلانه أن الحلفاء إنما يحاربون فى سبيل تحريرها ونصرتها ، وقد كانت الصيحة لعبة ماكرة ومؤامرة هائلة طرحت على مسرح السياسة العالمية وقصد بها استمالة الدول الصغيرة وإغراؤها وتخدير أعصابها لإمكان الإجهاز عليها بعد ذلك .

وقد انخدع العرب والعالم الاسلامى فعلا بهذه الصيحة ، وخيل إليهم أنها تحمل شيئا من الحق . ولكنه تبين فيما بعد أنها كانت مناورة بارعة استطاعت بها انجلترا وأمريكا كسب ثقة الدول الصغيرة فى أحرج ساعاتها ...

وأخذت الدول المنتصرة تتجمع حول مائدة الصلح لا لتضع للأمم حقوقها وتكفل لها حرياتها ، ولكن لتقطع أوصالها وتمزق وحدتها وتقسمها فيما بينها .

وقد أحس الشرق الإسلامى بالمؤامرة كلها بعد انتهاء مؤتمر الصلح ، أحس بأنها عملية خطيرة أريد بها تقسيم الوطن كله ووضعه تحت تصرف المستعمرين فهل استسلم العرب لهذا ؟

كل الوقائع التى تلت ذلك تدل على أن دول العالم الإسلامى لم تستسلم وإنما ثارت على الضيم وأنها قامت بعدد من الثورات والانقلابات المختلفة التى أرادت بها أن ترد عنها عادية المؤامرة الضخمة .

وكانت القومية الضيقة هى أبرز معالم الاتجاه العام بعد الحرب الأولى ، فقد شغل كل قطر بقضيته الخاصة . وقام فى معظم هذه الدول زعماء صنعهم الاستعمار عملوا على شغل الأقطار بالخصومات الداخلية ومع ذلك فإن هذه الشعوب لم تنس هدفها الأصيل ولم تتوقف عن الدعوة للتخلص من الاستعمار .

وقد وقعت بعد الحرب العالمية الأولى حركات انقلابية كثيرة شملت الشرق والغرب وتحققت كلها في خلال الخمس السنوات الأولى بعد الهدنة ·

الحركة الأولى في الحجاز ومصدرها رفض الشريف حسين للوضع الذي اتخذته انجلترا إزاء البلاد العربية بعد أن وعدت بمعاونتها على إقامة دولة عربية بها ، ثم نكثت الوعد وظهر أنها اتفقت مع اليهود والفرنسيين على تقسيم هذه الرقعة فأعطت اليهود وعد بلفور وأباحت لفرنسا انتزاع سوريا ولبنان من أهلها الأحرار . وكان من نتائج ذلك أن رفض الشريف حسين توقيع المعاهدة التي عرضها الإنجليز والتي تقضي عليه بقبول الوضع القائم في سوريا وفلسطين باعتباره ملكا على الحجاز فقط · وقد استغل السعوديون فرصة رفض الشريف لهذه المعاهدة وهاجموا الحجاز واستولوا عليه وفقد الشريف عون انجلترا في اللحظة الحاسمة ! . وباستيلاء السعوديين على الحجاز قامت دولة جديدة كبرى في الجزيرة العربية حدودها الحجاز ونجد ...

الحركة الثانية في تركيا ، فقد انهزمت تركيا العثمانية (دولة الخلافة) في الحرب العالمية الأولى وانقض الحلفاء عليها يمزقونها ويقسمونها بينهم ، وعقدوا بذلك معاهدة (سيفر) وبدأت اليونان تحتل الجزء المتاخم لحدودها ثم امتلك مصطفى كمال زمام الموقف وحارب المحتلين وانتصر عليهم وأجلاهم وأقام الدولة الكمالية الجديدة في تركيا نفسها ·

وبذلك سقطت الدولة العثمانية ، وقامت الدولة الجديدة على غير الأساس الإسلامي السابق · وقد تبع هذا إسقاط الخلافة وطرد الخليفة في مارس ١٩٢٤ · ولم يلبث الأتراك أن انتسبوا إلى المعسكر البلقاني وقطعوا علاقاتهم جميعا بالدول العربية والإسلامية بعد أن انتصروا باسمها وعمونتها · وكان ذلك انقلاباً شاملا ·

والحركة الثالثة فى سوريا ، فقد كانت سوريا خلال الحرب الأولى مركز نشاط الحركة العربية وقيادتها ، وبها نصبت المشانق للعرب الأحرار الشهداء . وقد أخذت بعد الحرب تستعد لإقامة الدولة العربية التى عقدت من أجلها معاهدة (الشريف حسين — مكماهون) وأخذ فيصل ابن الشريف حسين يتنقل بين سوريا مركز الحركة وباريس مقر مؤتمر الصلح محاولا عرض حقوق العرب ومطالبهم فلم يلق إلا المعارضة والرفض والتجاهل . وانتهى الأمر بأن أعلن نفسه ملكا على سوريا ، ولكن فرنسا لم تلبث أن هاجمت سوريا واشتبكت مع السوريين فى ميسلون (٢٤ يونيو ١٩٢٠) واستولت على دمشق عاصمة الأمويين الشماء ، وشواطىء دولتى المشرق وموانيها وألغت الملكية وأقامت جمهورية تحت الانتداب الفرنسى .

والحركة الرابعة : كانت فى فلسطين فقد أعلنت انجلترا تصريح بلفور قبل أن تضع الحرب أوزارها فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ إرضاء لليهود وأبيحت على أثره الهجرة الصهيونية إلى الأرض المقدسة . وكان ذلك بداية لانقلاب ضخم كشفت آثاره بعد ربع قرن عن أعظم مؤامرة على العالم الإسلامى تتضاءل أمامها كل مؤامرة قام بها الاستعمار من قبل .

أما الحركة الخامسة فكانت فى إيران والأفغان فقد حدث انقلاب عسكرى انتهى باستيلاء القائد « رضا شاه بهلوى » على الملك وأقام دولة حديثة قوية . أما الانقلاب الأفغانى فإن أمره لم يتم فقد حالت بعض التقاليد دون نجاح دعوة أمان الله خان ... مما أدى إلى خروجه من البلاد .

الثورات التحريرية

فى العالم الاسلامى

قامت فى العالم الاسلامى ثورات دامية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كان لها أبعد الأثر فى تغيير وجهة نظر الدول الغاصبة المستعمرة . وقدقامت هذه الثورات جميعها فى السنوات الأولى التى تلت الحرب ، وامتد بعضها طويلا ، وتلاحقت ضرباتها كما حدث فى فلسطين . وقد برهنت دول الشرق الإسلامى على كون روح التمرد على الاستعمار فى أعماقها وامتداد المقاومة الواضحة له ، هذه المقاومة التى لم تنقطع خلال فترة ما بين الحربين .

وكان زمام حركة المقاومة فى يد الشعوب وليس بيد الحكام الذين وقفوا موقف الخصومة لقضايا الأوطان فى بعض الأحيان . وعمل بعضهم على سحق هذه الروح وإعانة الدخيل فى سبيل المناصب التافهة والهيلمان الهزيل . وقد كان لهذا أثره فى أن بعض هذه الثورات تحطمت بعد فترة قليلة وضاع وهجها الذى كان يمكن أن يؤدى إلى سحق الاحتلال وكان ذلك نتيجة لهذه القيادات التى حاول الاستعمار أن يفرضها على بعض الشعوب .

ثورة مصر سنة ١٩١٩

كانت الثورة الأولى فى الشرق بعد الحرب ، هى ثورة مصر فى مارس ١٩١٩ قامت بقيادة الشعب وليس بقيـــادة زعيم ما . وإن زعيما ما ممن ارتبطت أسماؤهم بها فيما بعد — أو فيما سجل بعض المؤرخين — لم يكن له أثر فى إشعالها . وإن استفادمنها هؤلاء الزعماء وجنوا ثمارها ، وأقاموا مجدهم على أجداث شهدائها ودماء المجاهدين فيها . وقد اتسمت هذه الثورة بالتنظيم والحماسة والبراءة

من الغرض ، ولو وجدت وراءها من يستغل آثارها لمصلحة الوطن ، لتحقق لمصر مطالبها كاملا في الحرية والسيادة . ولكن الغاصب استطاع أن يضع الماء على هذه الجذوة . وأن يقاوم روح العزة والإيمان بفلول من الصنائع والأذناب الذين سلمت إليهم في ذلك الوقت مقاليد الأمور ، وقد أدهشت الغرب هذه الروح المصرية الصادقة القوية من الإيمان بحق الوطن ، واستدعى الأمر أن ترسل بريطانيا لجنة تحقيق إلى مصر باسم « لجنة ملنر » وقد قاطع الشعب هذه اللجنة مقاطعة تامة ، وأرق إليها أكثر من ألف برقية احتجاج . ومضى هذا الروح القوى دافقاً فاستطاع الشعب أن يحول بين الزعماء وبين الحكم فتعطل الدولاب الحكومى واضطرت الجهات المختصة أن تكل أمر الوزارات إلى وكلائها .

ولكن ذلك كله لم يمض أمره على الوجه الذى كان ينبغى أن يمضى فى عرف الثورات عندما قبل زعماء مصر التفاوض مع نفس الرجل الذى جاء إلى مصر ، والذى رفض المصريون التحدث معه «ملنر» فعقدوا أول مائدة مستديرة للمفاوضات معه وبذلك وضعوا الماء على نار الثورة وحولوها من الوطنية إلى السياسة . ذلك أن الدستور الذى أعلن كان منحه من الملك الطاغية ، وأن البرلمان الذى أقيم كان مجالا للصراع الداخلى والتنازع الحزبى البغيض . وقد أعلن الاستقلال فى نفس الوقت الذى كانت جنود الاحتلال ترابط داخل الوطن لتفرض « نصائح » بريطانية فى أى وقت ، وفى كل وقت .

ثورة العراق ١٩٢٠

كانت إنجلترا قد أرسلت بعض القوات من الهند إلى حدود العراق سنة ١٩١٦ لتصطدم بالقوات التركية هناك ، وبعد معارك دامية احتلت انجلترا القطر العراقى ، وأجلت عنه قوات الأتراك . وقد رغبت انجلترا إذ ذاك أن تنفذ

في العراق نظامها الاستعماري القائم في الهند بوضع الحماية وإقامة حاكم إنجليزي في بلاد الرافدين .

وقد قامت على أثر ذيوع هذا الاتجاه ثورة دامية مدمرة ، كانت من أعنف الثورات التي شهدها الشرق . فقد كبدت الإنجليز خسائر ضخمة وأقنعتهم بخطأ الفكرة التي يرمون إلى تنفيذها ، واضطرتهم إلى العدول عنها إلى إقامة حكم « ملكي دستوري » وفق النظام الذي قام في مصر في ذلك الوقت .

ثورة السودان سنة ١٩٢٤

وعلى أثر الوضع الجديد في مصر بعد تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ كانت الجيوش المصرية والإدارة المصرية لا تزال في السودان تضيق بالاستعمار الإنجليزي القائم منذ توقيع اتفاقية ١٩ يناير ١٨٨٩ الباطلة ، ومنذ أن رفعت إنجلترا علمها في السودان بغير حق مشروع .

ولم يكف بريطانيا أن تقف عند هذا الحد ، بل ظلت ترقب الفرص وتتحين الظروف ، حتى وقع حادث السودان سنة ١٩٢٤ ، فاهتبلته وفرضت على مصر شروطا قاسية ناءت بها الزعامة السياسية المصرية القائمة في الحكم إذ ذاك ، ولم تستطع بالرغم من جبروتها الموهوم أن تصد هذه الضربة القاسية . بل خرت صريعة وتركت الحكم لوزارة أخرى تخلفها من صنائع الاستعمار وأذنابه . وكان من الحتم على هذه الوزارة الجديدة أن تسلم بكل ما طلبه الإنجليز من غرم بدفع نصف مليون جنيه وطرد الجيش المصري من السودان

في هذا الوقت بالذات اندلعت الثورة في السودان احتجاجاً على قطع العلاقات بين شمال الوادي وجنوبه . وقد قاوم الإنجليز هذه الثورة بالعسف

والتنكيل ، ولم يجد أهل الجنوب عوناً من مصر لتحقيق رغباتهم ، فقد كانت مصر إذ ذاك واقعة فى صراع حزبى عنيف !

ثورة سوريا سنة ١٩٢٤

على أثر معركة «ميسلون» تجمعت قوة سوريا المعنوية من جديد لتواجه فرنسا حين أرادت أن تتحكم فى الشعب العربى الأبى ، المناضل المبرز فى ميدان الحركات الوطنية ، فرغبت فى تمزيق جسدها إلى ولايات صغيرة وقطع متفرقة ، حتى لا تبقى على كيان الدولة القوى الموحد . ولكن فرنسا عجزت عن ذلك ، فقد واجهت ثورة مدمرة من حرب العصابات القاسية ، وكان ذلك مما لا قبل لها به . وقد ظل عود الثورة صلباً ، وامتد أوارها واشتد أكثر مما قدر لها الفرنسيون مما دعاهم إلى التراجع ، وفشلت فكرة تمزيق سوريا وبقيت موحدة فى حدودها القائمة وتحقق لها بذلك إقامة جمهورية ونظام دستورى برلمانى .

ثورة الريف سنة ١٩٢٦

كانت ثورة الريف التى يقودها الأمير عبد الكريم الخطابى أثراً من آثار الحرب العالمية الأولى ، فقد انتهت هذه الحرب ، دون أن يجد المغرب من فرنسا وإسبانا ما يدل على الاتجاه نحوه تعديل أوضاعه الاستعمارية الخانقة . فثار الأمير ومعه جحافله المدربة الصادقة العزم فى المنطقة التى احتلها الأسبان ، ونجحت الثورة نجاحاً باهراً ، وتقدم عبد الكريم وجيوشه تقدما واضحا كاد يقضى على نفوذ الأسبان دفعة واحدة لولا أن اتفقت فرنسا مع أسبانيا فى آخر الأمر ، وطعنتا جيوش العرب من الخلف ، فأصبحوا وإذا بهم يحاربون فى ميدانين . ومع ذلك

فقد صمدوا وقتا طويلا حتى تم التآمر عليهم بتوحيد القيادة بين الفرنسيين والأسبانيين .

* * *

وكانت هذه الثورات المختلفة فى الوطن الإسلامى إيذانا بتغيير الوضع فيه تغييراً لم يكن حاسما، فقد كان الاستعمار يتحول لفظا لا حقيقة . فتغيرت كلمة الانتداب إلى كلمة حكم ذاتى ، وكلمة الاحتلال إلى كلمة معاهدة صداقة ، وأصبحت كلمة الاستقلال تعنى قيام برلمانات ودساتير فى ظل جيوش الاستعمار القائمة والمندوب البريطانى الذى يفرض رأى بلاده فى كل أمر جليل أو صغير .

وفى خلال هذه العشرين عاما من عمر الشرق الإسلامى لم تكف المقاومة الشعبية عن العمل ، وعن الثورة ، وعن المقاومة ، وعن محاولة تحطيم الحكومات التى أقامها الاستعمار .

ولم يحدث من الأمور شىء ذى بال فى هذه الفترة ، إلا سلسلة من أعمال المقاومة . كان أخطرها ما حدث فى فلسطين ، فقد كان الاستعمار اليهودى يزحف على المنطقة فى ظل بريطانيا التى كانت تحميه ، وكانت فلول اليهود ترد من أنحاء العالم مهربة إلى هذه المنطقة من العالم الاسلامى متأهبة لإقامة الوطن القومى الذى وعد به بلفور ، وكان العرب فى فلسطين إذ ذاك يعانون محنة قاسية ، ويقاومون مقاومة عجيبة ، ويبذلون من دمائهم وأرواحهم وأموالهم كل شىء فى سبيل مقاومة هذا التيار العجيب الذى كان معززاً بسلطان بريطانيا وحديدها ونارها .

وفى عام ١٩٣٩ وقعت الحرب العالمية الثانية التى امتدت حتى عام ١٩٤٥ ثم وضعت أوزارها ليستفيق العالم الإسلامى على حركات جديدة تطالب بالحرية والجلاء ، وبضم الشمل فى اتحادات قومية تكون قوة لها كيانها الفعال فى هذا العالم .

العالم الاسلامى والاستعمار

مضى الاستعمار بعد الحرب الثانية (١٩٤٦ — ١٩٥٧) يقاتل فى سبيل البقاء بعد أن اشتعلت الثورات ضده فى كل مكان . فى كل طرف من أطراف العالم الإسلامى بصورة مزعجة جعلت المستعمرين يفقدون أعصابهم ويدافعون عن آخر أمل لهم فى البقاء بين شعوب قد عقدت العزم على التحرر والتضحية فى سبيل الخلاص وإن كنا نحن فعلا — وبعد مرور أكثر من مائة وخمسين عاما منذ بدء هذا الزحف الاستعمارى على الشرق — على وشك إعلان تصفية هذا الأخطبوط الغادر الذى يطلق عليه كذباً اسم « الاستعمار » وهو من أسماء الأضداد . إذ متى كان الاحتلال بظلمه وطغيانه وتعسفه واعتصاره لأقوات الشعوب وخيراتها معمراً أو مستعمراً وهو آلة الخراب وأداة الدمار ؟

* * *

ظهر الإنجليز عسكرياً وسياسياً فى البحر الأحمر عام ١٧٩٢ وفى عام ١٨٣٦ احتلوا عدن — أى بعد ست سنوات من احتلال الفرنسيين للجزائر الذى تم عام ١٨٣٠ — ثم توالت زحوف الاحتلال على الشرق الإسلامى .

ولا يمكن الفصل مطلقاً بين الإسلام والاستعمار الذى حاول منذ اللحظة الأولى أن يقاوم ويحطم هذه الروح القوية الكامنة فى الشرق والتى استطاعت أن تقيم امبراطورية ضخمة فى أقل من قرن من الزمان بفضل التعاليم التى حملتها رسالة الإسلام إلى العالمين . وامتدت فى غزوها إلى أطراف الصين إلى أن بلغت الأندلس وعبرت موغلة إلى أوربا حتى نهر اللوار وأسوار روما ...

كان الهدف الأول للاستعمار هو تمزيق هذا الجسد الموحد وإثارة النزعات

القبلية والدينية والمذهبية . وشغل كل قطر بأزمات ومؤامرات لا تدع له معها مجالا للتوحد أو الترابط .

وتغلغلت روح الاستعمار فى المدرسة والمجتمع والمنزل وانتظمت ميادين الفكر والثقافة فسادت روح من الشك والتحلل والتنكر لأمجاد الماضى مع الاستهانة بأخطار الاحتلال وآثاره .

وتمزقت هذه المنطقة الضخمة بهذا التناحر الاجتماعى والصراع السياسى إلى وحدات وشعاب ، وظهرت أزمات وزعامات وخلافات ، وأضحى الشرق الإسلامى بعد قليل من الزمن أتونا تتصارع كل أجزائه . وألقى فى روع الناس أن كل توحد يعد تعصباً ، فهو أمر غير مرغوب فيه ، وكان على الحكام الذين اختارهم الاستعمار فى هذه الفترة أن يسلموا وينفذوا نصائح القناصل .

وعُرف الاستعمار بالخداع والتضليل فى الوعود والمعاهدات والاتفاقات التى يعقدها والتى تقوم بين جانبين غير متكافئين والتى تتم فى ظل الأساطيل وقوات الاحتلال .

ولقد كبل الغرب الشرق بقيوده من معاهدات سياسية ، وارتباطات اقتصادية وقواعد وموانىء . ولكن الشرق لم يقف مكتوف اليدين إزاء الاستعمار فقد ظل ثائراً متمرداً مكافحاً . وقدم ضحاياه وشهداءه من خيرة أبنائه ؛ هؤلاء الذين ضربهم الإنجليز والفرنسيون والايطاليون بالقنابل ورفعهم على أعواد المشانق .

إن ثوره عبد القادر وعبد الكريم فى ألمغرب . وعمر المختار فى ليبيا وعرابى وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٣٠ والثورة الكبرى فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ فى مصر وثورة المهدى فى السودان ويعقوب فى التركستان والعرب الذين شنقهم جمال السفاح سنة ١٩٢٠ والثورة فى سوريا العربية عام ١٩١١ ومعركة ميسلون وثورة العراق وثورات

فلسطين سنة ١٩٢٢ — ١٩٢٩ ، ١٩٣٥ وشامل فى القوقاز وسوكارنو وحتى فى أندونيسيا كلها أدلة على أن الرجل فى العالم الإسلامى ظل يغلى ، وأن المنطقة الإسلامية لم ترض بالتمزيق ، ولم تستسلم للذبح ولم ترضخ للاستعمار .

وفى خلال ذلك حاربنا الاستعمار بالتبشير الذى هاجم الشرق هجوماً عنيفاً ، وأنفق الأموال الضخمة واتخذ أوكاره فى المدارس والمستشفيات والملاجىء وامتد خطره من الدار البيضاء غربا إلى الصين شرقا .

كما أوقف الاستعمار الغربى التبادل الاقتصادى بين دول الشرق الإسلامى ، ووضع قيوداً شديدة اقتصادية وسياسية للانتقال والتصدير وحصر معاملات كل قطر مع الدول المحتلة وحدها .

والاستعمار هو الذى فرض الظهير البربرى على المغرب (١٦ مايو ١٩٣٠) ليقضى على الوحدة والعروبة واللغة العربية والإسلام فى هذه مراكش .

وهو الذى أثار الخصومات بين القادة والزعماء وخلق فى كل وطن أكثر من زعيم وجبهة وحزب .

وهو الذى ألقى بمشروعات وهمية فى سبيل تركيز مطامعه ، كمشروع الهلال الخصيب وسوريا الكبرى ولبنان الصغير وحلف بغداد والحلف الاسلامى .

وهو الذى أنشأ « إسرائيل » فى قلب الأمة العربية ومكن للصهيونيين فيها لتكون شوكة ضد العرب والمسلمين .

وهو الذى شرد أهل قطر بأسره هم « الفلسطينيون » الذين أصبحوا لاجئين يعيشون فى الخيام منذ عشر سنوات .

وهو الاستعمار الذى خلق حزب الأمة فى مصر سنة ١٩٠٦ ومدرسة سعد زغلول ومدرسة نورى السعيد التى تمزقت إلى أحزاب وأحزاب . وهو الذى أرث الخلافات والخصومات بين بيوت العرب القديمة .

وهو الاستعمار الذى ابتدع نظرية التبادل والتقطية عند ما عقد اتفاق عام ١٩٠٤ بين فرنسا وبريطانيا فأطلقت كل منهما يد الأخرى فى القطر الذى تحتله : بريطانيا فى مصر وفرنسا فى المغرب .

وهو الاستعمار الذى أثار الخلافات القديمة بين المسلمين كالسنه والشيعة والبربر والعرب والفرعونية والبابلية والأشورية فى عدد من الأقطار وأحياها . ثم مزق هذه الأقطار إلى أجزاء ثم اشترى حكاما وصنائع وأعوانا فى هذه الأقطار .

وهو الذى صنع « لجان التحقيق » لتكون وسيلة لخداع الشعوب وتخديرها وتضليلها .

وهو الذى أنشأ عصبة الأمم ثم هيئة الأمم لا لخدمة الشعوب الصغيرة المحتلة بل لتنظيم هذا الاحتلال .

وهو الاستعمار الذى خدع المسلمين والعرب وأهل الشرق فى الحرب الأولى بنظرية حق تقرير المصير التى دعا إليها ولسون فى الحرب الأولى . وبنظريات الحريات الأربع التى دعا إليها روزفلت فى الحرب العالمية الثانية .

وهو الاستعمار الذى دافع عن فاشودة حين هاجمتها القوات الفرنسية بحجة أنها من أملاك مصر . فلما جلت فرنسا عنها احتلتها بريطانيا لحسابها هى .

وهو الاستعمار الذى أغرى مصر بالاستدانة حتى وضعها تحت نير الاستعمار وفصل بين تركيا ومصر ومن أجله أعانت بريطانيا وإيطاليا فى مهاجمة ليبيا ثم تآمرتا على سلخ واحة جغبوب من مصر لأن مجاهدى طرابلس كانوا يلجأون إليها باعتبارها حصنا مصرياً .

كما انضمت فرنسا لأسبانيا فى حرب الريف ١٩٢٦ لهزيمة مراكش بقيادة عبد الكريم .

* * *

وفى كل ثورة قامت فى الشرق الإسلامى حاول الاستعمار أن يضع الماء على نارها ولم يثبت مطلقا أن الاستعمار رفع مستوى قطر من الأقطار التى احتلها .

كما عمد الاستعمار إلى خلق طبقة معينة من أذنابه فى كل قطر ، يسلم إليهامقاليد الحكم عندما يعلن استقلال هذه الأوطان ثم يختفى خلفها ويحركها من وراء ستار .

وفى الوقت الذى حرض الحلفاء الشريف حسين على إعلان الثورة على الأتراك عام ١٩١٧ أعلنوا تأييدهم المطلق له وأكدوا وعودهم الضخمة ... وما إن أعلن الثورة حتى تركوه .. وتخلوا وعنه وحاولوا أن يحصروها فى أضيق نطاق .

وقد كان الإنجليز يعملون ذلك كخطوة أولى لجمع المنطقة العربية كلها تحت نفوذهم وتقسيمها فيما بينهم .

وكان الاستعمار ينظر إلى احتلال العالم العربى كجزء من برنامج قديم قام به الفرنجة فى الحملات الصليبية القديمة فإن واحداً من زعماء الاستعمار ما كاد يدخل دمشق حتى قصد قبر صلاح الدين الأيوبى ... وقال : «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين» صلاح الدين الذى هزمهم وأخرجهم من الشرق الإسلامى .

وفى الحربين الماضيتين احتل الاستعمار جميع موانىء الشعوب العربية والاسلامية وسواحلها ومطاراتها واستغل تموينها وخيراتها لحساب جيوشه .

وعمل الاستعمار على عصر العالم الإسلامى مرتين : المرة الأولى باستغلال خيراته وبتروله ومواقعه الاستراتيجية وخاماته وثرواته الطبيعية وحرمان أصحابها منها . وفى نفس الوقت اتخذ هذه الأقطار أسواقاً لتصريف منتجاته .

وخدع الاستعمار الناس بأسماء متعددة : الانتداب والوصاية والدومنيون

والحكم الذاتى ، وقال ولسون فى مبادئه التى أعلنها فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ : لا يصح لأمة أن تكره أمة أخرى على اتباع سياستها ، وإنما يجب أن يترك لكل شعب الحق فى تقرير سياسته ورسم طريقه الذى يراه مؤدياً إلى التقدم دون إحراج أو تهديد أو إرهاب لا فرق فى ذلك بين شعب ضعيف وشعب قوى .

فإلى أى حد نفذت شعوب الغرب المستعمرة هذا الكلام البراق المعسول .

وقالت بريطانيا وأمريكا فى « ميثاق الأطلنطى » الذى عقدتاه فى ١٤ أغسطس عام ١٩٤١ « عدم رغبة الدولتين فى التوسع الإقليمى وعدم سماحهما بوقوع تعديلات إقليمية إلا بناء على رغبة الشعوب التى تقع فيها هذه التعديلات ، واحترامهما لحق كل شعب فى اختيار شكل الحكومة الذى يرتضيه » وأعلنتا الحريات الأربع « حرية القول والرأى . حرية العبادة ، حرية التحرر من الفقر والخوف ، حرية التحرر من الظلم والاستبداد » .

فهل طبقت الدول المستعمرة المضللة هذا الكلام الأجوف .

وأرسل الاستعمار رجالا من رجاله ليخدعوا العرب باسم الصداقة : من هؤلاء فيلبى ولورنس وبلنت وسبيرس .

* * *

وقد كشف الشرق الإسلامى عن كل هذه الخدع وعرفها . ولم يستسلم يوماً ، وعاش فى حرب دائمة وصراع مستمر مع أعوان الاستعمار .

وأشرق ضياء جديد ، وبدأ العالم الإسلامى يختار حكامه وقادته ورجاله ، وبدأ الغرب المستعمر يتلقى الضربات من كل مكان ، وتصدع بناء الاستعمار نتيجة للروح القوية الحية التى سادت الشعوب :

والعجيب أن الاستعمار على الرغم من علمه الواسع وفهمه السيكولوجى لم يواجه نفسيات الشعوب مواجهة صحيحة

فإن هذه الشعوب التى استيقظت لم تعد لها قدرة على إحتمال المناورات المكشوفة التى خدعت بها عشرات المرات .

وكشفت الشعوب عن خداع المستعمرين وبدأت تعلن العداء الفعلى له ، وعاون على ذلك أن العرب والمسلمين تلفتوا إلى حقيقة واضحة هى القوة فعمدوا إلى خطة جادة ، هى دعم قوتهم المعنوية بالقوة المادية فبدأوا يتسلحون ويدعمون مراكزهم . وبدأ الاستعمار يتراجع وينسحب ولكن فى بطء وأخذ يغير أساليبه ولكن فى غرور المهزوم ، وفى حماقة من يرى المطامع الكاذبة ، التى أخذها غدراً وظلماً تتفلت من يده واحدة بعد أخرى ... فإذا هو صفر اليدين .

هزيمة انجلترا فى العالم الإسلامى

امبراطوريتان حكمتا العالم الاسلامى قسرا ولم يرض عنهما يوما وقد انهارتا وبقى العالم الاسلامى : هما بريطانيا وتركيا . وتعد بريطانيا العدو التقليدى الأول للعالم الاسلامى ، وأكبر الدول الغربية تعصبا وخصومه للشرق . وقد دفعت غيرها إلى الخطوط الأولى لمعركة الاستيلاء على العالم العربى ثم زحفت فأحرزت نجاحا منقطع النظير أجلت به البرتغال وأسبانيا وإيطاليا وهولندا عن المواقع التى حصلت عليها وفرضت هى سيطرتها وسلطانها . كذلك فعلت مع دول الخليج الفارسى وفى الهند فى إحتلال مصر وفى شراء أسهم قناة السويس

وقد ارتبط الاستعمار البريطانى للشرق الاسلامى منذ عام ١٧٥٦ عندما هاجمت بريطانيا سواحل الهند وحطمت آخر أثر للامبراطورية الإسلامية . منذ ذلك التاريخ فى خلال مائتى عام كان الشرق الاسلامى مسرحاً لصراع ضخم بين بريطانيا وبين الأمم التى تعيش فى هذه الرقعة بين أندونيسيا والمغرب .

وقد شهدت هذه المائتا عام صراعا جباراً حاولت فيه بريطانيا سحق كل قوة وطنية فى هذه الأقطار . وقد قاومت هذه الأقطار ووقفت أمام طغيان بريطانيا وجبروتها وجورها وأسلحتها وغدرها ومؤامراتها ومناوراتها وقدمت الضحايا والشهداء من خيرة شبابها .

ثم استدار الزمن دورة كاملة ففى عام ١٩٥٦ وبعد مائتى عام كاملة إذا بريطانيا فى الحضيض وقد تخلفت وأصبحت من دول الدرجة الثالثة بعد هزيمتها الساحقة فى معركة قناة السويس واستفاق الشرق الاسلامى وبدأ يرفع عن كواهله

قيود الاستعمار التى كبلته سنوات طويلة . ليحقق انتصارات ضخمة فى مجال الحرية . وبرزت القومية العربية واضحة قد أثبتت وجودها ودعمت قواعدها وأصبحت قوة ضخمة يحسب حسابها .

ولعل أبرز مظاهر للشرق الاسلامى اليوم أن شعوبه هى التى ترسم طريقه نحو الحرية والتجمع والقضاء على آخر معقل من معاقل الاستعمار وأن الحكومات التى يفرضها المستعمر على هذه الشعوب تظل فى عزلة كاملة عن شعوبها غير آمنة على بقائها .

أن المارد قد استيقظ . وأن الغرب الاستعمارى الذى ظل قرنين كاملين يسوم الشرق شواظا من ناره يرتعد فرقا اليوم لهذه الحقيقة . ويكتل قواه لكى يحاول تحطيم هذا العملاق . وهو مخدوع لمحاولته الوقوف أمام المارد الخطير .

وإذا كان الغرب اليوم يحاول جاهدا أن يقاوم هذا العملاق وأن يقص أجنحته ليعيده إلى حظيرة الظلم فانه عبثا يحاول .. فقـــد انكشفت كل الخدع والأحابيل .

وأن الاستعمار اليوم حين يحشد قواه ليقاتل انما يحاول محاولة يائسة ستكون خاتمة تاريخه وستحرق آخر قواعده .

وأن الغرب لعلى يقين من أن الشرق الإسلامى لم يهن يوما . وأنه ظل يقاوم طوال تاريخه كله . وأنه واجه الغرب بضربات قاتلة فى عدد من المواقف الحاسمة . مما زلزل قواعده وعجل بنهايته وجعله يترنح وهو ينحدر فى طريقه إلى المغيب .

واليوم تدوى صيحة تصفية الاستعمار فى كل مكان حيث تقف الشعوب كلها فى معركة ضخمة فاصلة .

ولقد حطمت بريطانيا أكبر قوة عسكرية حربية أنشأتها مصر عام ١٨٢٠ بالتآمر الاستعماري وذلك حرصا منها على عدم قيام أى قوة ناهضة فى الشرق تستطيع أن ترث تركيا وتسيطر على مناطق النفوذ فى الشرق الاسلامى .

وقد قاومت بريطانيا النهضة لأن مصر أنشأت المصانع والمعامل وأخذت تستغنى عن احتكارات انجلترا وواردات بلادها كما أقامت جيشا قويا . واستطاعت بريطانيا ومعها الغرب كله أن تنسى خلافاتها وتتجمع فى «نفارين» لتحطيم أسطول مصر عام ١٨٢٧ مما أدى إلى انهيار هذه النهضة التى كان قيامها على غير قاعدة شعبية ، العامل الأكبر فى تمكن بريطانيا من تحطيمها بعد اقناع فرنسا بسحب قوادها من الجيش المصرى . ولقد حاولوا هذه المحاولة مع مصر بعد ثورة ١٩٥٢ غير أنهم عجزوا عن تحطيمها وتحطموا هم ...

وبذلك كان الانجليز هم الأعداء الطبيعيون لكل حركة ناهضة ولكل نهضة حقيقية فى الشرق .

* * *

وقد استطاعت بريطانيا أن توقع بين العرب والترك — وهما شرقيين مسلمين — وتمكنت بالغدر والخداع أن تخدع العرب فى حرب الأتراك فسقط الضحايا من كلا الجانبين لتكون ثمرة المركة انتصاراً للاستعمار نفسه باستيلاء بريطانيا وفرنسا على المناطق التى حررها العرب من أيدى الترك مع تجاهل الوعود التى أعطيت لقادة الثورة بانشاء الدولة العربية التى كان قد تم الاتفاق عليها بينهم وبين الشريف حسين .

واتخذت بريطانيا صوراً مختلفة من أساليب السيطرة والضغط على العالم

الاسلامى . اتخذت من عوامل اختلاف الدين أو المذهب أو النزعة سبيلا للتفرقة بين الأمة المتحدة . فأثارت الخلافات بين العرب والبربر فى المغرب والمسلمين والنصارى فى مصر والهندوس والمسلمين فى الهند . وأشعلت فتنا كبيرة فى هذا الصدد منها ما حدث فى مدن الهند المقدسة أمثال بنارس وكلكتا وأحمد أباد كما أوفدت إلى المنطقة عدداً من رجالهم الاستعماريين أمثال جلوب ولورنس وفيلبى وكليتون وسيبرس . وقد حاول هؤلاء خداع أهل المنطقة لكى يثقوا بهم وقد انخدع العرب فعلا بلورنس وغيره . وكان هؤلاء الأعوان يتعلمون اللغة العربية بلهجاتها ويصادقون أهل البلاد ويلبسون الملابس الوطنيه ويقومون فى الوقت نفسه بالتجسس لحساب بلادهم . كما اعتنق فيلبى الاسلام وأطلق على لورنس ملك العرب غير المتوج .

وقد لعب هؤلاء أدواراً هامة فى ميدان السياسة . ثم كتب بعضهم مؤلفات كشفوا فيها عن حقيقة دورهم وعن رأيهم الصريح فى العرب كما فعل لورنس فى كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » .

ومنهم بيرسى كوكس داهية البحرين الذى عرف لغة القوم ووقف على تاريخهم ودسائس الحكومات والأحزاب والبيوت المختلفة. واستغلت بريطانيا التبشير كوسيلة فى تحطيم معنوية الشعوب وتهوين الروابط والتقاليد والمثل التى يعيش عليها العالم الاسلامى فقام التبشير بحملة ضخمة فى أفريقيا وآسيا منذ عام ١٨٨٢ امتدت خمسين عاما . وكانت لهذه الحملة اعتمادات ضخمة ، مؤلفات وصحف ومؤتمرات وزعماء أمثال زويمر وغيره .

ولقد حاول الفرنسيون تنصير البربر بعد أن استصدروا الظهير البربرى فى ١٦ مايو ١٩٣٠ مدعين أن البربر أصلهم من الجنس الرومانى العريق فى المسيحية وان الاسلام طارىء عليهم . وقد أرادت فرنسا بذلك الظهير أرغام البربر ، الذين

يدينون بالاسلام منذ ١٣٠٠ سنة على ترك دينهم واعتناق المسيحية بالقوة . وكان من نتائج صدور هذا الظهير اغلاق المكاتب الإسلامية وإرسال المبشرين يبشرون بالمسيحية ويبنون الكنائس ولم يكن هذا معقولا بعد أن بلغ البربر منزلة ضخمة فى تاريخ الاسلام فحاربوا أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وهم الذين فتحوا الأندلس . وقد لجأت روسيا القيصرية إلى مثل هذا الأسلوب فى استعمار التركستان الغربية وتعاونت بريطانيا مع قوة الصهيونية ضد العالم الاسلامى : فقال أوجين يونج : أن الحروب الصليبية من يوم اعلانها على الاسلام لم تخمد نارها ولم تغمد أسلحتها . وقال فالوفا سورى بيرونى (١٩٣٠) أنه يجب توحيد صفوف فرنسا وايطاليا وانجلترا وأسبانيا ضد العرب والإسلام .

وقد حارب الغرب العالم الإسلامى ممثلا فى صور مختلفة ومظاهر متعددة . ولا يغيب عن البال أمر الجنرال جزاريانى حاكم ليبيا الذى أمر باغلاق المراكز السنوسية ومصادرة أموالها وطرد ٨٠٠ ألف رجل وامرأة بأطفالهم وأغنامهم من الجبل الأخضر وحصرهم فى بقعة جرداء من الأرض . ومن بين أساليب الاستعمار العجيبة ما رواه مؤلف كتاب « ماهنالك » من أن تركيا أرادت أن تقبض على (مدحت باشا) أبو الدستور التركى وهو وال على أزمير فهرب إلى قنصل فرنسا فلما طلبت تركيا من فرنسا تسليمه طلبت فرنسا أن تتسلم « تونس » فى مقابل تسليم مدحت باشا وقد تم الأمر واشترت الدولة رجلا بمملكة !

ولقد قاوم العالم الاسلامى الاستعمار البريطانى الفرنسى والايطالى ووقف فى وجهه وهو الأعزل من السلاح . وقف بالأجساد المرصوصة التى قاومت القنابل والمدافع واستشهدت . وقام رجال أفذاذ قادوا معارك مظفرة أمثال عبد القادر الجزائرى وعبد الكريم الخطابى وعمر المختار والمهدى الكبير وعرابى ويوسف العظمة وجمال عبد الناصر .

وقد هزمت بريطانيا فى الشرق الاسلامى هزائم متوالية . بعد أن عمدت إلى التفرقة بين العرب باعطاء وعد بلفور لليهود وتقسيم المنطقة بينها وبين فرنسا ووضع الحوائل والفواصل بين المناطق العربية . فقد اضطرت انجلترا أن تعترف بوحدة العرب وأن تطالب بالجامعة العربية واضطرت إلى الجلاء عن فلسطين بعد أن جلد اليهود رجالها وقتلوا وزيرها ، واضطرت أن تجلو عن الهند ومصر والسودان وعدد آخر من الأقطار تحت ضغط قوة الحركات الوطنية واندفاع الشعور الوطنى .

وانهارت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية وعاشت على مشروع مارشال وحلف الأطلنطى ثم تحطمت فى معركة السويس عام ١٩٥٦ على أثر هزيمتها هى وفرنسا فى هذه المعركة التى اضطرت بعدها بريطانيا أن تخفض قواتها العسكرية وتبيع أسطولها البحرى وأن يقول كبار رجالها أن الامبراطورية التى كانت لا تغيب عنها الشمس قد انطوت .

فرنسا الدولة الذيل

وأعنى ما أقول ، فهى ذيل لكل دولة ولكل فكرة ولكل مذهب

فهى تتبع بريطانيا لأنها لا تستطيع أن تقف بمفردها ، وعندأغار الألمان على أوربا خرت راكعة أمام قوتهم ... وهى ما تزال تخضع أمام الشهوات حتى عرف العالم أنها مصدر الأزياء والعطور وأنها صاحبة القيادة لمذاهب الجنس والكشف والوجودية . وأنها مهوى أفئدة العابثين والمستهترين الراغبين إلى اللذة والاثم .

وهى ذيل لبريطانيا فى السياسة الرسمية تؤيدها على طول الخط ، ثم هى ذيل لامريكا من بعد تجتاحها المذاهب السياسية والفكرية اليسارية واليمنية وتمزقها تمزيقا .

وهى إذ تصرع الدين والخلق والكرامة فى داخل بلادها ، تدعى أنها حامية الدين فى الشرق . وتستغل اسمه فى التضليل ، وتعمل على أن تقوى به مركزها الاستعمارى المنهار .

لقد ظلت فرنسا تعيش على خيرات الشرق والعرب ، منكرة للجميل جاحدة للفضل تصلى البلاد التى أتاح لها سوء الحظ أن تقع تحت سلطانها ، نارا ولهبا . كم أفزعت وكم قتلت وكم مزقت . وكم دمرت ، فى دمشق وفى ميسلون . وفى طنجة والزيتونه وفى تطوان . والرباط وفى ساقية سيدى يوسف .

أن الدماء التى أراقتها فى بلاد العرب كانت وما زالت تشهد بالبربرية والاجرام المتأصلين فى الدم الفرنسى الغارق فى الميوعة والانحلال . أن هذا الاجرام الآثم هو مركب النقص الذى يفر منه الخلق الفرنسى الداعر .

لقد عمدت فرنسا عندما احتلت سوريا إلى تمزيق الوحدة السورية وحاولت خلق دول حلب والعلويين ودمشق والدروز فلما أخفقت وقاومها الشعب باعت الأسكندرونة لتركيا .

وهى التى أعلنت فى سوريا قانون الطوائف رغبة منها فى تشجيع عشرات المذاهب والفرق . كما أعلنت فى المغرب الظهير البربرى مفرقة به بين عنصرى الأمة : العرب والبربر وقد علمتهم سوريا درسا لن ينسوه ، فقد فقدوا فى ثورة أكتوبر ١٩٢٢ عشرة آلاف قتيل ومليونا من الجنيهات .

وهى فرنسا التى اعتقلت فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤١ رئيس الجمهورية اللبنانيـة ورئيس الوزراء وهى التى اغلقت الازهر وضربت القاهرة بالمدافع عام ١٨٩٧ ودمشق عام ١٩٢٥ والمجلس النيابى السورىعام ١٩٤٥ .

أن تاريخ فرنسا كله هو تاريخ الاضطراب العاصف المتصل ، تاريخ البلبلة السياسية والاجتماعية . لقد كان بسمارك يقسم البلاد إلى مذكرة ومؤنثة، وكانت فرنسا فى نظره مؤنثة ، وهى عش الألحاد والأباحية والدعارة والمجون . حاربت المسلمين فى الأندلس ، وقادت الحملات الصليبية إلى الشرق . وان الجزائر الذى مازالت فرنسا تصليه ألوان العذاب وتريق دماء أبنائه المجاهدين ، هو الذى حرر فرنسا فى الوقت الذى كان أهلها يبيعونها فيه للألمان .

أن فرنسا — عن طريق مركب النقص فيها — قد عملت على حرب أصحاب الأوطان فى كل مكان ، فقمعت الحرية فى الهند الصينية فى أقصى الشرق ثم خرجت منها مكرهه مغلوبة . وأراقت الدماء فى تونس والجزائر ومراكش .

أن فرنسا ما تزال تلح على الجزائر بقواها . وحديدها ونارها . لأنه هو

المغرب الذى صرعها أيام المجد ، واستولى عليها وأحالها إلى قطعة من الامبراطورية الاسلامية . وهو الذى قتل القديس لويس وهو يقود الحملة الصليبية التاسعة بعد أن أسرته مصر ثم عفت عنه .

فاذا ذهبنا نستقصى التاريخ وجدنا أنها هى التى حرضت على قيام المذابح والحروب الأهلية بين سكان الجبل من الدروز والمسيحيين والموارنة ومكنت بذلك لنفسها من احتلال الجبل عام ١٨٦٠ .

~~وهى فرنسا ، التى نقضت اتفاق « الشريف حسين — مكماهون » بالهجوم على سوريا وتقويض عرش فيصل ، وتمزيق جيش دمشق .~~

وقد كانت فى المناطق الثلاث (تونس والجزائر ومراكش)تقيم نظاما استعماريا غاية فى العنف والظلم والاعتساف ، لقد نقلت جموعا ضخمة من اليهود والفرنسيين إلى البـــلاد فاكتسحوا أهلها واستولوا على أرضها . ووضعوا أيديهم على جميع خيراتها وتركوا العرب يقاسون المجاعات الضخمة التى تحصدهم حصداً .

وخنقت فرنسا فى المغرب القضاء والجندية والتعليم الدينى والصحافة وأبادت اللغة العربية ، وألغت المجالس الشورية والبرلمانات وأطلقت على هذه المناطق العربية « فرنسا الجنوبية » و جنست الأهالى بالجنسية الفرنسية وربطتهم بالاتحاد الفرنسى .

وأقامت تمثال الـكاردينال (لافنجرى) شاهرا صليبه فى أكبر ميادين المغرب وتركت المجاعة والعرى والفقر والمرض والجهل يستشرى .

وأقدمت إلى المنطقة الممتدة من أغادير إلى القيروان مليونا أوربى أصبحوا

يسيطرون على اقتصاديات البلاد ويستغلون مناجم الفوسفات والمنجنيز فى جبال الأطلس .

وعمدت فرنسا إلى أن تأخذ من هذه المناطق المستعمرة نوابا فى البرلمان الفرنسى وفى ٧ مارس ١٩٤٤ اعتبرت فرنسا كل جزائرى متعلم فرنسيا . وتنص المادة ٦٠ على أن الاتحاد الفرنسى يتكون من الجمهورية الفرنسية المشتملة على فرنسا ذاتها والمقاطعات والأراضى فيما وراء البحار . ومع ذلك فان النفوذ الفرنسى يتقلص عن المغرب كله بسرعة مذهلة بفضل اليقظة العربية التى عمت الأمة كلها بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر .

أما المذابح فان تاريخها عجب ... وقصصها تفوق الخيال :

- فى عيد النصر ١٩٤٥ قتل ٤٠ ألفا من العرب الجزائريين فى (سطيف) .
- وسجن ٦٠ ألفا وقضى على ٤٥ قرية عامرة دكت بالطائرات ، وأعدم ٦٠ عربيا رميا بالرصاص .
- مذبحة الدار البيضاء فى ٧ و ٨ ابريل ١٩٤٧ قتل فيها ٦٠٠ مراكشى .
- قدمت الجزائر فى الحرب الأولى لفرنسا ٣٠٠ ألف مقاتل لم يعد منهم سوى ١٢ ألفا .

وإذا ذكرنا الكفاح فإنما نذكر الصراع بين الأمير عبد الله الجزائرى وبين فرنسا وقد استمر ثلاثين عاما . ومعارك الريف التى قادها الأمير عبد الكريم واستمرت أربع سنوات .

ولا ننسى غدر الفرنسيين للأمير عبد الكريم الذى طلبوا إليه تسليم نفسه فاعتقلوه ربع قرن فى جزيرة ريونون .

فى ٢٧ فبراير ١٩٥٢ حاصر الفرنسيون قصر سلطان مراكش وطلب

المقيم الفرنسى إليه أن يتنازل عن طلب إلغاء الحماية فلما رفض قامت فرنسا بعزله واعتقال زعماء حزب الاستقلال وقاد الجلاوى ٢٠٠ ألف فارس لقمع حركات حزب الاستقلال ، وفى ٢ مارس بدأت الدبابات فى مراكش تحاصر قصر السلطان واندلعت الثورة فى عدة مدن ، ثم قام جوان بتأليف وزارة مراكشية جديدة ولكن السلطان رفض مقابلة أعضائها ... وفى ٥ مارس : اقتحم جوان قصر السلطان وهدد بالخلع إذا لم يوقع المراسيم .

ويرفض السلطان ويعزل وينفى وتثور مراكش وتندلع فيها معركة مقاومة ضخمة تضطر فرنسا ازاءها إلى إعادة السلطان . كذلك قاومت تونس مقاومة ضخمة وكبدت فرنسا خسائر فادحة مما اضطرها إلى إقامة حكم وطنى بها . أما الجزائر فهى تكبد فرنسا خسائر لاحد لها تعجز ميزانيتها وتحطم اقتصادها وستنتهى بالنصر .

كل هذه النقاط السريعة تعطى صورة سريعة لفرنسا ... الدولة الذيل التى تجرى فى ركاب كل دولة .... وفى ركاب مذاهب الإثم والغواية والوجودية .

معالم الصراع بين العالم الإسلامي والاستعمار

— ١ —

تركيا وإلغاء الخلافة

بدأت تركيا العثمانية فى الانحدار بعد وفاة سليمان القانونى (١٥٦٦) فقد ضعفت الدولة عن القيام بواجباتها وركنت إلى الترف والملاذ . وساد الامبراطورية العثمانية ليل طويل وظلام دامس . فقد انطوت تركيا على نفسها فى نفس الوقت الذى استيقظ فيه الغرب من ظلام القرون الوسطى واستفحل أمر روسيا وتطلعت إلى البسفور كما تطلعت انجلترا وهولندا والبرتغال طامعة فى هذه المملكة الشاسعة ثم بدأت الفتن والقلاقل فى البلقان والمجر وبولندا . وكانت هذه الجنسيات المختلفة قد بدأت تستفيق على الدعوة القومية ، هذا بالاضافة إلى ضعف الجيش وانحلاله وظلم الولاة واستبدادهم .

وفى عام ١٦٤٧ كانت الثورة قد استطارت فى جهات متعددة ودخلت تركيا فيما أطلق عليه اسم « دولة الرجل المريض » .

كانت الامبراطورية العثمانية تضم اليونان والبانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وكريت وقبرص فى أوربا والقوقاز والعراق والشام وفلسطين فى آسيا وتونس والجزائر ومراكش فى أفريقيا .

وتوقفت التجارة عن طريق الامبراطورية العثمانية بعد اكتشاف طريق جنوب أفريقيا ، وضربت العزلة عن العالم الاسلامى . وكانت سياسة الدول الغربية ترمى إلى إضعاف تركيا بالثورات والاضطرابات والحرب مع أمم البلقان حتى إذا تحطمت قواها أمكن التهامها ، وكانت روسيا تطمع فى الاستيلاء على تركيا . وفى نفس الوقت الذى كانت بريطانيا وفرنسا تنافسان روسيا فى هذا الاتجاه .

وقد دفعت الدول الغربية الهرسك والبوسنه وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا الى الثورة فانفصلت عن الامبراطورية العثمانية . ولكن تجمع الدول على تركيا أوقع بينهم الخلاف وكتب للفريسة السلامة فقد كانت روسيا تتقرب من انجلترا رغبة فى تقسيم تركيا فى حين تقف انجلترا من تركيا موقفا مزدوجا تساعد به روسيا فى حربها للعثمانيين فى حين تبدو فى مظهر المساعدة لتركيا .

وقد أصبحت تركيا فى هذه المرحلة من تاريخها منطقة نفوذ لكل دولة من دول أوربا فكان لفرنسا وروسيا وانجلترا وجرمانيا وغيرها امتيازات عجيبة داخلها .

وقد عقدت معاهدات فرنسية عثمانية اعترف فيها بحق فرنسا فى حماية جميع النصارى اللاتين وحماية المنشئات الكاثوليكية والأماكن المقدسة وتشمل الحماية الروم واليونان والكلدان والأرمن والموارنة .

كما عقدت معاهدة مع روسيا منحت القيصر حق حماية النصارى الأرثوذكس ووقع بذلك الخلاف بين الروم الأرثوذكس «حماية روسيا» واللاتين «حماية فرنسا» ونالت روسيا بهذه المعاهدة أراضى واسعة فى شمال القدس وعملت على معارضة اتجاه البابويه فى توحيد الكنيسة الشرقية كما اعتبر غليوم امبراطور المانيا نفسه حاميا للكاثوليك الألمان .

وعندما ظهرت قوة مصر عام ١٨١٠ عملت انجلترا وفرنسا على تحطيم هذه القوة فبدأت تنقص من أطراف الامبراطورية العثمانية وكادت أن تصل إلى استانبول نفسها ولذلك تجمعت أوربا على تحطيم أسطول مصر فى نفارين إبقاءاً على دولة الرجل المريض لإلتهامها بعد كليه .

ويعتبر عهد السلطان عبد الحميد خاتمة عهود الانهيار العثمانى وعهد التصفية

الامبراطورية (١٨٦٧ — ١٩٠٩) فقد انفصل عن تركيا الجبل الأسود ورومانيا وبلغاريا وقبرص وتونس وطرابلس والبوسنه والهرسك وباطوم واردهان ومصر والعراق والموصل وسورية وفلسطين وزيلع ومصوع والسودان ومقدونيا وكريت وأرمينيا .

وكان عبد الحميد قد أعلن الدستور العثماني بعد توليه العرش ثم لم يلبث أن سحبه ، وسجن الأحرار وشردهم . ومضى يحكم تركيا حكما ارهابيا قائما على القمع والرجعية وأغلق أبواب تركيا عن مظاهر الرقي والتقدم الأوربي مما أدى إلى اشتعال نار الثورة عام ١٩٠٨ بعد أن تألفت جماعة الاتحاد والترقي وتضامن الجيش والشعب في إلزام السلطان باعلان الدستور . فاضطر إلى إعلانه ومن ثم عاد المنفيون من رجال الحكم التركي وتولوا قيادة النهضة الجـــديدة وأطلقت حرية الصحف والاجتماعات غير أن عبد الحميد عاد مرة أخرى إلى سحب هذه الحريات وعندئذ اندلعت الثورة وعجلت بخلع السلطان ونفيه .

وقد حاول عبد الحميد إعادة الوحدة الاسلامية كما حاولها من جاءوا بعد ذلك غير أن وسائلهم في معالجة الصدع في الامبراطورية العثمانية كانت قائمة على التعصب وسحق القومية العربية وادماج القوميات المختلفة في القومية التركية وإعلان ما أطلق عليه « الجامعة الطورانية » التي كان هدفها تتريك جميع العناصر . وحماية أمجاد جنكيز خان وتيمورلنك . وقد نشط شباب تركيا لهذه الحركة وجندوا لها كل القوى حتى لفتوا إليها الأنظار وأثاروا النفوس . فحاولوا استبدال الموظفين العرب بغيرهم من الأتراك كما قدموا نشيد الدب الأبيض في الصباح على الأذان والصلاة ، وكان هذا مما أثار العرب وحملهم على الدفاع عن القومية العربية حماية لها من أن تذوب في هذا الطوفان الطوراني .

ثم جاءت الحرب الكبرى ١٩١٤ فتحالفت تركيا مع المانيا وانفصل العرب عنها وانضموا لبريطانيا وحلفائها بعد وعود أعطيت لهم باقامة دولة عربية كبرى بعد انتهاء الحرب. وقاد العرب حركتهم فأعلنوا الثورة على الأتراك فى أنحاء الحجاز وسوريا والعراق وانتهت الحرب بهزيمة المانيا وتركيا مما أدى إلى إقتسام الامبراطورية العثمانية بين الدول المنتصرة (بريطانيا وفرنسا) وهددت تركيا باحتلال اليونان لها .

وظهر مصطفى كمال فى هذه الفترة فقاد كتائب الترك الممزقة إلى النصر ورد اليونان مهزومين بعد أن نكل بهم واسترد أزمير وأعاد لتركيا كيانها . وكان مصطفى كمال قد اقتنع بأن الخصومة بين الأتراك والعرب قد وصلت نهايتها وأنه لا سبيل إلى إعادة الامبراطورية العثمانية مرة أخرى ، وأن الأتراك أمة والعرب أمة أخرى . لذلك صمم على أن تصبح تركيا هى تركيا فقط وأن تعيش فى داخل بلادها .

وقد عمل مصطفى كمال على تنفيذ هذه الخطة وأقام حكومته الوطنية فى تركيا بينما تقوم حكومة السلطان فى الاستانة وسرعان ما أعلن أن السلطنة شىء وأن الخلافة شىء آخر ، ولا بد من الفصل بينهما .

ثم ألغى السلطنة وجعل الخلافة منصباً دينيا وولى خليفة جديداً مجرداً من السلطة الزمنية وغير نظام الحكم فأعلن تركيا جمهورية فى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٣ برئاسته .

ولم يلبث فى ٢٣ مارس ١٩٢٤ أن أعلن إلغاء الخلافة وبذلك خرج من تركيا الخليفة عبد المجيد الثانى هو وجميع امراء آل عثمان .

واتجه مصطفى كمال إلى الغرب ورفض أن ينظر إلى الغرب وألغى

الأوقاف وحرّم الطرق الصوفية وأغلق زوايا الدراويش وحول مسجد أيا صوفيا إلى متحف . ومسجد الفاتح إلى مستودع .

واستبدل بالشريعة قانونا مدنيا مستمداً من القانون السويسرى . وأنزل المرأة إلى ميدان العمل . حيث منحت المساواة التامة فى جميع الحقوق ومنها حق الانتخاب وقد ضمت الجمعية الوطنية فى عام ١٩٣٥ سبع عشرة سيدة . كما استبدل القبعة بلباس الرأس الوطنى وكتب التركية باللغة اللاتينية . وحذفت من المناهج كل ما يمت إلى العربية والفارسية وبذلك حقق مصطفى كمال فكرة الجامعة الطورانية وأعاد المجد التركى القديم .

وبدأ يعمل على تتريك التاريخ نفسه فقال : «أن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة فى العالم» واعتمد فى ذلك على الافتراض الذى قال به بعض العلماء من أن لغة السومريين الذى أنشأوا الحضارة البابلية القديمة — كانت ذات صلة بالتركية .

ويبدو أن الثورة التركية لم تكن ذات جذور عميقة أو أهداف واضحة لذلك سرعان ما أصبحت انقلابا . وثبت أن تركيا عاشت فى حالة مخاض أكثر من ربع قرن كامل عند ما فقدت المثل المحددة التى تدفع الثورات الأصيلة إلى البناء الشامل وخلق تقاليد جديدة تستمدها من أعماق الشعب . فلا تكون مجرد مظاهر براقة للارتباط بالغرب والنقل من حضارته وسحق الشخصية الوطنية وهى بذلك لم تكن إلا مجرد انقلاب نقل تركيا من المحيط الشرقى الأصيل الذى هو مكانها الطبيعى إلى المحيط الغربى الذى ليست منه وبذلك عزلت تركيا نفسها عن الشرق والغرب ولم تقم بدورها فى المجتمع الانسانى على وجه صحيح .

وقد صورت جريدة الإيكونومست الانجليزية نتائج تجربة تركيا بعد مرور ٣٠ عاما فقالت فى مقال نشر فى يناير ١٩٥٦ : أن حركة أتاتورك فصلت الدين عن الدولة وبهذا أعجلت بالتفسخ الاجتماعى والقومى أيضا فى البلاد وشطرت

تركيا عن المجموعة العربية وأبعدت كفاح الشعب التركى عن كفاح جيرانه من شعوب العرب وهم الذين تشترك معهم تركيا ليس فى الحدود فقط بل وفى الدين وفى الكثير من المصالح .

لقد بددت حركة أتاتورك مشاعر الناس وأرغمت الشعب على التخلى عن شخصيته . ربما لكى يخلق شخصية جديدة باستعمال الحروف اللاتينية وارتداء القبعة وبالأخذ بتقاليد غريبة عن ضمير الشعب وعن ذاته :

وبالرغم من الإضطهاد الدينى فى تركيا منذ أتاتورك ، فان الشعب لم يتخل نهائيا عن إيمانه أو عن تراثه من العقائد وظلت البقية من هذا الايمان مكبوته وراسبة فى الأعماق . فمثلا لم تستطع فكرة كتابة اللغة اللاتينية أن تمنع الناس فى تركيا من الاحتفاظ ببقايا تراثهم القديم . فالتركى العادى لا يزال يحتفظ حتى الآن فى داره أو فى دكانه بلافتات صغيرة كتب عليها عبارات القرآن .

هذا فى الوقت الذى كان حزب الشعب الجمهورى قد حرم الآذان باللغة العربية وترجم القرآن إلى اللاتينية . وحرم على المسلمين الحج إلى مكة وأغلق مدارس الأئمة والخطباء ..

كانوا يعتقدون أنهم بهذا يخلقون تركيا الأوربية وبماذا ؟ بكلمات لاتينية . وبالقبعة وفصل الدين عن الدولة ومحق التقاليد الموروثة بقوانين مستمدة من أحلام وأوهام لا علاقة لها بالاصلاح أو المدنية ... » اه

أما من الناحية السياسية فإن تركيا قد اتخذت سياسة مضطربة بعد ثورة اتاتورك فقد انفصلت عن العرب والمنطقتين الشرقية والاسلامية ثم عادت فاتصلت بها ثم انفصلت مرة أخرى . وقد قامت بعد الانقلاب الكمالى بتوقيع ميثاق البلقان عام ١٩٣٤ الذى قضى بأن تكون واحدة من كتلة — كانت فى الماضى

جزءا من ارض الامبراطورية العثمانية — قوامها اليونان ورومانيا ويوغسلافيا وبذلك ولت تركيا وجهها ناحية الغرب نهائيا وأغلقت دون العرب بابا صفيقا . ذلك أنها حين عادت مرة اخرى بفصل استسلامها للتيار القوى إلى الدخول فى محاور واحلاف فضلت الارتباط مع ايران وافغانستان ثم العراق حينما وقع ميثاق سعد اباد عام ١٩٣٧ على نفس أسس ميثاق البلقان . وقد اثبت هذا الميثاق فشله حيث لم يحقق أى عمل إيجابى فى المواقف التى تعرضت لها دول هذا الميثاق . وخاصة فى عزل الشاه رضا بهلوى أو ثورة رشيد الكيلانى .

وفى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٦ وقفت تركيا على الحياد واغلقت الدردنيل والمضايق فى وجه الدولتين المتحاربتين . ولكن هذا الحياد لم يكن حقيقيا دائماً وإنما كان لحساب بريطانيا وحلفائها لأنه استهدف منع روسيا من الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط حيث ترابط قوى الحلفاء .

وكانت تركيا قد عقدت معاهدة مع بريطانيا عام ١٩٣٩ تعهدت بريطانيا بمساعدة تركيا إذا هاجمتها دولة أخرى . كما تعاهدت تركيا وفرنسا وتنازلت الاخيرة لها عن سنجق الاسكندرونه الذى لا تملكه والذى اقتطعته من قلب سوريا وبعد الحرب العالمية الثانية رغب الغرب فى تجديد مركز تركيا كدولة اسلامية كبرى لتقادم بها الضغط السوفيتى وبذلك ظلت تركيا بعد انفصالها عن المجموعة العربية والاسلامية دولة مضطربه سياسيا إلى أبعد الحدود فضلا عن النتائج الاجتماعيه التى ظهرت بعد اتصالات مصطفى كمال اتاتورك والذى صورناه فيما مضى . فقد ظلت تركيا توصف إلى مدى ثلاثين عاما بعد ذلك التاريخ بأنها تعانى الام « المخاض » ذلك لأن ثورة مالم تقم فيها وانما كان ماوقع تحولا انقلابيا لم يتقرر وفق أسس ثورية ولم تكن له جذور عميقة ولا أهداف

واضحة ، وهى فى هـــذا تختلف اختلافا واضحا عن الثورة المصرية العربية عام ١٩٥٢ .

ولـكن تركيا التى كانت تعمل بوحى من الاستعمار على أن تتصدر للزعامة مرة أخرى لم تـكن موفقة فى عدد من التصرفات مع الدول العربية . ثم انتهى بها الامر أن دخلت حلف بغداد مع العراق والباكستان وإيران . واستطاع الغرب أن يحرضها على العرب لحشدت جيوشها عام ١٥٩٧ على حدود سوريا بقصد الضغط عليها ومحاولة تحويلها عن اتجاهها التحررى الحيادى غير المنحاز ولـكن صمود سوريا ومعها مصر فوت على تركيا وسادتها الفرصة وحطم مؤامرتهم .

- ٢ -

ثورات مصر

١٧٩٨ ، ١٨٨٢ ، ١٩١٩

ثارت[1] مصر فى خلال قرن ونصف قرن ثلاث ثورات : ثارت ضد الفرنسيين ١٧٩٨ وثارت ضد أسرة محمد على ١٨٨٢ وثارت ضد الانجليز ١٩١٩ .

ولم تحقق هذه الثورات ما تطمع فيه مصر من حرية كاملة فكانت ثورة ١٩٥٢ هى ثورة التحرير الشامل التى أتمت كفاح مصر ومقاومتها الشعبية للاستعمار والاستبداد والطغيان الداخلى والخارجى على السواء .

فى عام ١٧٩٨ قدمت الحملة الفرنسية فاحتلت مصر وفى خلال ثلاث سنوات كاملة لقى المستعمر عنتا شديدا ومقاومة لاحد لها من شعب أعزل . ثم توالت الثورات وتعددت حتى اضطر المحتل الفرنسى إلى الجلاء . وكان على قيادة هذه الثورة عمر مكرم ومحمد كريم ومصطفى بك أمير الحج وحسن طوبار وسليمان الحلبى ومحمد السادات وأحمد المحروق .

وفى عام ١٨٨٢ وقف عرابى فى ميدان عابدين ليعلن الثورة على الاستبداد المنبعث من قصر عابدين . استبداد أسرة محمد على والخديو وقال كلمته الخالدة « أننا لسنا تراثا ولا عبيدا وأننا لا نورث بعد اليوم » .

وقد انتهت ثورة عرابى باحتلال بريطانيا لمصر ولكنها ظلت على مدى

---

(١) كتبت قصة المقاومة الشعبية بالتفصيل فى كتابى «جمال عبد الناصر وكفاح الشعب» .

الأيام بؤرة تشع منها الدعوة إلى مقاومة الاستبداد الداخلى ممثلا فى شخصية الخديو والملكية وطغيان الفرد .

وثارت مصر عام ١٩١٩ ثورة عارمة لم تكن لها قيادة . قادها الشعب وبالرغم من أنها انتهت بعد شهور فانها استمرت مندلعة إلى عام ١٩٢٣ فى صور متعددة من المقاومة والاغتيال والنسف والتدمير للمستعمرين وأذنابهم .

ولم تحقق ثورة ١٩١٩ هدفها فقد استطاع المستعمرون أن يضعوا الماء على النار وأن يخدعوا الشعب بما سموه الاستقلال والدستور والبرلمان فنشأ عن ذلك صراع سياسى ممثل فى الأحزاب والخلافات التى مزقت وحدة الأمة وحالت بينها وبين تحقيق حريتها .

ومرت ثلاثون عاما . سيطرت خلالها مدرسة الحزبية السياسية على الحكم وظلت الروح الوطنية قوية مضطرمة، لا تفتأ - بين آن وآخر - أن توقد الفتيل ثم يطفئه الخونة . ووصلت الأمور إلى مداها وغايتها فى الفساد والتعفن . وكان لابد من هزة ضخمة فكانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى تختلف عن الثورات الثلاث بأنها كانت « عميقة عاقلة » قائمة على أسس من التنظيم والعمل والحكمة . فقد أفادت من الثورات الثلاث . واستطاعت أن تمسك بالخيوط الكبرى التى تقطعت من أيدى قادة الثورات الثلاث . كما أمكن أن تتجنب أخطاءهم وما وقعوا فيه من أوزار .

* * *

ويمكن القول بأن الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ سجلت أول زحف عسكرى استعمارى منظم إلى العالم الإسلامى : وقد فشلت هذه الحملة ثم كانت حملة فريزر التى سحقتها المقاومة الشعبية فى رشيد عام ١٨٠٧ .

وقد كانت مصر قبل تولى محمد على الحكم تنبض بروح وطنية قادها العلماء ورجال الدين أمثال عمر مكرم الذى كان مثلا عاليا فى الوطنية والتضحية .

وقد ضحت مصر فى السنوات الثلاث للحملة الفرنسية تضحيات كثيرة وواجهت قوة عسكرية حديثة رهيبة ولكن روح المقاومة كانت أقوى من كل شىء فلم تلبث أن ثارت مصر مرات عديدة ثورات ضخمة مدمرة .

ثارت فى ٢٠ مارس ١٧٩٨ و ١ أكتوبر ١٧٩٨ و ١٨ سبتمبر ١٨٠٠ وقدمت مصر فى هذه الثورات ضحايا من أعز أبنائها وأكثرهم قوة وشجاعة .

كان هناك أكثر من ميدان للمعركة . فى قلب القاهرة وفى بولاق . وفى الشرقية وفى ميت غمر وغرب الدلتا والبحيرة . وكانت معارك حسن طوبار فى بحيرة المنزلة فذة بارعة .

ثم حاول محمد على أن يسحق هذه الروح القومية ليقيم على أنقاضها حكم الفرد فكان أن نفى عمر مكرم وأغرى العلماء وقد كان لتصرفه هذا أبلغ الأثر فى ضياع الامبراطورية الضخمة التى كونها .

ولكن هذه الروح الشعبية لم تلبث أن ظهرت بعدم سبع سنوات قوية عارمة فى معركة فرنزر حيث كبدت رشيد الباسلة الحملة البريطانية ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسيرا قبل أن تصل قوات محمد على .

ومن عام ١٨٠٧ وفى خلال سبعين سنة قاست مصر ظلم أسرة محمد على البالغ إذا انتزعت منها أراضيها وصودرت بين عامى ١٨١٢ و ١٨١٨ واستعبد أصحابها فى زراعتها ، وانتشرت أعمال السخرة . ثم قسمت هذه الأراضى على أعوان الوالى الظالم وأتباعه .

فلما تولى اسماعيل حكم مصر سار خطوات واسعة فى طريق الاقطاع . ثم زاد ديون مصر حتى بلغت عام ١٨٧٦ نحو ٩١ مليون جنيه .

ولم تلبث روح الشعب أن ظهرت قوية فى مجلس شورى النواب الذى أرغم على اقامته فى أواخر أيامه ، عندما هاجم محمود العطار وعبد السلام المويلحى الحكومة هجوما عنيفا .

ثم كانت ثورة احمد عرابى ١٨٨١ ثمرة لهذا الضغط العنيف الذى جاء نتيجة اسراف الخديويين واستبدادهم ، وكان متنفسا لمشاعر الشعب . وقد بدا هذا واضحا فى وقفه احمد عرابى فى ميدان عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ وماتلاها من مواقف كانت خليقة بأن تحقق لمصر التخلص من حكم هذه الأسرة لولا أن لجأ الخديو توفيق إلى الاستمانة بالبريطانيين الذين كانوا قد أعدوا عدتهم لإحتلال مصر بحجة استفاضة الديون وشكوى الدائنين فقد انهزم عرابى فى التل الكبير بعد انتصاره فى كفر الدوار بفعل الخيانة سواء من ناحية أعوان الخديو الذين كشفوا الطريق لجنود الانجليز أو من ناحية قناة السويس حين خفر دلسبس وعوده . وقد أبدى المصريون مقاومة باسلة فى مواجهة الأسطول البريطانى . كما خرج أهالى باب الشعرية والحسينية يحملون الهراوات وعسكرون بالسكاكين . وقال لهم محافظ القاهرة لافائدة فقد سلمت الدولة . وصاح الأهالى سلمت الدولة ولكن الشعب لن يسلم . ولما دخل موكب ولسلى فى اليوم التالى بصحبة سلطان باشا نائبا عن الخديو أقفل السكان متاجرهم .

وعند ما ارتفع صوت مصطفى كامل ثم محمد فريد عادت إلى مصر روحها فى المقاومة للسلطتين الاستبدادية ممثلة فى الخديو والاستعمارية ممثلة فى الاحتلال وقد كانا يتعاونان فى سبيل القضاء على روح الشعب وتركيز الاحتلال وتدعيمه . وكانت دنشواى (٢٤ يونيو ١٩٠٦) بؤرة أخرى ألهبت المشاعر الوطنية فقد

نصب الانجليز المشانق قبل المحاكمة وحكم على أثنين وخمسين وطنيا، حكمت المحكمة التى رأسها بطرس غالى وفتحى زغلول بالاعدام شنقا على أربعة منهم والأشغال الشاقة سبع سنوات على عشرة وحكم على الباقى بعقوبات مختلفة .

ولم تلبث الحرب الكبرى أن أعلنت وفرضت بريطانيا الحماية على مصر واستولت على أقوات الشعب وأراضيه كما جندت السلطة العسكرية بضعة ألوف من المواطنين المصريين أكلتهم الصحراء .

وكانت بريطانيا قد أعلنت فى بلاغ الحماية أنها تحتفظ بحقوق شعب مصر لتردها له بعد الحرب، ثم تبين بعد الهدنة أن هناك مؤامرة ضخمة لتحويل مصر إلى نظام حماية دائم . هنالك انفجرت الثورة المصرية التى كانت تستمد وقودها من كفاح مصطفى كامل ومحمد فريد ... فلم يلبث سعد زغلول أن اعتقل حتى اندلعت الثورة بصورة هزت العالم كله وبهرته . كانت أشبه بالنار فى الهشيم . فقد بدأت بمظاهرات سلمية فى مارس سنة ١٩١٩ فتصدت لها السلطة البريطانية بأطلاق الرصاص على المتظاهرين من أفرادها فزادها ذلك حماسا واشتعالا .

ومثلت فى هذه الحركة طوائف الشعب جميعه واستشهد فى الثورة كثير من الجنود المجهولين وهم كما يقول عبد الرحمن الرافعى من غير البيئات التى تنازعت مجد الثورة وثمرتها فيما بعد .

وامتدت الثورة إلى أنحاء القطر كله واستمرت من مارس إلى نوفمبر ولكن آثارها ظلت مستمرة حتى صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .

وتوقفت الثورة ولكن المقاومة استمرت ممثلة فى منع المستوزرين من الحكم وفى « المقاطعة » : ذلك السلاح البتار الذى اهتزت له بريطانيا . والقيت القنابل على المعسكرات البريطانية وجرت حوادث الاغتيال وقوطعت لجنة ملنر .

وكان من أبطال ثورة ١٩١٩ عبد الرحمن فهمى وطائفة من اخوانه المجاهدين المجهولين .

وعندما قبل سعد زغلول مبدأ المفاوضة تحطمت ثورة ١٩١٩ وتحولت إلى صراع على الحكم وانتقلت من العمل الوطنى الخالص إلى السياسة بمناوراتها وجاءت بعد ذلك الحزبية بصراعها وخصوماتها وامتد سلطانها حتى عام ١٩٥٢ وفى خلال هذه الفترة لم يتحقق لمصر ما كانت تنشده من حرية واستقلال أو جلاء بل جاءت معاهدة ١٩٣٦ التى وقعها الزعماء جميعا كارثة وطنية كبرى إذ حولت الاحتلال غير الشرعى إلى احتلال شرعى .

وقاوم زعماء الاحزاب المقاومة الشعبية أشد المقاومة حتى يسلس لهم سبيل الحكم وسلطانه . واتجهوا فى عملهم إلى انتهاب كل ما يقدرون عليه من أموال الأمة ودون النظر إلى المصلحة الوطنية .

تحطيم ثورة مصر سنة ١٨٤٠

فى عام ١٨٤٠ بدأت مصر تكوّن قوة عسكرية ضخمة ترمى إلى تعزيز الوحدة العربية وقد أزعج الإستعمار لهذه القوة . وقاومها مقاومة عنيفة . إذ كان يحرص على أن تظل الامبراطورية العثمانية تقاسى حالة « الرجل المريض » إلى أن تقسم بين هذه الدول المتصارعة فيما بينهـا على الميراث الضخم فكان الصراع الخفى بين فرنسا وانجلترا من جانب وروسيا من جانب آخر على كسب صداقة الخليفة التركى المقيم فى استانبول لتمكين دعائم الاستعمار فى المنطقة كلها .

وقد نسيت أوربا خلافاتها . واتحدت فى سبيل هذه القوة الشابة الجديدة وكان محمد على قد استطاع بحملاته على الحجاز والسودان وسوريا أن يوسع رقعة المنطقة التى يحكمها . وتحقق لمصر تكوين أسطول بحرى قوى وجيش حربى . وكان مرمى محمـــد على تحطيم الدولة العثمانية والاستيلاء على ممتلكاتها وإقامة حكومة عربية .

ولكن محمد على فى نفس الوقت لم يكن قد أقام قاعدة شعبية صحيحة . بل على العكس حطم هذه القاعدة التى كانت غاية فى القوة أيام المماليك . وكان لها أثرها فى هزيمة الحملة الفرنسية .

وقد لمّح الاستعمار لهذا المعنى فى تصريحات رجاله « أن محمد على رجلا مسنا يعمل منفرداً وسط قوم نيام ومن المنتظر أن تدركه منيته بين يوم وليلة فما العمل لو حدث هذا وماذا تكون النتيجة . لو هدم محمد على الدولة العثمانية اليوم ثم تهدمت دولته نفسها غدا . ألا يجر ذلك إلى نتائج سياسية خطيرة أقل مافيها

حرب عالمية بين الدول على تقسيم هذا التراث الذى آل إليه ثم انفرط من بين يديه .

وقد بدأت الحرب لقوة مصر باتفــاق بريطانيا مع محمد الألفى وارسال حملة فريزر لتنهى أمر محمد على وحركته . ولـكن الحملة هزمت فى مصر هزيمة منـكرة بفضل قوة الشعب .

واتجه « بالمرستون » عدو مصر فى ذلك الوقت إلى مناهضة محمد على فى شدة وعنف فقد بلغ حقد بريطانيا بمصر أشده عندما أنشأت المصانع والمعامل واستغنت عن احتـكارات بريطانيا وواردات بلادها .

كما أثرت قوة مصر وفتوحها فى الحجاز والشام على مركز بريطانيا فى البحر الأبيض والخليج الفارسى . فقد تحول البحر باستيلائها على الحجاز والسودان إلى بحيرة مصرية .

ومضت بريطانيا تؤجج الخصومة بين الباب العالى ومحمد على . وفى نفس الوقت أخذ الروس يتقربون من الانجليز أملا فى الموافقة على تقسيم تركيا .

وصرح بالمرستون أن مشروع محمد على الذى وصل إلى جبال طوروس شمالا خطر بالغ على مواصلات الامبراطورية . وكتب معتمد النمسا إلى دولته يقول « أن فـكرة تأليف الامبراطورية العربية لاتزال حية . وارى إلى جانب ضعف الباب العـالى وهزاله جيشا عربيا قويا مدربا على أحدث مبادىء القتال وأرى اسطولا قويا . أضف إلى ذلك يقظة الروح العربية بعد سباتها » .

وكانت الحملة على الحجاز فى عام ١٨١١ وحملة السودان ١٨٢٠ وموقعة نفارين ١٨٢٧ وحملة الشام ١٨٣١ وقد وصلت القوات المصرية إلى جبال طوروس ١٨٣٢ ووقعت معركة نصيبين ١٨٣٩ وبهـا تحدد موقف الدول من مصر وقد كانت

الطريق ممهدة أمام القـــوات الحربية لتواصل زحفها حتى تصل إلى قلب القسطنطينية . وكانت كفاءة الجيش المصرى وسوء حالة الجيش التركى تمكن ذلك فى يسر وسهولة .

ولـكن الزحف أزعج الدول الغربية أشد الازعاج . خاصة فرنسا صديقة محمد على التى أرسلت إليه فى ٨/ ٣ / ١٨٣٣ تهديداً تقول فيه « أن بقيت متمسكا بمطالبك فان الاسطولين الانجليزى والفرنسى يتظاهران أمام الشاطىء المصرى » ورد محمد على يقول « بأى حق يجوز لك ياسيادة السفير تجريدى مما غنمته أن شعبى بأسره يعضدنى . لو شئت لناديت الروملين والأناضولين إلى الثورة . ولو شئت لاحدثت حدثا عظيما بمساعدة الشعب العثمانى . . وبعد الضحايا التى قدمها شعبى أطالب الآن بالتخلى عن البـلاد التى استوليت عليها وأن استرجع جيشى . ألا ترون أنـكم تصدرون على الحـكم بالموت السياسى . . »

وحاول محمد على أن يقنع بريطانيا بوجهة نظره فى مذكرته إليها « أن غايتى الأولى هى القضاء على سلطان الروس فى تركيا . وانى لن ألبث أن أعد جيشا عدته مائة وخمسون ألفاً لمعـاونة الانجليز على تخليص تركيا وقارى من نير الروس » وقد قصد بذلك إلى محاولة إغراء بريطانيا على قبول اعلان استقلاله .

وقد أرسل بالمرستون إلى سفير انجلترا فى « كابل » يقول :

« لقد كان محمدعلى يرمى إلى تأليف مملـكة عربية تجمع بلاد العرب . والمشروع جليل الشأن بذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا وهذا ما لا يمـكننا أن نسلم به فتركيا هى أفضل دولة تملك طريق الهند وهى خير من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ويكون نزاعا للعمل كثير الحركة . والواجب علينا أن نساعد السلطان على تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فاذا استطاع أن يعيد النظام استطاع

البناء . وأرسل بالمرستون إلى قنصل انجلترا فى مصر يقول « أكلفك بأن تبلغ محمد على باشا بأن حكومة جلالة الملك تلقت تقارير عن حركات الجنود المصرية فى سوريا وبلاد العرب وهى تدل على أنه ينوى أن يبسط سلطة مصر إلى جهة خليج فارس وولاية بغداد فابلغ الباشا بكل صراحة أن الحكومة الانجليزية لاتستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ هذه المشروعات . »

وعندما وصل ابراهيم إلى قونيه فى ديسمبر ١٨٣٢ كتب لمحمد على يقول « أستطيع أن أصل إلى الأستانة فى أسبوع . وأستطيع خلع السلطان حالا وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسائلنا لاتسوى إلا فى استانبول فالواجب أن نذهب إلى استانبول كى نملى إرادتنا . إنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن بث الدعوة لايوصلنا إلى أغراضنا وأنت إذا رميت من الإشاعات التى تذيعها إلى غرض سياسى بأن نهدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف عند « قونيه » فلا نتقدم منها إلى الأمام . فان قونيه بعيدة عن رجال الأستانة فهم لايقبلون عقد الصلح منا إلا إذا دخلنا عليهم العاصمة .

كذلك فعلوا مع الروس فلم يقبلوا عقد الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى استانبول . فالواجب أن نواصل الزحف حتى « بورسه » على الأقل مع إحتلال المدن الواقعة على بحر مرمره وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا عند التحرر . حينئذ نستطيع اذاعة الأخبار التى تفضى إلى خلع السلطان . وإذا نحن لم نفلح فى إسقاطه توصلنا على الأقل إلى ابرام صلح يحقق امانينا . ولولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استانبول . وأنى لأسائل نفسى ماهو الداعى إلى إصدار تلك الأوامر : أهو الخوف من أوربا أم شىء الآخر لا أعرفه .

وقد طلب محمد على من الجيش المصرى التقدم فارهصت الحركة السلطان

الذى صرح بأنه يوافق على تولية محمد على ولاية مصر وطرابلس وعكا وتولية ابراهيم الحرمين الشريفين .

ولم يتوقف القتال . وتقدمت بريطانيا وروسيا والنمسا لمساعدة السلطان .

وتقدم ابرهيم فى الزحف . وحاول الباب العالى أن يستوقفه لحين عقدالصلح مع محمد على فلم يذعن وطلب الباب العالى من روسيا إرسال ٢٥ ألف جندى لمساعدة تركيا وقد وصل الأسطول الفرنسى لمساعدة تركيا قبل أن يصل الأسطول الروسى . فى الوقت الذى وصل فيه ابراهيم الى كوتاهيه ووقف هناك بناء على أمر محمد على .

وأرسلت فرنسا تهدد محمد على : فقالت « إن أصرارك على مطالبك يوقع عليك مصائب إذا ازدادت جزعت لها ففرنسا تتمسك بالعهود التى قطعتها وهى تملك القوة » .

فلما وصل الأنذار إلى محمد على عرف أن صديقته فرنسا تخلت عنه وقال أنا أعتبر هذا حكما على بالموت .

وعادت فرنسا مرة أخرى تهدد محمد على بسحب جميع ضباطها من جيشه وأسطوله وأرسلت أسطولها بالاشتراك مع الأسطول البريطانى إلى ميناء الأسكندرية .

وأصر محمد على على شروطه فى الأستقلال بمملكته إلى حدود جبال طوروس . وخول لابرهيم سلطة المفاوضة إذا أجيبت مطالبه . فإذا لم توافق تركيا يسمح له بمواصلة الزحف وأصرت تركيا على أن تمطى لمحمد على مصر ودمشق وحلب وعكا وبيروت وطرابلس والشام وتولى ابراهيم الحبشه ومكه .

وبدأت بريطانيا تحيك الدسائس ضد محمد على فى سوريا . وأخذت الأحوال

تضطرب والجو يكفهر (١٨٣٤) وأحس ابراهيم بالندم على أنه لم ينفذ بجيشه إلى استانبول .

وتراجع محمد على خطوة أخرى بسحب الجيوش المجنده على الحدود على أن تضمن الدول السلام ويكون الحكم وراثيا فى أبنائه فرفض هذا الطلب .

وفى مايو ١٩٣٨ ضرب محمد على ضربته النهائية عندما إستدعى وكلاء الدول وأبلغهم أن فى نيته إعلان الأستقلال معتمدا على حق مصر فى إنشاء الدولة العربية . وقد عارضت الدول هذا الطلب ونصحته بالعدول لما يولد المشروع من أخطاء ! وبدأت حركة ناشطة لمقاومة محمد على وأشعلت بريطانيا نيران الدسائس والفتن فى سوريا وحشد السلطان جنوده على الحدود . كما استعدت بريطانيا لمعاونة تركيا وفى ٢٤ يونية ١٨٣٨ زحفت قوات تركيا والتقى بها الجيش المصرى فى معركة نصيبين وأنهزم الأتراك بخسارة ٤ آلاف قتيل وجريح . وأسر المصريون ١٢ ألف و ٢٠ ألف بندقية وتقدم الجيش المصرى إلى عنتاب واوروفا ومرعش . وسلم الأسطول التركى نفسه لمصر فى ميناء الأسكندرية وهنا لم تجد الدول الغربية بداً من إتخاذ خطوة حاسمة فأرسلت فرنسا والنمسا وروسيا مذكرة إلى محمد على وإلى الباب العالى تنص على أنهم متفقون اتفاقاً تاماً على المسألة الشرقية وأنهم يطلبون من كلا الفريقين وقف كل قرار قاطع دون مساعدتهم .

وأرسلت بريطانيا تقول أنها توافق على أن تضاف إلى ولاية مصر بالتوراث باشوية عكا ماعدا قلعة عكا التى تظل تحت حكم الباب العالى لأنها مفتاح سوريا . وأن تبدأ الحدود من جبل الكرمل .

وبدأت المفاوضات بين الدول: أنجلترا وروسيا وروسيا والنمسا وتركيا وأنتهت بعقد معاهدة ١٥ يوليو ١٨٤٠ وقد كانت هذه المعاهدة مؤامرة واضحة

على حق مصر إذ نصت على أن تعمل الدول متحدة لأكراه محمد على على أن يقبل هذه التسوية ويتعهد كل فريق بأن يعاونه على بلوغ هذا الغرض .

وقد نصت المعاهدة على أن يمنح محمد على وسلالته إدارة باشوية مصر وبدير ولاية عكا طيلة حياته على أن تنسحب جيوش مصر فى الحال من بلاد العرب والمدن المقدسة وكريت وادنه وإذا لم يقبـــل محمد على هذه التسوية فى مدى عشرة أيام تاليه الأولى يكون السلطان حراً فى سحب هذه المنح وأتباع الخطة التى توحى بها مصالحه طبقا للنصائح التى يشير بها حلفاؤه !

وكانت هذه المعاهدة هى غاية التآمر على مصر وسحقا لقوتها . وحاول محمد على المقاومه ولـكن عمق التآمر فى سوريا أضطره إلى قبولها والتسليم بعد أن تخلت عنه فرنسا وسحبت ضباطها من أساطيله وجيشه .

وقال كوشلين مندوب فرنسا لمحمد على : أن فرنسا أيدتك ولـكنها لاتستطيع أن تتخلى عن روابط السياسة التقليدية التى تربطها بأوربا وأنجلترا خاصة .

وهكذا كان الأنجليز هم الأعداء الطبيعيون للقوة المصرية التى قامت سنة ١٨٤٠ وذلك طمعا منهم فى الاستيلاء على هذه المنطقة .

ويؤخذ على محمد على أمران أولهما أنه لم يشرك الشعب فى هذه النهضة وأنه حطم القاعدة الشعبية ، وثانيا ضعفه عن أقتحام استانبول وفرض رأيه على دولة الخلافة المنهارة . ولا شك أن شخصية محمد على الذى استطاع أن يتولى الحـكم فى مصر بالتآمر والدس والذى حارب بعد ذلك الذين جاءوا به بنفى عمر مـكرم إلى دمياط . هذه الشخصية لم يكن فى استطاعتها حماية النهضة أو القوامة عليها .

* * *

وقد عقد المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة المقارنة بين معركة السويس ومعركة نفارين فقال :

« لقد فشلت نفارين سنة ١٩٥٦ ولم تصل إلى النتائج التى حققتها نفارين سنة ١٨٤٠ أقول نفارين وأنا أعنى ما أقول . إن أعداء مصر كانت لهم سياسة تقليدية تجاهها ترتكز على عاملين أولهما : ألا تكون فى مصر حكومة قويه وثانيهما ألا يكون لمصر جيش قوى . وأيام محمد على أحس أعداء مصر بالخطر فكان تدمير أسطول مصر فى نفارين . وتراجعت حكومة محمد على القوية فقد كان محمد على يريد ملكا له ترثه أسرته إلى الأبد وعلى هذا الأساس وضع توقيعه على معاهدة لندن ١٨٤٠ . وكان المفروض أن تتكرر نفارين فى سيناء مرة فى الماء . ومرة فى الصحراء .

ولكن الذى حدث على الأمواج لم يحدث على الرمال .

« إن البحر ابتلع أسطول مصر المحترق فى نفارين . وفى هذه المرة . كانت أحلام أعداء مصر ومؤامرتهم هى التى ضلت فى التيه . . »

وبعد : فما هى نفارين .

الواقع ان « معركة نفارين » ليست هامة لذاتها ، وإنما ترجع أهميتها إلى أنها رمز على معان كثيرة فى تاريخ الصراع بين الشرق والغرب . فقد كان الغرب يخشى يقظة الشرق فى هذه المرحلة بالذات ، ذلك لأنه كان قد حطم دولة « الرجل المريض » وانتظر موعداً لتمزقها ويقسمها فيما بينه . فكان قيام أى قوة جديدة، واستعلان أى مظهر من مظاهر اليقظة فى أى جزء من أجزاء هذا الوطن كفيل بأن يحطم الحلم الذهبى الذى كان يراود أوربا ذلك الحين وهى تضع يدها على هذه المنطقة كلها وتمزيقها واستغلالها عسكريا واقتصاديا .

ولذلك نظرت أوربا بعين السخط والحقد إلى نهضة مصر فى هذه الفترة ،

حين أخذت تزحف إلى الحجاز جنوبا وإلى الأناضول شمالا . ووقفت أوربا ترقب هذه الوثبة وهي مضطربه فقد كانت مصر تتزعم نهضة عربية جديدة من شأنها إذا رسخت أقدامها أن تقيم امبراطورية كبرى تحل محل دولة آل عثمان ، ويمكن أن تسلب منها تاج الخلافة . وأن تقوم القاهرة فى الشرق مقام القسطنطينية .

وأخذت أوربا تنفض يدها من خلافاتها الداخلية ، وصراعها على الأسلاب لتواجه هذا الخطر الجديد ، فما أن رأت أسطول مصر يزحف إلى شبه جزيرة المورة ليرد الثائرين الذين عجز السلطان العثمانى عن إرجاعهم إلى حظيرة الدولة ،.. حتى توحدت هذه الدول وتجمعت لتحطم هذا الأسطول .

* * *

كانت هذه هى المرة الأولى التى تستشرف طلائع الجيش المصرى بلاد أوربا. وبزحف الأسطول المصرى إلى المياه الزرقاء .

خرجت حملة كريد فى ١٧ ألف جندى ، فى أسطول مكون من ١٩٨ قطعة مابين حربية ونقلية وتجارية ،وما أن أرسى مراسيه حتى حسم الموقف وقمع الثورة وسقطت أثينا فى يد القوات الفتية سنة ١٨٢٧ .

وهنا كان الموقف فى أوربا قد وصل إلى ذروته ، فتدخلت أوربا لتحمى اليونان من دولة الخلافة .ومن مصر الفتية القويه ، فاقرت هذه الدول معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ التى تقضى بفصل اليونان نهائيا عن تركيا والتى وقعتها انجلترا وروسيا وفرنسا ، وشرطت أن من حقها التدخل بالقوة ، وسرعان ما أرسلت هذه الدول أساطيلها إلى خليج نفارين لمحاصرة الأسطول المصرى .

وما أن توقف الباب العالى واعترض على بعض بنود المعاهدة حتى هاجم الاسطول الأوربى مجتمعا ، أسطول مصر فدارت معركة نفارين فى ٢٠ أكتوبر

سنة ١٨٢٧ ، وقد تجمعت قوى الغرب كلها ضد مصر . فحطمت الأسطول المصرى وأغرقته فى البحر .

وكان هذا أول مظاهر الخصومة الغربية فى صورة الافتئات . وكأنما أرادت أوربا حين قضت على هذا الأسطول الذى بدأ يزعج دول البحر الأبيض ، أن تقضى على القوة الجديدة التى بدأت تتألق . وكأنما كانت الخطة الموضوعة لذلك غاية فى الصرامة والتعصب ، فقد بدأت قوة مصر تنهار بعد هذه الموقعة وتنكمش حتى انتهى أمرها إلى قبول توقيع معاهدة ٢٧ نوفمبر ١٨٤٠ التى جردت بها مصر من كل ممتلكاتها وحصرتها فى وادى النيل وذلك عندما أخذت الدول بعد نفارين تشن حربا باردة على مصر ، لم تثبت مصر أزاءها ،وما لبثت أن أسلمت أمرها إلى القدر المقدور .

بدأ القتال بين الاسطول المصرى ، والأساطيل الأوربية مجتمعة واستمر أربع ساعات كاملة ، وكان قتالا حادا تلاحمت فيه الأجسام وتماسكت الأيدى وانتهى بغرق السفن المصرية واحدة بعد الأخرى وفقد ٦ آلاف رجل وكان أبلغ صور الغدر فى هذه المعركة هو غدر فرنسا التى كانت تؤيد مصر فى ذلك الحين ، وكان ضباطها يشرفون على الأسطول المصرى، يشتركون فيه فعلا، والتى سرعان ما نفضت يدها من كل تعهداتها ووقفت ضد مصر فى « نفارين » . إذ أرسل قائد الأسطول الفرنسى يطلب إلى الضباط الفرنسين فى الأسطول المصرى أن ينسحبوا منه فوراً ، وقد استجابوا دون معارضة ، وخذلوا المصريين فى ساعة الضيق .

لقد أبدى الجيش المصرى فى هذه المعركة من صنوف البسالة والجلاد ماسجل له بالفخار ازاء هذه القوات الضخمة القوية ، التى جمعتها الدول المختلفة المتنافرة لتقف أمام مصر وتقضى بها على يقظه الشرق . . هذه اليقظة التى تمثلت

فى قوة الجيش المصرى وانتصاراته المتوالية ، وقد قوبلت هذه اليقظة بأعنف صور المقاومة من بريطانيا والنمسا التى كتب معتمدها يقول « إن فكرة تأليف الامبراطورية العربية لاتزال حية ولا تزال موجودة . وأرى إلى جانب ضعف الباب العالى وهزاله جيشا عربيا قويا مدربا على أحدث مبادىء القتال وأرى أسطولا قويا . أضف إلى ذلك يقظة الروح العربية بعد سباتها » .

* * *

كان هذا ولا شك هو « الإرهاص » الذى جعل أوروبا تتحين الفرصة لتُحكم الضربة ، ولم يكن من الميسور أن تكون بأقوى من ضربة أسطول خارج نطاق مياهه وفى المدد الضخم من رجاله وممدانه .

ويرى المؤرخون أن هزيمة « نفارين » كانت بعيدة الأثر فى مستقبل الفكرة التى كانت مصر تحمل لواءها فقد أخرت الخطوات التالية التى كان فى الامكان تحقيقها فى سبيل خلق الدول العربية المرتقبة .

ولكن التاريخ قد سجل مع هذا صفحات من الفخار لمصر ، ولأبناء مصر المجاهدين الذين كانوا عماد هذا الجيش القوى المحارب والاسطول الزاحف ، هؤلاء هم الذين يكتب تاريخهم الآن بعد أن ظل يختفى طويلا وراء اسماء الملوك والولاة والسلاطين . فقد حق أن يقال أن هذه الدولة الضخمة الشامخة التى نسبت إلى محمد على إنما قامت على أكتاف هؤلاء المصريين الذين استبسلوا فى سبيل مصر ورفعوا رأسها فى كل مكان ذهبوا إليه . فان أوربا يوم حطمت أسطول مصر فى نفارين قد أعترفت بقوة مصر وبسالة جنودها الذين استشهدوا فى سبيل الواجب .

* * *

ولكن الأمر فى نفارين الثانية (٥ نوفمبر سنة ١٩٥٦) كان يختلف عن

هذا تماما فقد فشلت مؤامرة تحطيم القوة المصرية هذه المرة وذلك بفضل يقظة القيادة المصرية الحازمة والايمان الصادق بمصر وحدها والتضحيه فى سبيلها ٠

وإذا كانت نفارين الأولى نقطة تحول فى تاريخ الصراع بين الشرق والغرب فان نفارين الثانية هى نقطة تجمع ضخمة فى تاريخ العرب ستكون لها إيجابيتها الـكاملة ونتائجها الخطيرة فى دعم قوة العرب وهزيمة الاستعمار والقضاء نهائيا على هذا الأسلوب الغادر فى مهاجمة الدول الحرة المستقلة .

وغاية القول أن نفـارين الأولى كانت بداية الزحف الاستعمارى ولـكن نفارين الثانية هى نهاية هذه القصة الطويلة من الغدر الإنجليزى الفرنسى وبداية صفحة جديدة من النصر والقوة والتجمع وتصفية الاستعمار بصورة نهائية ٠

لقد انهزمت مصر فى نفارين الأولى ولـكنها انتصرت فى نفارين الثانية وردت لأوربا الصاع صاعين ٠

مصر وبريطانيا (وثائق الغدر)

١ — الوثيقة الأولى : تصريح غلادستون ١٨٧٧

« إذا توطدت اقدامنا فى مصر تكون هذه المستعمرة بوجه التحقيق بمثابة ذريعة لتأسيس امبراطوريه شاسعة فى إفريقيا الشمالية تأخذ فى النمو تدريجيا إلى أن تدخل فى تخومها منابع النيل الأبيض بل تنتهى بدون شك بأن تجتاز خط الاستواء لتتصل بمستعمرة الناتال ورأس المشم وذلك بغض النظر عن الترنسفال ونهر الأور.

« ومن المستحيل أن نفرق فى أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات انجلترا المقبلة فى مصر . . » .

٢ — الوثيقة الثانية : غلادستون ١٨٨٢

« نحن وكل المملكة فى سرور وابتهاج بدخولنا مصر . ونأمل أن يتقبل الله القادر على كل شىء شكراننا على ماحبانا من نعم وفضل فما أحس بل وأعترف أنه عمل متصف بالأمانة . وإننا من ناحيتنا إنما نجاهد فى سبيل العدل الأسمى والحضارة . والحكم على عملنا متروك إلى قليل من الزمن . ومن حقنا أن نغتبط ونمضى معجبين بجيشنا وبحريتنا وأمرائنا وقوادنا ومنظماتنا . إنه لم يمض سبع أسابيع منذ توجهنا إلى إرسال ٣٥ ألف رجل عبر مسافة لاتقل عن ٣ آلاف ميل ، وكان من فضل الله أن وافانا بنتائج سريعة » .

٣ — الوثيقة الثالثة : تصريح ولفر ولسون ١٨٩٠

نحن الإنجليز زدنا دين مصر إلى مائة مليون جنيه فقد قتلنا آلافا من سكان

مصر وشللنا حركة المجلس النيابي في مصر وغرسنا في البلاد أنواع الفجور والفسق . ولقد قضينا على هذا الشعب المصرى بتقييده بالديوان والضرائب وقتلنا تلك الروح الاستقلالية التي ولدت في الشرق • . » •

* * *

ومن هذه الوثائق كلها يتبين مدى الغدر البريطاني الواضح الذي منيت به مصر ومنى به الشرق الإسلامي كله منذ قرن ونصف قرن من الزمان •

ففي عام ١٨٠٨ هاجمت بريطانيا بلادنا بحملة فريزز وقد استطاعت رشيد الباسلة بقواتها الشعبية أن تردها • نعم ردتها رشيد الباسلة بعنف وقسوة • بعد أن قاتلتها في قلب شوارع رشيد ومن فوق سطوح المنازل فحطمتها مما دفع قائدها فريزر أن يطلب التسليم وأن يرتد على عقبة بفلول قواته ومن يومها سجلت « رشيد » صفحة ماجدة في تاريخ مصر .

ومنذ أن انهزمت انجلترا في هذه الحملة وهى تبيت نية الغدر وتعد العدة للانقضاض على مصر وتعمل بكل ماتملك من قوة في سبيل تحطيم القوة المصرية التي كونتها مصر في ذلك الوقت • وقد أزعجها — هى وحليفتها الغادرة فرنسا — هذا الأسطول الضخم الذي زاحم الغرب في مياه شبه جزيرة المورة فهزم الثائرين ورد كريد إلى تبعيتها للباب العالي • مما دعا هذه الدول إلى تحطيم أسطول مصر في موقعة نڤارين ثم حاربت مشروع إنشاء قناة السويس أعنف الحرب فلما نفذ عمدت إلى اغتصاب حصة مصر في الأسهم واشترتها بثمن يقل عن قيمتها الفعلية في سوق الأوراق المالية بمبلغ ٣١ مليون جنيه وأتمت هذه الصفقة بطريقة غير قانونية وخرقت كل عرف في سبيل السيطرة على مصر والتدخل في أمورها • ومن الوثيقة الأولى في مقدمة هذا البحث يتبين الهدف من شراء الأسهم وهو

يصور مطامع بريطانيا قبل احتلال مصر وضربها بقنابل الأسطول — بسنوات خمس …

وقد كان هذا التطلع إلى وادى النيل والطمع فى السيطرة عليه واعتبار انجلترا نفسها مالكة لمصر هو الذى حملها على أن تعمل خلال هذه السنين التى سبقت الاحتلال ·

فالى سنة ١٧٨٥ كانت حصة مصر من أسهم قناة السويس قد بيعت لانجلترا وكان حق مصر فى الاستيلاء على ١٥ فى المائة من صافى الارباح قد اشترته شركة فرنسية بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه وقد بلغت قيمة الأسهم فى الأسواق المالية ٣٥ مليون جنيه وبلغت قيمة الحصة من صافى الأرباح سنة ١٩٢٩ ، ٣٠ مليونج فضلا عن أنها تربح ٨٥٩ ألف جنيه سنويا ·

ثم عمدت انجلترا إلى المالية المصريه فأحدثت فيها صوراً من الاضطراب لاسبيل إلى قبولها من الوجهة الاقتصادية الفنية أو إقرارها . وقد كانت السنوات ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ هى سنوات الاضطراب الداخلى والتحكم · وكانت مناورات أصحاب القراطيس والكوبونات والديون قد بلغت حدها ثورة وتآمراً ، وقد زاد عدد الموظفين أصحاب المرتبات الضخمة زيادة كبيرة وبلغت مرتباتهم حسبما جاء فى جريدة « التيمس » فى ١٧٧٨/١٢/٢٥ مبلغ ٦٠ ألف جنيه سنويا فى حين أن مئات من المستخدمين الوطنيين لم يكونوا يستطيعون أن يحصلوا على مرتباتهم الزهيــــدة التى لم تدفع لهم منذ عام أو أكثر وتقول : « التيمس » ٢٣ / ١ / ١٨٧٩ » إن معظم كبار الموظفين من الاجانب تصرف لهم المرتبات الضخمة لتهدئة حنينهم إلى أوطانهم وقد حشرت المناقشات الدولية هنا وهناك ثلاثة أو أربعة من الموظفين فى عمل لاتحتاج تأديته إلا إلى شخص واحد . ولقد كانت نتيجة هذه التجارب فى طريق الحكم أن أثقل كاهل مصر بعدد

من الموظفين ذوى المرتبات الضخمة والذين لا عمل لهم إلا قبض هذه المرتبات ؟

وقد عمدت بريطانيا بعد شراء أسهم القناة بهذا الأسلوب الغادر إلى التدخل فى شئون مصر فأرسلت بعثة لفحص الشئون المالية على رأسها « سقيفن كيف » وانتهى ذلك باصدار الحكومة قانونا بتوحيد الدين وإنشاء صندوق خاص بعملياته واختيار أعضاء له من الأجانب يمثلون الدائنين ثم أشارت بعد ذلك بإنشاء منصب المراقبين الثنائيين .

وانتهزت الرقابة الثنائية (الإنجليزية الفرنسية) الفرصة فاذاعت فى أوربا تقارير وبيانات كلها أساءة إلى سمعة مصر واتهام لها بالخلل والفوضى وحرضت الدائنين على المطالبة بمضاعفة الضمانات بنقل الإدارة إلى يد وزارة أوربية .

وتحت الضغط الإنجليزى شكلت الوزارة الأوربية برئاسة نوبار وعضوية وزيرين إنجليزى للمالية وفرنسى للأشغال . وكأن وزير الأشغال يعمل قبل ذلك فى منصب ثانوى بوزارة (المعارف) وليس له من المؤهلات مايسمح له بشغل هذا المنصب .

وبهذا سيطرت أوربا على مصر سيطرة فعلية .

وقد أجاب جورج كاميل فى مجلس العموم فى ١٢/٣/١٨٧٦ عن سؤال خاص بإنشاء هذه الوزارة فقال « تلك المحاولة التى كان المراد بها فى الظاهر إدخال الحكم الصالح فى مصر لم تكن سوى لعبة مالية عظيمة لرفع الأسهم المصرية ولكن أولئك الذين لهم فيها نصيب ؟ من أن ينثروها على الجمهور » .

وكان هذا فى الواقع تصريح خطير يكشف فى وضوح وعلانيه حلقة من حلقات هذه المؤامرة المدبرة لاغتيال مصر والغدر بها .

ولم تكن هذه الحلقات المتوالية من شراء الأسهم إلى إنشاء صندوق الدين

إلى تأليف الوزارة الأوربية إلى تأليف المراقبة الثنائية ، الا خطوات فى سبيل الوصول إلى احتلال مصر غدراً .

وقد خولت هذه المراقبة سلطة ضخمة لافلين بارنج الذى أصبح من بعد المعتمد البريطانى فى مصر خلال ربع قرن كامل ، إتسع بها النفوذ البريطانى فى مصر وأبيحت موارد البلاد ومراقبتها للماليين والدائنين اليهود . فانشىء البنك العقارى وشركة تكرير السكر سنة ١٨٨٠ وقد أشارت الرقابة إلى إنقاص الجيش بحجة توفير النفقات فى الوقت الذى كانت ترمى من وراء ذلك إلى إضعاف القوة العسكرية فى مصر وهى الخطوة الثانية بعد وضع يدها على أسهم قناة السويس .

وقد تعددت حركات الاضطراب المالى بفعل الدائنين وبتأثيرهم على سوق الأوراق المالية فى لندن حتى تقول جريدة التيمس « . . إستولى الذعر اليوم على سوق السندات الأجنبية . ولم تعلق نشرة البنك العثمانى إلا فى منتصف النهار . وإذ ذاك تدهورت السندات التركية وأعقبتها السندات المصرية تدهوراً كانت نتيجته إحداث ذعر شديد ولم يشاهد أى تحسن عند إقفال البورصة بل استمرت السندات المصرية فى تدهور إلى ما بعد ساعات العمل . . » .

وهكذا اتخذت السندات المالية وسيلة إلى تبرير المؤامرة ، وأداة للاعتداء . والواقع أن المالية المصرية لم تكن مضطربة إذا ثبت بالبرهان القاطع أن الميزانية المصرية كان فيها فائض يمكن سداده من الديون ولكن انجلترا أغمضت عينها عنه وحاولت تبديده بكل وسيلة حتى تهيىء لوضع يدها على مصر .

وهكذا أعد البريطانيون الغادرون كل وسائل التدبير لخراب مصر واقتل روحها المعنوية وأرسلوا أسطولا مشتركا مع فرنسا لإرهاب مصر .

فلما تمكنت بالغدر والخيانة من احتلال مصر بدأت صفحة من صفحات التاريخ الطويل المرير فى الظلم والعسف ، ومن ناحية مصر بالمقاومة والكفاح : ولقد تغير كل شيء ولم تصل مصر كما كانوا يريدونها إلى التدهور . بل قاومت الغربيات بكل وسيلة حتى تحول دون تحطيم معنويتها .

وقد حاولت بريطانيا مع فرنسا إعادة التاريخ القهقرى . . فى عام ١٩٥٦ ولكن كانت المحاولة فاشلة فقد تغير كل شيء . وقاومت « بور سعيد » مقاومة باسلة ، وكتبت صفحة مجيدة وأثبتت الروح العربية أنها غائرة فى العمق وأنها لاتغلب .

لقد مضى تاريخ طويل امتلأت فيه نفوس المصريين بالبغض والحقد لبريطانيا وفرنسا وكان ذلك عاملا أصيلا فى المقاومة الضخمة التى قامت بها مصر كجزء من الأمة العربية فى كفاحها للاستعمار

وقدمت مصر شهداءها فى سبيل حريتها وكبدت العدو الغادر خسارة باهظة وأكدت مصر أن روح المقاومة قد زاد قوة مما كان فى مقاومة الفرنسين وفى حملة فريزر وفى معركة عرابى وفى ثورة ١٩١٩ .

وثائق أخرى لغدر الانجليز

(٢)

فى ظل هذا الجو الرهيب الذى خلقته بريطانيا فى أعوام ١٨٨٠ و ١٨٨١ و ١٨٨٢ خرب الانجليز الاسكندرية متعللين بحجة واهية ضعيفة لاتثبت أمام القانون الدولى ولا يقرها أى تشريع على أنها مبرر لاحتلال دولة آمنة لم تبـدأ بالعدوان . وخرق الانجليز حياد القناة واحتلوها قبل أن يحصنها المصريون ، وقد خدعوهم فى كفر الدوار . وانتصر المصريون عليهم فى هذه المعركة انتصارا باهراً ولم يكن عرابى يقدر أنهم سيطوقونها مستهينين بالمعاهدات الدولية

واستطاع الانجليز — بالخداع أيضا والغدر — أن يهاجموا معسكر الجيش المصرى فى التل الـكبير هجوما مباغتا عندما استعانوا بالاشتراك مع الخديو ببعض الجواسيس والخونة حتى وصلوا إلى المعسكر قبـل الفجر وانقضوا على القوات وحاصروها . وحسبك أن تعرف أنها كانت مؤامرة غادرة فإن المعركة لم تستمر أكثرها من ٣٠ دقيقة وكانت خسائر المصريين فيها ألفى قتيل فى مقابل ٧٥ قتيلا من الانجليز ومع ذلك فإن « غلادستون » يصر فى خطابه على أن فتح مصر كان عملا من أعمال الحضارة والعدل والأمانة !

وما إن وضع الانجليز يدهم على البلاد حتى سرحوا الجيش المصرى الأول وكونوا جيشاً من ستة آلاف جندى ، وجعلوه تحت إمرة قائد انجليزى كما الغى

مجلس النواب والدستور ، ووضع نظـــام وهمى هو مجلس شورى القوانين واستبدل النائب العام المصرى بآخر بريطانى .

وعمدت انجلترا إلى استدعاء مهندسين انجليز لتنظيم شئون الرى كما هو متبع فى الهنـد وأفسد «دنلوب» سياسة التعليم المصرى وحرّف التاريخ المصرى المجيد فجعله تاريخ احتلال واستعمار . والغى الانجليز المراقبة الثنائية وعينوا مراقبا انجليزيا له حرية التصرف المطلقة . وارغمت انجلترا مصر على الالتزام بنصائحها بتلغراف جرانفيل .

الوثيقة الرابعة : تلغراف جرانفيل

« لا أرى حاجة لأن أوضح لـكم أنه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى (المؤقت) ! قائما فى مصر أن تتأكد حكومة جلالة الملـكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها فى المسائل الهـــامة التى تستهدف فيها إدارة مصر وسلامتها من الخطر ويجب على الوزراء المصريين أن يكونوا على بينة من المسئولية الملقاة على عاتق الحـكومة البريطانية تضطر إلى أن تصر على اتباع السياسة التى تراها . ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير لا يسير وفقا لهذه السياسة وأن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا اقتضت الحال استبدل أحد الوزراء فهناك من المصريين من يشغلوا مناصب أقل درجه على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها إليهم الخديوى بناء على نصائح جلالة الملـكة » دونتج ستريت ٧ / ١ / ١٨٨٤

ومن هذه الوثيقة تنـكشف بريطانيا تماما ، وقد كانت تظن أنها تستطيع فى عام ١٩٥٦ أن تفعل ما كانت تفعله منذ أكثر من سبعين عاما متجاهلة سنن السـكون وتطور الزمن ، هذا التطور الذى نقلها إلى صفوف الدول ذات الدرجة

الثالثة ونقل مصر إلى الأمام خطوات ضخمة فتحررت من مثل هـذا الصنف من الوزراء الذي وصفهم «جرانفيل» وقدحطمت قيود الاستعمار ، ولم تعد تتصرف إلا بوحى من إرادتها الخالصة .

وتسجل هذه الوثيقة بوضوح نوايا بريطانيا فى ذلك الوقت المبنية على الإجرام والغدر . وقد كان من المؤلم أن يجد الإنجليز من المصريين من يقبل أن يكون من أذناب الاستعمار وأن ينصاع لهم .

وقد كان من نتائج هذه البرقية أن الزمت مصر بنصائح الانجليز فخرجت من السودان عام ١٨٨٣ ، وعادت إليه عام ١٨٩٨ ، ووقعت اتفـاقية ١٨٩٩ الباطلة ، وفرضت عليهـا تعويضات مذبحة الاسكندرية التى قام الانجليز بها ، وحريق الاسكندرية وبلغت ٤ ملايين و ٢٥٠ ألف جنيه . وفى ضوء تلغراف جرانفيل زيد جيش الاحتـلال من ٢٩٠٦ جندى إلى ٤٧٥٨ وبلغت تـكاليفه سنويا على حساب مصر ١،٠٤١،٠٣٧٥ من الجنيهات وأنشأت المحـكمة المخصوصه التى أسند إليها تنفيذ جريمة دانشواى . وأنشأت البنك الأهلى من الرأسماليين اليهود أمثال سلفاجو وكـسل وسوارس سنة ١٨٩٨ وباعت البواخر المصرية بأحواضها ومستودعاتها ومخازنها وقدرت قيمتها بأكثر من ثلاثة ملايين جنيه وقد بيعت بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه وبذلك قضى على الأسطول التجارى المصرى .

وفى خلال هذه الفترة أصدرت بريطانيا أكثر من ٦٤ تصريحا مكذوبا بالجلاء منها هذا التصريح الذى ورد على لسان غلادستون فى المجلس العموم .

الوثيقة الخامسة : تصريح غلادستون

« لقد سألنى السيد الفاضل ، هل فى نيتنا أن نحتل مصر احتلالا غير محدود وقد أذهب فى جوابه بعيداً فأقول إنه مهما يأت من شىء فلا شك فى أننا لن نأتى

هذا الأمر ، إنه مناقض لمبادىء حكومة جلالة الملكة وآرائها مناقضة مطلقة ، مناقض لمهـــودنا التي أعطتها أوربا ويمكنني أن أقول إنه مناقض لآراء أوربا نفسها . » .

وهكذا كانت المخادعة البريطانية الغادرة الماكرة . . فإنه في الوقت الذي كان الشريف « غلادستون » يتبرأ من تهمة الاحتلال غـير المحدود كان مندوبه (دوفرين) سفير بريطانيا في تركيا في طريقة الى مصر ليضع دستور الاحتلال الانجليزي وقد وصل إلى مصر في ١٨٨٢/١٠/٣٠ .

وقد برهن بتقريره الذي وضعه على أن المرمى الذي تتجه له السياسة الإنجليزية في مصر ، أن يظل احتلالها قائما إلى ما بعد الأبد نفسه ... وأن ينظم هذا الاحتلال بحيث يشمل جميع مرافق الحياة ، وأن يظل محجباً مقنعا حتى لا يثير الدول ولا يستدعي فتح باب المسألة المصرية مرة أخرى .

وإنما كان هذا التصريح مع غيره من التصريحات التي ألقاها الرجال الرسميون بمثابة ذر الرماد في عيون أهل أوربا والشرق ، ومحاولة لإخفاء أطراف المؤامرة أمام تركيا وفرنسا باعتبارهما الدولتان اللتان تنفسان على انجلترا مكانها في مصر .

وبالرغم من أن تركيا كانت ضعيفة هزيلة ولا يخشى أمرها، فإن انجلترا قبلت الدخول معها في (مفاوضات الجلاء) واستمرت هذه المفاوضات ثلاث سنوات ، وكانت الغاية منها كسب الوقت .

أما فرنسا فقد كانت تنفس على انجلترا مكانها في مصر بشكل واضح ، وقد ظلت انجلترا تخشاها حتى عقدت معها الاتفاق الودي عام ١٩٠٤ الذي اعتبر أقسى قيد وضع في عنق الحرية في الشرق ؛إذ كشف بوضوح عن مدى الإجرام الاستعماري وهو إطلاق دولة يد دولة أخرى في وطن لا يملكانه .

وما كادت بريطانيا توقع هذا الاتفاق حتى استباحت كل ألوان الظلم والعسف في مصر ، وقد ظهر ذلك في حادث دنشواى وغيره .

وقد حرصت بريطانيا على افساد الصلة بين مصر والسودان ، وتحطيم الروابط الطبيعية والاجتماعية والسياسية ، وأستغلت ثورة المهدى التي قامت ضد الاستعمار والاستبداد ، فتدخلت في فرض قائد على الجيش المصرى في السودان غير قائده عبد القادر حلمى ، اذ عينت « هكس » بدلا منه فكان ذلك سببا في استفحال الثورة ، وهزيمة المصريين في « كيشان » .

وقد رفض شريف باشا أمر بريطانيا بإخلاء السودان وقال كلمته المعروفة : (إن تركنا السودان فالسودان لايتركنا) ولكن بريطانيا أرغمته على الاستقالة .

وبعد الاتفاق الودى الآثم بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ ضعفت الجبهة التي كان يعمل فيها المصريون في الخارج .

وإن الانسان ليعجب أن يظل الاستعمار يقوم على قواعد منهارة بالرغم من تحول الزمن وتطور الأمور ، فبعد أكثر من خمسين عاماً تعود بريطانيا وفرنسا للتضامن معا في عمليات حربية ضد مصر مرة أخرى .

وبالرغم من أن انجلترا عملت على الانفراد باحتلال مصر وإبعاد فرنسا منذ اليوم الأول ، وقد اشتدت بينهما المنافسة على مناطق النفوذ الاستعمارى ، فعمدت فرنسا إلى إثارة هذه المسألة بأن أرسلت بعثه حربية بقيادة (مارشان) زحفت على فاشوده الواقعة على النيل الأبيض ، واحتلتها في ١٠ يولية ١٨٩٨ ، فأرسلت انجلترا كتشنر على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى واحتج على احتلال فرنسا لأرض مصرية ، وقد أقصى القائد الفرنسى ورفع العلم المصرى عليها .

ومنذ وقّعت بريطانيا الاتفاق الودى أخذت تتنكر لوعودها الأولى فى الجلاء إذ يقول كرومر فى تقريره عام ١٩٠٥ ·

الوثيقة السادسة : تصريح كرومر

« إن وعد بريطانيا بالجلاء فى مصر كان قبل أن نعلم الحالة فلما عرفتها علمت أن الوعد كان فى غير محله ، وأن تنفيذه يفضى إلى أضرار جسيمة » ·

وقد كان عهد كرومر فى مصر أسود مظلما ، فقد أفسد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية إفسادا عجيبا ، وابتكر أساليب غاية فى العسف لإذلال مصر وتمزيق وحدتها ، وخنق وحدتها ·

وقد ظهرت بوادر الحركة الوطنية بعد عشر سنوات تقريبا من الاحتلال بعد فترة تربص وركود ودهشة ، كان الاعتقاد السائد خلالها أن انجلترا سوف لا تقيم فى مصر ، فلما ظهر خبث نيتها فى وضع يدها على مصر بدأت حركة المقاومة الوطنية جارفة متحمسة يقودها ذلك الشباب « مصطفى كامل » ، ثم غذّاها الرجل محمد فريد فصلب عودها ، وكان لها أثرها فى زعزعة مركز كرومر بعد الحادث الذى وصم بريطانيا بوصمة الجريمة والغدر : وهو حادث دنشواى ·

وعند ما أقصى كرومر لم ينس أن يشتم المصريين ، وأن يعلن ذلك على رؤوس الاشهاد · ويسمعه لمئات من صنائع الاستعمار فى مصر فى خطاب علنى فى حفل أقامة هولاء الخونة لتكريمه حيث قال :

الوثيقة السابعة : خطاب كرومر الأخير

« إن المصريين بوجه الإجمال لا يعترفون بالجميل والمنافع والفوائد التى لا شك أنها منحت لهم . وإذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلا لم تكد تبقى له طاقة لشكر الذين يخلصونه منها ، ولا يمكن أن أصدق أن المصريين ينكرون

أن بلا التمدن الغربي التي كانت تستعملها انكلترا خلال الخمس والعشرين سنة الماضية هي التي انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ما أقاموا دهرهم فيها ، والمعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين .

إن الاحتلال البريطاني يدوم إلى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة جلالة الملكة ذلك رسمياً . وما دام الاحتلال باقيا فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التي تجرى عليها الإدارة المصرية ولا يكون عند أحد أقل ريب في هذه الحقيقة الثابتة . »

والواقع أن ماقاله كرومر في خطاب وداعه بعد ربع قرن من حكم مصر حكماً فعلياً مع اقصاء الحاكم الشرعي — كان سلسلة من الأكاذيب لم تجد من يواجهه بالرد الذي يلجمه عليها إلا مصطفى كامل ، ومحمد فريد . وقد كان كثير من رجال مصر يسمعون هذا وقد مدحهم كرومر .

وإن هذا الخطاب نفسه لوصمة أخرى في جبين بريطانيا الاسود الموصوم بالظلم والجريمة والغدر في تاريخ طويل . أرجو أن يكون موضوع الفصول القادمة .

سوريا

قاعدة القوميه العربية[1]

تعد سوريا فى نظر المؤرخين بؤرة « القومية العربية » منذ فجر الحركة الوطنية العربية التى قامت على أثر تأكد العرب من أن تركيا العثمانية إنما تتجه إلى محق هذه القومية وإدماج العرب فى الاتجاه الطورانى الهادف التى تتريك العناصر المختلفة فى الامبراطورية العثمانية . وقد شكلت فى سوريا الجمعيـــات السرية عام ١٩٠٤ التى امتدت إلى باريس والقاهرة واستانبول كان فى مقدمتها جمعية العربية الفتاة التى أسسها الشباب وكان من أبرز رجالها شكرى القوتلى وجميل مردم.

وكان انعقاد المؤتمر العربى بباريس عام ١٩١٣ تحديداً لموقف العرب من الترك وابرازاً لدور سوريا فى قيادة الحركة العربية وقد كان من علائم هذا المؤتمر أنه نقل الحركة الوطنية خطوة عن المعنى الدينى وجعلها قوة فعالة جامعة ومن ذلك قول أحمد طباره : نحن نعنى بالعرب كل ناطق بالضاد لافرق بين مسلم وغير مسلم وقد أعلن هذا المؤتمر ميثاقا عربيا يتضمن نظام اللامركزية .

وقد حملت سوريا عبء الدور الضخم فى الحركة التحريرية وقامت بالمشاركة الفعلية فى الاعداد للثورة العربية الـكبرى التى قادها الشريف حسين من مـكة المـكرمة . وكان حجر رحاها الأمير فيصل . مما دفع تركيا إلى تعيين أحمد جمال باشا حاكما لسوريا فكان غاية فى الظلم والقسوة والاستبداد فى مواجهة الأحرار الذين ساقهم جزافا إلى المشانق حتى أطلق عليه لقب « جمال السفاح »

وقد ألف محكمة صورية تقضى بالأعدام على كل من يتقدم إليها فى دمشق وبيروت وقد قدم إليها عدد كبير من الرأى والوطنية وأصحاب المـكانة . قاصداً

(١) اقرأ « شكرى القوتلى » جهاد خمسين عاماً للمؤلف.

بذلك ضرب الحركة العربية فى صميمها . ولكن سوريا العربية القوية الشكيمة صمدت لهذه المحاكمات التى استمرت وتعددت وسجلت صوراً من البطولة ماتزال مضرب الأمثال فى البطولة العربية الصادقة فقد كان الأبطال يتعانقون وهم على حافة المقصلة وكانت عباراتهم فيها ذلك الهيب الصادق والإجماع على أنهم إنما يموتون فى سبيل حياة سوريا ونصرة القومية العربية .

ومن هؤلاء الأبطال عبد الحميد الزهراوى وأحمد طباره وعبدالغنى العريس ومحمد محمسانى .

ومما قاله محمد المحمسانى عندما قدم للمشنقة « إننى أعلن أمام الله والناس أن المواطنين الذين سيقدمون ابرياء وأنا وحدى المذنب . وذنبى لو أعتبر هذا ذنباً اننى أعشق الحرية وأنشد تحرير وطنى · وأننى أردت بكل قواى هذا التحرر ولا أندم بحال على مافعلت · وأننى سعيد باعتبارى أول الضحايا ، وأنه من المحتم علينا أن نثور نحن العرب أبناء أعظم مدنيات العالم كلما فكرنا فيما صرنا إليه من ذلة ساقتنا إليها قبائل الأناضول المتوحشة · ولقد ضقنا ذرعا بالظلم المزرى الذى يوقعه على رءوسنا الأتراك . وأن الفكرة التى سنواصل السعى لها ستعيش وتنتشر من بعدنا .

ولم تلبث القوات العربية بقيادة فيصل أن تمكنت من تحرير فلسطين وسوريا غير أن الحلفاء كانوا يحتلون كل مكان يتحرر من العثمانيين · وتبين أن الحلفاء قد وقعوا اتفاقية ساكس بيكو التى قضت بتمزيق المنطقة التى تعهدت باقامة دولة عربيه فيها كاسلاب . وقد أعطت المعاهدة بريطانيا السيطرة على العراق وفلسطين كما أعطت فرنسا السيطرة على سوريا ولبنان كما صدر وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ·

وما أن انتهت جيوش العرب من فتح سوريا بقيادة فيصل حتى قامت حكومة

وطنية فى ١٥ أكتوبر ١٩١٨ غير أن فرنسا لم تلبث أن أرسلت حملة احتلت الساحل اللبنانى وأنزلت العلم العربى عن دور الحكومة فى نفس الوقت الذى اتجه فيه فيصل إلى أوربا لحضور مؤتمر الصلح نيابة عن العرب .

وفى ٢٤ يوليو ١٩٢٠ تحرك الجنرال غورو لاحتلال دمشق فخرج السوريون إلى ميسلون بقيادة يوسف العظمة مدافعين عن عاصمتهم . مؤمنين بأن فرنسا لا تستطيع دخول دمشق الأعلى اشلائهم وجاهد الشهيد يوسف العظمة وصمم على أن لا يرى بلاده تحتل .

ولم يكد الفرنسيون يحتلون سورية ويوطدون أقدامهم فى بقية ارجائها حتى أصطدموا بسياج كثيف من السلبية المطلقة التى قابلهم بها الشعب السورى منذ الأيام الأولى لاحتلالهم البلاد . وفوجئوا بالثورات تعم البلاد . ورغم الجهود التى بذلوها لإخماد هذه الثورات كانوا دائما يفاجئون بنشوب ثورات جديدة ومن أبرز هذه الثورات : ثورة صالح العلى فى جبل العلويين وثورة هنانو فى جبل الزاويه وحاول الفرنسيون تمزيق وحدة الوطن السورى بتقسيمه إلى مناطق هى العلوين والدروز ودولة دمشق ودولة حلب . ولكن مقاومة الشعب ردت فرنسا عن اتجاهها هذا وغدر الفرنسيون بالسوريين حين تنازلوا لتركيا عن لواء الأسكندرونه وهو جزء لايتجزأ من الأرض العربية بدعوى أن أكثرية سكانه من الترك .

ولم يتوقف سوريا عن الكفاح فقد نادى البطل الخالد « ابراهيم هنانو » بأن الحلفاء متآمرون على سوريا والوطن العربى . وقد غادر دمشق إلى حارم ودعا إلى الجهاد وجمل من الحشود التى أنضمت إليه ركيزة للثورة الشعبية التى أعلنها وجعل مقرها قرية « أصم » وأحتلت قواته قضاء المعره وجسر الشاغور ووقفت حشودهم على أبواب اللاذقية وتذمرت به فرنسا وحاولت اعتقاله فأضطر إلى الانسحاب الى الأردن ومنها الى فلسطين . وقد كبد الفرنسين أكثر

من ألف قتيل وبضعة ألوف من الجرحى ولم تلبث مقاومة المحتل أن أخذت طابعا من الصمود والقوة والعمل المتصل ، فانفجرت الثورة السورية الكبرى في يوليو عام ١٩٢٥ . هذه الثورة الضخمة العارمة التي كبدت فرنسا خسائر ضخمة . بدأها جبل الدروز بقيادة سلطان الأطرش ثم عمت انحاء الوطن وكلفت فرنسا الألوف من خيرة جنودها .

وضرب الفرنسيون دمشق بالمدافع من القلاع . وفتحت هذه الآلات الجهنمية أفواهها وصبت على أثمن حي من الأحياء حممها فلم تمض ٢٤ ساعة إلا وقنابل التحريق والتدمير وقد أكلت مايربو على ستمائة دار فضلا عن النهب والسلب الذي حدث بصورة لم يعهد لها مثيل .

وكان من قادة الثورة السورية سلطان الأطرش وعبد الرحمن شهبندر وحسن الحكيم ومحمد الأشمر ، وسعيد العاص ونزيه المؤيد وفوزي القاوقجي ، وحسن الخراط ، وصادق الدافستاني وفائق العسلي وفؤاد أرسلان وزكي الحلبي وفؤاد سليم وزكي الارادي وجميل مردم .

ودارت المعارك في حماة والغوطة والدروز والنبك والسويداء .

وقد عجزت جيوش فرنسا مدى تسعة شهور كاملة عن اجتياز جسر صغير يقوم على نهر تورا المؤدي إلى مدخل دمشق وقد كلفهم عبور هذا الجسر ١٥ آلاف قتيل وجريح .

ولم يتوقف الكفاح بعد الثورة . ولكنه استمر قويا . كان على رأس المكافحين العاملين الداعين إلى المقاومة شكري القوتلي . وعجزت فرنسا أن تمرض على الشعب السوري تسوية لايرضاها ثم بدأ الاضراب الخمسيني الذي استمر نيفا وخمسين يوما . وقدمت ألوف الضحايا في المناطق المختلفة ، حتى قال دي مارتيل لهاشم الأتاسي عام ١٩٣٦ « أنني لا نحني أمام وطنيه الشعب السوري إجلالا واحتراما » .

وفى عام ١٩٤١ احتلت الجيوش البريطانية والقوات الفرنسية سوريا ولبنان وتعرضت إلى صراع ثنائى بين القوتين . وقد حاول الفرنسيون عقد معاهدة تضمن لهم مركزاً فى سوريا ورفض الشعب وعادت سياسة البطش والإرهاب فتجددت الإضطرابات والمظاهرات والاشتباكات الدامية . وضغطت بريطانية على سوريا وكان الرد « لا معاهدة مع فرنسا ولا مع غيرها ولن نرضى عن الأستقلال بديلا »

وازدادت فرنسا إمعانا فى سفك الدماء وصمد الشعب فى وجة الطغاء وقدم ضحايا جديده واشتدت المعارك وحمى وطيسها . ونشبت الثورة فى العاصمة وشملت المحافظات وقذف الفرنسيون دمشق بالقنابل مرة أخرى . كما خربت حمص وحماة وفتك الغاصبون بالمئات من الإبرياء وهدموا الدور وحرقوا المزارع وسال دم الشهداء حتى غطى كل مكان . . كما خرب دار المجلس النيابى بالقنابل يوم ٢٩ مايو عام ١٩٤٥ ثم قدمت سوريا شكواها إلى مجلس الأمن وأجمعت الدول الحرة على معاضدتها فتقرر الجلاء عنها نهائيا فى ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٤٦ .

ولقد رافق كفاح سوريا منذ فجره « رائد القومية العربية : شكرى القوتلى [١] » فهو الذى وضع خطط الثورة العربية الكبرى مع فيصل . ثم ظل خلال هذه الفترة الطويلة يقف فى صف المقاومة والجهاد والدعوة للعمل ضد المستعمر وبث روح العمل الدائب لتحرير سوريا كجزء من خطة ضخمة للوحدة العربية . وقد كان القوتلى وراء كل الثورات المتصلة التى استمرت فى سوريا منذ معركة ميسلون ١٩٢٠ حتى الجلاء ١٩٤٦ كما كان الصوال الجوال المسافر الذى لا يهدأ إلى العراق ومصر والحجاز وأوروبا يدعوا للعمل العربى الكبير .

وكانت سوريا حين تأزمها الأزمات تلجأ إليه . وقد ظل طوال كفاحه يرفض الرضوخ لأى جبهة استعمارية لعقد معاهدة تحالف بين سوريا وبين فرنسا .

(١) اقرأ دراسة كاملة عنه للمؤلف ، عدد مارس ١٩٠٨ عن مجلة المجلات العالمية .

وظل يرفض مايعرضه الفرنسيون وجيوشهم مازالت مرابطة فى سوريا بشأن عقد معاهدة حتى انتهى الأمر بضرب البلاد بالقنابل فى مايو ١٩٤٥ وأصر القوتلى على رفض مشروع الاتفاق الفرنسى البريطانى بشأن اقتسام النفوذ فى سوريا ولبنان كما عارض فى اتمام اتفاقية الهدنة بين سوريا واسرائيل · وقد عاش الرجل الصلب العنيد الذى لايهاب ولا يخاف حياته واضعا روحه على كفه . وقد كتبت له الحياة لأنه حرض على الموت · وفى كلا المرتين اللتين تولى خلالها رئاسة الجمهورية دعا قومه إلى الاتحاد وإلى عقد ميثاق مقدس بين الأحزاب للعمل جبهة واحدة وقد حقق أمنيتين كبيرتين كانتا تملآن نفسه ، هو الجلاء وقد تحقق فى إبان رئاسته الأولى والوحدة تحققت فى إبان رئاسته الثانية · وسيذكر له التاريخ تضحيته الضخمة بمنصبه كرئيس الجمهورية فى سبيل قيام الجمهورية العربية المتحدة

وقد جرت عـــدة مؤامرات لربط سوريا بالأحلاف والمعاهدات فلما عجز المستعمرون عن ذلك أعلنت عدة مشروعات ترمى إلى ضم سوريا إلى العراق « سوريا الـكبرى » عام ١٩٤٤ وهو المشروع الذى كان يدعو إليه الملك عبد الله ويرمى إلى ضم الأردن الى سوريا ولم يلق المشروع أى تأييد من السوريين الذين رفضوا أن ينضموا الى الأردن وهى قاعدة عسكرية بريطانية كما رفضوا استبدال نظامهم الجمهورى بنظام ملـكى .

وكذلك رفضت سوريا مشروع « الهلال الخصيب » الذى كان يدعو إليه نورى السعيد عام ١٩٤٣ الذى كان يهدف الى ربط سوريا بالعراق ليـكونا منطقة نفوذ لبريطانيا بحكم أن العراق كان مرتبطا مع بريطانيا بمعاهدة وقاعدة عسكرية وكلا المشروعين يهدفان إلى عزل مصر عن الحركة العربية . وإلى ادخال سوريا التى تحررت الى نطاق النفوذ الاستعمارى .

وقد مضت سوريا تشق طريقها بزعامة رئيسها شكرى القوتلى التى تجمعت الأمة حوله عام ١٩٤٣ كأول رئيس لجمهوريتها . غير أنه فى ٢٩ مارس ١٩٤٩

وقع فى سوريا انقلاب قام به حسنى الزعيم ثم تطور الى انقلابات متعــددة بقيادة سامى الحناوى وأديب الشيشكلى وقد استمر هذا الدور الى ٢٨ فبراير ١٩٥٤ حيث سقط الحــكم العسكرى كله · وعادت سوريا مرة أخرى الى حــكمها الدستورى وأطلق على هذه الفترة التى استمرت خمس سنوات فــترة اغتصاب السلطة · وهفت سوريا من جديد الى قائدها شكرى القوتلى الذى كان قد أقام فى الأسكندرية هذه الفترة فدعى الى العودة الى سوريا وانتخب بالإجماع رئيسا للجمهورية السورية للمرة الثانية فى ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ ·

وافتتحت سوريا صفحة جديدة من الــكفاح وتوحدت احزابها بميثاق قومى ومضت تقوم بدورها فى قضية الأمة العربية المتحدة فلما وقع العدوان البريطانى الأسرائيلى على مصر كانت تجاوبت معها أصدق تجاوب ونسفت إنابيب البترول وكبدت العدو خسائر فادحة .وقد كان للروابط الصادقة بين مصر وسوريا اثرها فى الاتجاه نحو الوحدة العربية والعمل المشترك فى سبيل دفع عادية الاستعمار عن الأمة العربية وقــد تحقق هذا فى صورة فعلية عندما أعلن رئيسا سوريا ومصر فى أول فبراير ١٩٥٨ ادماج سوريا ومصر فى جمهورية واحدة هى « الجمهورية العربية المتحدة » وقبول الرئيس شكرى القوتلى ترشيح الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية الجديدة وقد أدى هذا الى توحيد مجلس الأمة والجيش والتمثيل السياسى والنقد والتعليم والاقتصاد …

الثورة العربية ١٩١٦ وحكم الهاشميين

كانت الثورة العربية التي اندلعت في المنطقة العربية في ١٠ يونية ١٩١٦ قمة من قمم القومية العربية • وضوء مازال يرسم الطريق للهدف الكبير . لقد حددت هذه الثورة الموقف بالنسبة للعرب الذى رفضوا الأنطواء فى الجامعة الطورانية التى حاولت تركيا اقامتها . وبذلك انفصل العرب عن الاتراك بعد أكثر من ثلاثة قرون • ووقفوا فى الصف الذى تحارب فيه بريطانيا وفرنسا بينما وقفت تركيا فى صف المانيا وكان لهذا نتائجة الضخمة القاسية فقد تصارع العرب والاتراك وهما جزآن من العالم الإسلامى وكان الكسب فى النهاية للاستعمار الذى فرض سلطانه على المناطق التى حررها العرب من الاتراك وعمد إلى تمزيقها وتقسيمها وسحب وعودة المكتوبة بإقامة حكومة عربية •

* * *

ترجع عوامل اندلاع الثورة العربية الى الرغبة فى التحرر من سلطان العثمانيين بعد أن اتجهوا نحو الدعوة الطورانية لأحياء مجد جنكيزخان وتيمورلنك ثم فتكهم بالنخبة الممتازة من أبناء سوريا والعراق ونصب المشانق لهم . ونفى مئات الأسر العربية الكبرى الى الأناضول كل هذا دفع زعماء العرب الى التحرر من سلطان الاتراك • وكانت بريطانيا قد اتصلت بواسطه اللورد كتشنر بالشريف حسين فى مكة فى بدء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) تسأل عن موقف العرب من هذه الحرب بعد أن ظهرت نية تركيا فى الأنضمام الى جانب المانيا •

وانتهزت بريطانيا الفرصة فأكدت وعودها بمساعدة العرب فى نيل حرياتهم

وكانت دمشق مركز الحركة العربية وقد أعطى زعمائها مضبطة سرية الى فيصل ابن الحسين ملكا على البلاد العربية تتضمن توقيعات العلماء ورجال الجيش وسائر الطوائف كالدروز والبدو .

وماطلت بريطانيا الشريف حسين فى اعطائه وعدا صريحا مكتوبا واستمرت المخابرات بينه وبين «مكماهون» ممثل بريطانيا فى مصر حوالى عام كامل ، كان الاتراك خلاله قد مزقوا الجماعات العربية فى سوريا والعراق وسجنوا وقتلوا كثيراً من الأحرار .

وقد شملت أحكام النفى والسجن ثلاثمائة اسرة من أسر الشام خلال شهرين (مارس — ابريل ١٩١٦) أرسلوا إلى الأناضول وصودرت أموالهم قبل صدور الأحكام عليهم . فقد أنشأ جمال باشا السفاح ما سماه (ديوان الحرب) فى عاليه . وقد بدأ عهده بأن القى خطبة رنانه قال فيها « ... أن الأمانى التركية والأمانى العربية لا يتعارضان مطلقا . فالترك والعرب ليسوا سوى أخواننا فى غاياتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض . ان هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء فى اللحظة التى يتجادلون فيها فالنزاع والخلاف بين عمودى الأسلام لابد أن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين . ويومئذ لامفر من الوقوع تحت نيران الاستعمار السلاف » .

والعجيب أن جمال السفاح عمد بعد القاء هذه الخطبة إلى قتل واحد عشرين عربى على الشبهة .

وقد عرف فيما بعد من الوثائق التى نشرها الروس أنه كانت هناك صلة بين جمال باشا وبين الأرمن وأنهم كانوا بسبيل حمل الحلفاء على الأعتراف به سلطانا على تركيا مقابل قضائه على الدولة .

وبدأت إتصالات بين كتشنر والشريف حسين مهدت للمكاتبات السرية بين ممثل أنجلترا فى مصر « هنرى مكماهون » والشريف .

وقد أرسل الشريف كتابه الأول فى (١٤ يوليه ١٩١٥) وفيه طلب الأمير العربى من أنجلترا أن تعترف باستقلال البلاد العربية من « مرسين إلى أطنه » حتى الخليج الفارسى شمالا . ومن فارس حتى خليج البصره شرقا . ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا – مع استثناء عدن – ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى (سيناء) غربا على أن توافق انجلترا على اعلانه خليفة عربى على المسلمين .

وقد ذكر الشريف أن حكومته تعترف بأفضلية انجلترا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية وذكر أيضا أن الحكومتان العربية والأنجليزية متعاونتين على مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظا لأستقلال البلاد العربية وتأمينا لا فضليه انجلترا فيها على أن يكون التعاون فى كل شىء فى القوة العسكرية والبحرية والجوية .

— ٢ —

وصل الرد البريطانى فى ٢٤ أغسطس ١٩١٥ وكان غامضا يتهرب من مسألة الحدود . فأرسل الشريف حسين بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٤٥ مذكرة أخرى فجاء رد « مكماهون » فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥ .

ومما جاء فيها قوله :

« ... أن انجلترا مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة .

« ... أن مرسين واسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة غربى دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن ان يقال أنها عربية محضة فيجب أن تستثنى من الحدود على أساس هذه التعديلات على أن لا ينقض شيئا من اتفاقنا مع الزعماء العرب .

« أما الأراضي التي تستطيع انجلترا أن تعمل فيها بمـــلء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فان لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيـكم التأمينات التالية جوابا على كتابكم « ... أن انجلترا مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي أقترحها شريف مكه.

وتحمى انجلترا الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها وتقدم انجلترا كل مساعدة أو تضحية تلزم . وتعاونهم في تشكيل أفضل الحكومات في مختلف البلاد العربية .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان العرب يوافقون على الأختصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا وحدها .

أما فيما يتعلق بولايتي البصره وبغداد فان العرب يعرفون أن قرار انجلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلا إداريا خاصا ومرفقا خاصا للمحافظة على تلك الأنحاء من الأعتداء الخارجي .

- ٣ -

وأرسل الشريف في ٥ نوفـــبر ١٩٤٥ يتنازل عن ضم مرسين وأدنه إلى المملـكة العربية ويقول : « عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا هي حليفتهم لا يتدعهم وحدهم عند أنتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح . وتمد يدها لمساعدتهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة » .

— ٤ —

وأرسل مكماهون في ١٣ ديسمبر ١٩١٥ يقول :

« أن حـكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطي كل المساعدات التي في وسعها للمملـكة العربية ولـكن مصالحها في ولاية بغـداد تتطلب إدارة ودية ثانية .

ولسنا نرى أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة . وأن تحثوهم على أن لايمدو يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان .

وأن حكومة بريطانيا قد فوضت إلى أن أبلغكم ودولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا لاتنوى ابرام أى صلح كان ، إلا إذا كان من ضمن شروطه سياسية حرية الشعوب العربية . »

— ٥ —

وأرسل الشريف فى أول يناير ١٩١٦ خطابا إلى مكماهون موافقا على ماجاء فى خطابه السابق . وأرسل مكماهون إلى الشريف فى ٣٠ يناير ١٩١٦ « الآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات « فاننا مسرورنا للحركة التى تقدمون عليها لأقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة اعدائنا ... » .

— ٦ —

وأرسل إلينا مكماهون فى ١٠ مارس ١٩١٦ يقول : « أن حكومة جلالة الملك قد صادقت على جميع طلباتكم وأن كل شىء رغبتم الأسراع فيه وفى إرساله فهو مرسول لكم مع حامل هذا والأشياء الباقية ستحضر كل سرعة إلى مكه . وتبقى فى بورتسودان » تحت أمركم لحين أبتداء الحركة وأبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرنا ثم بالمواقع التى يقتضى سوقها إليها والوسائط التى سيكون حاملوا الوثائق لتسليمها أياهم

— ٧ —

ووقع مكماهون والشريف حسين أتفاقية أهم ماجاء فى بنودها :

١ — تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الأستقلال فى داخليتها وخارجيتها على أن تكون حدودها شرقا من خليج فارس ومن أبواب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعة من الدجلة عند مصبها فى بحر فارس عـــدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد الحـكومة رعاية المعاهدات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدرد فى رعاية وصيانة تلك الحدود وتلك الأتفاقية .

٢ — تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الحـكومة وصيانتها من أى مداخلة كانت وبأى صورة فى داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى نقد بأى شكل يكون حتى ولو وقع خصام داخلى من دسائس الأعداء قد يساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع هذه الثورات الداخلية وتكون مدتها محدودة أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها الداخلية .

٣ — تكون البصرة تحت أشغـال بريطانيا لحين يتم للحكومة الجديدة تشكيلاتها المـادية ويعين من جانبها مبلغا من النقود ترعى فيه حال الحـكومة العربية التى هى قاصرة على حصة بريطانيا وتلك المبالغ تكون فى مقـابلة تلك الأشغال .

٤ — تتعهد بريطانيا بالقيام بـكل ما تحتاجه الحـكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب .

٥ — تتعهد بريطانيا مدة الحرب بقطع الخط الحديدى من مرسين أو ماهو منـاسب من النقاط فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعـدم استعدادها .

هذه أهم نصوص المعاهدة التى وقعتها بريطانيا مع الشريف حسين والتى أعلنت على أساسها الثورة العربية الكبرى ثم تجاهلتها بريطانيا بعد الحرب وتنكرت لها فقد أعلن الشريف حسين الثورة وأصدر منشوره إلى العالم الأسلامى فى ٢٦ يونيو ١٩١٦ وبدأت الحرب بينه وبين الأتراك بأن أطلق فى هذا اليوم رصاصة من بندقيته على المعسكر التركى إعلانا ببدء الثورة .

وقد دعا الشريف حسين العناصر العربية فى أنحاء السلطنة الى الألتحاق به وبرفاقه . وخرج من دمشق لفيف من السوريين بعد اتفاقهم مع فيصل بن الحسين وتدفق المتطوعين من كل فج وصوب على الحجاز الذى أصبح مهد الثورة .

وقد تشكل مجلس الثورة من الحسين وأبنائه على وعبد الله وفيصل وزيد وجعفر العسكرى ونورى السعيد وفوزى ونسيب البكرى وعبد الرحمن شهبندر وأبناء العسلى والمؤيد وعزيز المصرى .

وتطوع شباب العرب العراقيين والسوريين واليمنيين والفلسطين وهاجروا إلى الحجاز واشتركوا فيها ولكن الأنجليز لم يكونوا جادين فى وعدهم ولامخلصين لما أتفقوا عليه لأنهم بعد أن اطمأنوا إلى إعلان العرب لعدائهم للترك حصروا الثورة فى دائرة ضيقة لاتتعدى الحجاز نفسة .

ومن العجيب أنه فى نفس الوقت الذى كانت بريطانيا تجرى مكاتباتها مع الشريف حسين كانت تعقد اتفاقية (ساكس بيكو) فى نفس العام (١٩١٦) مع فرنسا وروسيا بتقسيم مناطق النفوذ فى أملاك تركيا بين الدول الثلاث .

وأمدت بريطانيا الشريف حسين ببعثة عسكرية وكميات وافرة من الدخائر كما أمدت فيصل بالكابتن لورنس الذى كان يرى فى فيصل زعيم النهضة العربية.

وأصبحت البعثة العسكرية هى الهيئة الأستشارية لجيش الشمال الذى يقوده

فيصل والذى كانت خطته أن يتجه إلى العقبة . كما كان هناك جيش الأنجليز بقيادة الماريشال اللنبى يمكن لمركزه فى فلسطين ثم تم الأتفاق بين انجلترا والشريف على إندماج الجيشين .

وكانت هناك قوة بريطانية تعمل فى العراق لإجلاء الترك . وذلك محافظة على المصالح البريطانية فى الهند . كما أرسلت حملة قوية إلى البحرين . وتمكن جنرال مود من أقتحام بغداد وأحتلالها قبل وصول فيصل إلى العقبة بشهر واحد .

وفى نفس الوقت أقام الأنجليز والفرنسيون العقبات فى وجه الجيش العربى عملا على الحد من توسعه ومحاولة حصره فى الحجاز حتى لاتتسع الحركة العربية . وكان من نتيجة ذلك أن أسرع اللنبى بالزحف وأستولى على القدس .

ولم تلبث بريطانيا إن خذلت الشريف حسين وتوقفت عن إمداده بالقوى والمعدات .

وظل العرب يجاهدون ثلاث سنوات كواملقا أن دخلوا سوريا وفلسطين بعد العناء الشديد وأجه اللورد اللنبى قائد الجيوش البريطانية الأمير فيصل بالواقع الأليم وأعلن هناك معاهدة بين انجلترا وفرنسا لتقسيم سوريا وفلسطين والعراق.

ولم يجد احتجاج فيصل الذى سافر إلى مؤتمر الصلح ليقدم احتجاجه وقد أذن له بعد جهد فى اسماع صوته للمؤتمر .

وقدسجل أمين السعيد فى كتابه «الثورة العربية» أن طمع الأنجليز فى إحتلال فلسطين والعراق وطمع الفرنسيين فى احتلال الشام جعلهم يقاومون تقدم العرب ويعملون على تضيق الدائرة عليهم فلا يتجاوز الحجاز لولا ميل الأمير فيصل الشديد إلى انقاذ الشام والحاح جيشه عليه وتهديده بالعصيان لما أجازوا له التحول

إلى الوجه ولما وصل العقبه ولظل يدور فى الدائرة الضيقة التى رسمت له وهى الحجاز .

ويقول الأمير فيصل فى حديث أدلى به إلى جريدة المفيد الدمشقية فى ١٥ فبراير ١٩٢٠ « لما كنت فى لندن قدمت صورة من هذه المعاهدة التى تقررت مع الأنجليز إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطانى فانكرت بريطانيا وجودها كل الأنكار وقالت أنه لايوجد عهد ولا كتاب ينطبق مع هذا التصريح .

ولم تلبث انجلترا أن اجازت لفرنسا باحتلال سوريا وأعلنت تصريح بلفور بالسماح لليهود بانشاء وطن قومى فى فلسطين .

ونفذت فرنسا اتفاقية سكس باكو وبدأ اليهود فى تنفيذ وعد بلفور . ولم يتمكن العرب من تنفيذ الوعد الذى قطع لهم بانشاء الدولة العربية وأعتبر البريطانيون اتفاقهم مع الشريف حسين قصاصة ورق وقدموا له مشروع معاهدة لانعترف به إلا ملكا على الحجاز .

وكان هذا تكذيبا قاطعا لتصريحات لورنس التى طالما أعلنها وهى أن انجلترا ستحافظ على كلمتها لفظا ومعنى » .

وأستفحل الخلاف بين انجلترا والشريف . وكان هذا الخلاف قد بدأ على أثر اعلان الثورة العربية عندما رفض الأنجليز أن يطلق الشريف على نفسه ملك العرب وكان ذلك فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٦ .

وزاد الموقف حرجا بعد تمزق الدولة العربية بين فرنسا وبريطانيا وقيام الوطن اليهودى . وحاول الأنجليز تصفية مابينهم وبين الملك حسين بمعاهدة رفضها الشريف لأنها تتضمن الأعتراف بالحالة القائمة فى فلسطين وسوريا .

وأعلن الشريف حسين رايه فى مسألة فلسطين والصهيونية بدون تحفظ ودعا

العرب إلى مقاومة وعد بلفور فى جريدة القبلة التى كان يصدرها فى مكة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٢ .

وفى ١٠ ديسمبر ١٩٢٣ أعلنت بريطانيا أن المفاوضات الدارة بينها وبين ملك الحجاز قد أنتهت وأن انجلترا تخير العرب بين أمرين : فإما أن تدخل فلسطين فى المعاهدة وتنص فيها على قبول وعد بلفور بعد تفسيره تفسيراً رسمياً بأنه لاينطوى على إنشاء حكومة يهودية فى فلسطين التى تكون موطنا عاما لليهود وأما إخراج فلسطين نهائيا من المعاهدة والسكوت عنها وأنشاء الأتحاد العربى من العراق وشرق الأردن والحجاز .

ولكن الشريف رفض ذلك وطالب بمفاوضات جديدة . وأجابت بريطانيا بأن معتمدها فى جده هو الواسطة المثلى للمخاطبات بين الحكومتين .

وسافر مندوب الشريف إلى لندن فى يوليو ١٩٢٣ وعاد إلى مكة فى يونيو عام ١٩٢٤ ثم عاد إلى لندن مرة أخرى فى سبتمبر ١٩٢٤ ثم وصلت الأنباء قبل أن يصل إلى لندن بمهاجمة السعوديين للحجاز واحتلالهم الطائف . وقد تنازل الملك حسين عن العرش وأذاعت لندن « أنه بالنظر إلى تنازل الحسين عن الملك فليس فى وسع الحكومة البريطانية أن تواصل المفاوضة .

وقد عملت بريطانيا على ترضية الشريف وأبنائه ووصل الشريف إلى عمان وفى عمان علم بأن الأتراك قد الغوا الخلافة فسعى الأمير عبد الله لأخذ البيعة لأبيه بالخلافة وتمت البيعة فى ١٢ مارس ١٩٢٤ .

ودخل السعوديون الطائف فى ٧ سبتمبر ١٩٢٤ بعد مبايعة الحسين بالخلافة بثمانية أشهر .

وكتبت جريدة التيمس يقول « لو وقع الشريف حسين المعاهدة لانقذته انجلترا من أبن السعود » .

وقد أخذ المؤرخون على الشريف استئثاره بالحكم وتفرده بالعمل ومحاولته ابقاء القديم على قدمه وتجاهله روح العصر واهماله اعداد القوى والمعدات ·

ولعل خطاب الشريف الى بريطانيا فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٣ بعد رفضه توقيع المعاهدة يعد وثيقة تاريخية تصور نتائج الثورة العربية تصوراً صحيحاً « نهضت مع شعبى بعد نيل ضمانات تضمن مصالحهم ومستقبلهم وخضت غمار القتال جنبا الى جنب مع الحلفاء . وكنت وطيد الأمل بأننا نحارب فى جانب « شرف » الأمة الأنجليزية فأقدمت على خوض القتال ولنا ملء ثقة فى أن كفتى فيه كانت راجحة ... فلبى العرب دعوتى فى العراق وسوريا وفلسطين . وكانت بيدى وثائق الساسة المسئولين وتصريحاتهم الرسمية الخصوصية التى فاهوا بها على رءوس الأشهاد وكلها تجمع على أن العرب سيفوزون بوحدتهم وأستقلالهم ·

وقد أبى العرب صلحاً منفرداً يعقد مع العدو الذى عرض عليهم أن ينيلهم استقلالهم وقطع لهم المواثيق والضمانات المؤكدة · فلهذه الأسباب ألفت نظر انجلترا الى ما حل بحلفائها العرب ، فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة وأخذ العالم الإسلامى وقومى يرميانى بتهمة إنى بعت بلدانهم لبريطانيا لئلا يقع عليهم لوم اذا ماتوسلوا بوسائل أخرى الى درء هذا السود تاريخهم المجيد غير مكترثين للعواقب مهما كانت . »

وقد اعترف المراقبون والمؤرخون بأن نصيب العرب فى معاونة الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى كان عظيما وخطيراً وأنه هو الذى رجح كفة النصر لهم·

* * *

أما الأسرة الهاشمية فقد تولى « الملك » على عرش الحجاز حتى أخرجه السعوديون بعد احتلالهم لمكه . وتولى الأمير عبد الله عرش شرق الأردن . وتولى فيصل

عرش العراق . بينما نفى الشريف حسين الى جزيرة قبرص ثم أعيد الى الأردن قبيل وفاته .

وأصدرت بريطانيا تصريحا رسميا فى ٢٥ مايو ١٩٢٣ تعترف فيه بوجود حكومة مستقلة فى شرق الأردن برئاسة صاحب السمو الأمير عبدالله بن الحسين على أن تكون حكومة دستورية تمكن حكومة جلالة الملك — أى بريطانيا — من القيام بتعهداتها الدولية فيما يتعلق بتلك البلاد .

ثم ضمت الى الأردن العقبة ومعان . وعقدت بريطانيا مع شرق الأردن معاهدة ٢ فبراير ١٩٢٨ .

وقد أعلن الأمير عبد الله نفسه ملكا على شرق الأردن ثم وقعت حرب فلسطين وأشترك الملك عبدالله وحكومته فيها وأختير قائداً عاما للجيوش العربيه التى حاربت فى فلسطين . وتحقق للأردن ضم الجزء الواقع غرب الأردن من فلسطين بما فيه القدس وأطلق على الدولة منذ ذلك الوقت « المملكة الأردنية الهاشمية » .

وقد أغتيل الملك عبد الله وهو يصلى فى المسجد الأقصى .

وولى بعده الملك طلال بن عبد الله ولكنه لم يلبث طويلا فى دست الملك حيث اضطره المرض إلى اعتزال العرش وخلفه الملك حسين بن طلال .

وقد كان الملك عبد الله فى مقدمة العاملين على توجيه الثورة العربية فى الحجاز لصالح بريطانيا وكان الوسيط بين والده ورجال الأنجليز فى مصر فكانت المكاتبات تجرى بواسطته وكان رسل الأنجليز ينزلون على شواطىء البحر الأحمر ثم يقصدون الطائف فيقابلهم سموه ويتبادل معهم الكتب والرسائل حتى تم الاتفاق على اشتراك العرب فى الثورة الى جانب الحلفاء .

الأردن

بين حركات التحرر والرجعية

فصلت بريطانيا منطقة شرق الأردن عن أمه الكبرى «الشام» بعد الحرب العالمية الأولى وقد كانت من البلاد التى حررها جيش الثورة العربية بقيادة فيصل وهو متجه من الحجاز إلى الشام لتخليصها من الأتراك . وكان الجيش قد وصل الى العقبة فاستولى عليها فى ١٠ أغسطس ١٩١٧ حيث دارت معارك فى هذه المنطقة أنتهت باستيلاء الجيش العربى عليها فى سبتمبر ١٩١٨ كما أشترك مندوبو الأردن فى المؤتمر السورى الذى أعترف بحكومة فيصل وبالأردن كجزء من سوريه غير أن الأنجليز كانوا قد أعدوا العده لفصل هذا الجزء عن سوريا وعن فلسطين وإقامة امارة خاصة فيه حيث كان الأمير عبد الله بن الحسين الذى قام بدورهام لحسابهم فى هذه الحرب مع العرب ينتظر أن يولّى عليها . وحيث كانت بريطانيا تعد خطة لإنشاء فيلق عربى فيها بقياده قائد بريطانى وذلك باعتبارها منطقة استراتيجية هامه فى طريق الحجاز وفلسطين والعراق . وقد قالت بريطانيا أنها فى حاجة ماسة إلى هذه الأمارة لتقوم سداً فى وجه المملكة السعودية ولتكون صلة مع العراق واستطاع البريطانيون بث الدعوة بين الأعراب لتأليف وفد يدعو بريطانيا للانتداب على بلادهم . وقد اتخذت بريطانيا من ذلك ذريعة لإعلان « شرق » الأردن منطقة داخلة فى نفوذهم وإنشاء إدارة لها منفصلة عن فلسطين .

وفى سبتمبر ١٩١٩ وبعد سقوط الحكومة التى أقامها فيصل فى الشام

اتجه الأمير عبد الله إلى عمان . بعد أن سبقه نورى السعيد حيث قام بدعاية له لرسمه أميراً للمنطقة . وتم الاتفاق بين عبدالله وبين تشرشل وزير المستعمرات البريطانية الذى كان يزور فلسطين إذ ذاك — على الوضع الجديد الذى رمى إلى ربط شرق الأردن ببريطانيا بواسـطة مندوب بريطانى فى عمان وإنشاء مراكز للطيران فى عمان والجيزة .

وقد تم تولى الأمير عبد الله على الأردن فى ١٢ يوليو سنة ١٩٢٠ وقامت أول حكومة بها فى ٨ مارس ١٩٢١ .

وقد تأيد هذا بمعاهدة عقدت عام ١٩٢٨ ثم عقدت معاهدة تحالف فى مارس عام ١٩٤٦ مدتها ٢٥ سنة ثم عدلت عام ١٩٤٨ فمكنت للأمير أن يصبح ملكا للمملكة الأردنية الهاشمية . ونصت هـذه المعاهدة على حق بريطانيا المطلق فى إقامة قواعد عسكرية فى الأردن دون أى قيد .

وفى الأردن أنشئت بريطانيا الفيلق العربى الأردنى بقيادة جون جلوب الظابط البريطانى . وقد جعلته بريطانيا سوطا مسلطا على كل حركة تحريرية فى المنطقة . حيث استطاعت به أن تقمع ثورة العراق بقيادة رشيد الـكيلانى فى عام ١٩٤٣ وأن تؤدى به دور الخيانة لفلسطين فى إبان معركتها مع الصهيونيـة عام ١٩٤٨ إذ طمع الملك عبد الله وهو القائد الأعلى للجيوش العربيـة السبعة التى دخلت فلسطين لمحاربة اليهود فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ — فى احتلال الضفة الغربية لنهر الأردن . ووقعت الهدنة فى رودس بين الأردن وإسرائيل (فى إبريل عام ١٩٤٩) وتلا ذلك إعلان ضم المنطقة التى كانت تحتلها القوات الأردنية من فلسطين مخالف بذلك قرار الدول العربيـة الذى يرمى إلى أن لا تسمى أى دولة عربية إلى كسب

خاص فى فلسطين وأن تعتبر الأجزاء التى تحتلها الجيوش العربية من فلسطين أمانة حتى تردها إلى أهلها .

ويذكر جلوب فى مذكراته أن الفيلق العربى قد حارب سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٤٨ بوصفه أحد جيوش الحلفاء ضد اليهود كما ذكر أن الأمير عبد الله أبرق عام ١٩٣٩ إلى بريطانيا بوضع بلاده ومواردها وجيشها فى خدمة الحلفاء . كما ذكر أن الأمير الهاشمى بمجرد أن أعلنت العراق الحرب على بريطانيا أبرق إلى بريطانيا مكرراً عرضه الأول وسار الفيلق العربى مع الجيش البريطانى مما ساعد فى الاستيلاء على بغداد . كما غزا سوريا .

كما أشار جلوب إلى أنه عند ما تخلت بريطانيا عن انتدابها على فلسطين كانت الأرض المخصصة للعرب بموجب قرار التقسيم تجاور أغلبها حدود شرق الأردن . وأن الحكومة البريطانية استشيرت فى ضم هذه الأرض إلى الأردن فلم تمانع وصدرت الأوامر للفيلق العربى فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ بأن يجتاز نهر الأردن وأن يحتل هذا الجزء من فلسطين الذى خصصه للعرب قرار الأمم المتحدة .

وعند ما أعلنت الهدنة فى ربيع عام ١٩٤٩ كانت المناطق الفلسطينية الوحيدة التى ظلت للعرب هى تلك المناطق التى دخلها الفيلق العربى وقد كان الملك عبدالله إذ ذاك القائد العام للجيوش العربية السبعة وقد خالف قرار الدول العربية بضم هذه المناطق من فلسطين إلى بلاده مما أدى إلى قيام أزمة خطيرة وأثار سخط العرب .

كما أشار جلوب فى مذكراته إلى أن الملك عبد الله كان يعتقد أن التحالف مع بريطانيا هو أسلم وآمن وسيلة لتأمين سلامة بلاده . وكان يقول ذلك جهراً وعلانية وبصراحة تامة فى الأيام الحالكة وأيام الرخاء وقد أدى هذا إلى اتهامه بأنه خادم الامبراطورية البريطانية وخائن لبلاده . وقد نسى جلوب باشا أن يذكر

كيف خان الملك عبدالله العرب فتنازل عن اللد والرملة وسحب جيوشه منها فجأة وسلم أهلها إلى غدر اليهود الذين قتلوا منهم عدداً كبيراً . وإن كان قد أشار إلى مقتل الملك عبدالله وهو فى طريقه إلى بيت القدس حيث وجهت اليه رصاصة من أحد سكان المدينة عام ١٩٤٦ وكان ذلك بسبب موقفه من معركة فلسطين . إذ اتهم بأنه يدبر صلحا منفرداً مع اليهود . ثم حكم طلال بن عبد الله الأردن غير أنه اضطر إلى التنازل عن العرش لمرضه حيث تولاه حسين بن طلال . وهو فى التاسعة عشر من عمره .

وقد كان شعب الأردن قوى الإيمان بالقومية العربية . يتحين الفرص ليتحرر ويثور على الأوضاع الاستعمارية . فضلا عن أنه شهد مأساة فلسطين وشارك فيها واستقبل أضخم عدد من المخرجين العرب الفلسطينيين من وطنهم وكان الفليق العربى قد أبرز عدداً من ضباط الأحرار المؤمنين بالوطن العربى الكبير . واستطاع بالاشتراك مع مشاعر الشعب التى نمت وازادت قوة بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فى مصر حيث عمت موجة مقاومة الاستعمار كل المنطقة العربية — استطاع الجيش أن يحمل الملك حسين على عزل جلوب وإلغاء المعاهدة البريطانية والاتجاه نحو الوحدة العربية مع مصر وسوريا .

وفى أوائل عام ١٩٥٦ فوجئت الأردن بضغط بريطانى شديد يرمى إلى ضمها لميثاق حلف بغداد حيث عرضت عليه مشروع (تمبلر) وقد رفض الشعب المشروع كما رفض من قبل مشروع جونستون لتقسيم مياه الأردن مع إسرائيل .

وكانت الضفة العربية أشد مناطق الأردن حماساً للحرية والاتجاه العربى المتحرر حيث شكلت جبهة وطنية أخذت على عاتقها دفع المؤامرة الاستعمارية عن عن الأردن وتجنيبه شرور وويلات الأحلاف الأجنبية على اعتبار أن الأردن هو قلب الجبهة الفلسطينية . وكانت الثورة الأردنية ضخمة عارمة هزت الغرب .

وقد مضت هذه الروح الوطنية قوية حتى حققت جلاء القوات البريطانية عن الأردن واتفق على أن تقوم الدول العربية بدفع المعونة التى كانت تدفعها بريطانيا للأردن وقدرها ١٢ مليونا من الجنيهات .

ولكن المؤامرات الغربية استطاعت أن تحطم هذا الاتجاه وأن تقضى على هذا التيار . فحدث انقلاب أودى بالحكومة والبرلمان والأحزاب المتحررة إلى السجون والمحاكمات والمعتقلات وتسلمت دفة الحكم العناصر الرجعية المتصلة بالاستعمار والتى تجرى فى تياره وفى ظل هذا الجو الإرهابى العاصف قبلت حكومة الأردن مبدأ إيزنهاور .

ولم تكد تعلن فى مصر وسوريا قيام الجمهورية العربية المتحدة حتى جرت المباحثات بين بغداد وعمان لإعلان اتحاد فيدرالى بينهما أعلن فى ١٦ فبراير ١٩٥٨ باسم الاتحاد العربى استهدف مقاومة الجمهورية العربية المتحدة ومحاولة تجميد مشاعر الوطنيين فى العراق والأردن .

دماء أراقهـا الانجليز . تلك هى دماء الشهداء الذين ماتوا فى سبيل بلادهم . فى سبيل تحرير أوطانهم لم يكن الـكثير من هؤلاء الأبطال من ذوى الأسماء اللامعة . وإنما كانوا جنوداً مجهولين . . يموتون فى سبيل الفـكرة دون أن يعرف أحد أسماءهم أو جنسياتهم .

وكان الإنجليز فى ذلك غاية فى الظلم والعدوان .

نحن فى العراق اليوم : العراق الذى لم يتم شعبه عن حقه فى الحـــرية يوماً واحدا ، والذى جالد الانجليز ، وقدم قرابين من الدم والشهادة ، طوال تاريخه القديم منذ الحرب العالمية الأولى . .

ما أن دخلت تركيا الحرب فى صف ألمانيا ١٩١٥ حتى سير الانجليز الجيوش إلى العراق فاحتلوا البصرة ، وأنزلوا فيها جنودهم بحماية أسطولهم .

غير أن العرب قاوموا وقاتلوا قتال الأبطال وحاصروا جيوش الانجليز (فى كوت الامارة) حصاراً عنيفاً فقاتلوا وأراقوا الدماء . ولـكنهم لم يوفقوا إلى إنقاذ جيشهم فاضطر إلى التسليم فأرسل الأتراك قائدهم إلى الاستانة حيث ظـل أسيراً طوال سنى الحرب . . .

وهنا أذاع الانجليز كاذبين ومبطلين — أنهم إنما جاءوا منقذين ومحررين . ولم يجيئوا فاتحين ولا مستعمرين .

وكذبوا أيضاً حيث قالوا انهم يحاربون باسم حليفهم وصديقهم شريف مكة . وأنهم يرمون إلى إجلاء العدو العثمانى عن الأرض العربية .

وانتهت الحرب ووقف أهل العراق ينتظرون ماسيفعل الإنجليز .

غير أن الانجليز — وهم غاية في الظلم والاستبداد ، نسوا عهدهم للعرب بعد أن كسبوا الحرب بفضلهم . واستتب لهم الأمن فأنشأوا نظام حكم شاذ ، يقضي بالحاق العراق بحكومة الهند ، أي أن تكون مستعمرة لمستعمرة .

وهنا ثارت في نفوس العراقيين معاني الكرامة . فدفعتهم إلى الثورة العاصفة المدمرة التي أقضت مضاجع الانجليز سبعة شهور وكبدتهم من الخسائر مئات الألوف من الجنيهات .

وبدأ العراقيون جهادهم بالانتقام من الكابتن (مارشال) فاغتالوه .

كان هذا الكابتن يتصرف تصرفات غاية في الشذوذ . لأيلام أهل النجف والإساءة إلى كرامتهم . فكم عذب من أبريائهم وأذاقهم الآلام وقتل منهم غيلة من قتل واسترخص دماء العرب .

وتألفت عصابات ضخمة ، ونشطت الجمعيات الوطنية العربية للعمل . وأخذ الضباط العراقيون يمدون وسائلهم سرا لإضرام نار الثورة .

وألف جميل المدفعي عصابة قوية قادها بنفسه وزحف بها لمنازلة الإنجليز . واستفز القبائل العربية النازلة في نصيبين داخل الحدود التركية .

وانطلقت الرصاصة الأولى من الرميثة على الفرات ثم اتسع نطاقها . وشملت جميع أنحاء البلاد .

وكانت المعارك بين الوطنيين والإنجليز دامية سال فيها الدم العربي الشرقي مدراراً .

وخسر العرب في هذه المعارك ٨٤٥٠ قتيلا وجريحا ، ودام كفاحها طويلا .

صمد فيه العراقيون صموداً عجيبا وشعر الإنجليز بقوة العراقيين وصدق إيمانهم بحقهم فى الحرية .

بدأت الثورة فى الفرات فى ٢٠ يونية عام ١٩٢٠ وسرعان ما امتدت إلى بغداد وكربلاء والنجف ونسف الوطنيون جسر الفرات وقطعوا الاتصال بين شقى النهر .

ولم يجد الإنجليز بدا من إحراق قرية « الرميثة » فهاج العرب لذلك وهاجموا القوة وحملوا على الخنادق التى تحصنت فيها الحامية حول الرميثة فقتلوا وجرحوا فارتدت القوات إلى الداخل وتحصنت ولم تلبث كتائب الوطنيين أن قطعت المؤن والطعام عن القوات البريطانية حتى اشتدت المجاعة بينهم فهجموا على الأسواق ونهبوا منها الكثير من المؤن .

واضطروا تحت ضغط الوطنيين إلى حفر الآبار للاستقاء منها بعد أن صعب عليهم الوصول إلى نهر الفرات .

وكانوا ينقلون طعامهم بواسطة القطارات التى كان الوطنيون يوالون مهاجمتها ونسفها .

كانت القيادة البريطانية قد سيرت قوة من الحلة إلى الكفل تتألف من آلاى وسريتين ثم أخذت تحفر الخنادق فى معركة الرستمية ... ثم هاجم الوطنيون القوات البريطانية المسلحة فادالوامنها وفقدت بريطانيا ٣١٨ جنديا وأسر العرب ١٦٠ آخرين .

ووقع صدام مسلح عند الديوانية ، فقد هاجم الوطنيون قطارا مسلحاً وظل البريطانيون يصلون المهاجمين ناراً حامية ومع ذلك فقد ظلوا يتبعون القطار حتى

بلغ جسر خان جدول حيث عسكر به إلى الصباح .

وفى خلال الليل خرب الثوار ٣٠٥٠ ياردة من قضبان السكة الحديد ، فلم يتمكن القطار من المسير .

واشتبك الوطنيون مع قوة القطار فى معركة خسر فيها الوطنيون مائة من الشهداء وخسر الإنجليز ضعف الرقم .

وواصل الوطنيون نضالهم فهاجموا محطة الخضر فى ١٢ أغسطس وتبادلوا إطلاق النار مع البريطانيين . واشتركت الباخرة « كون افلاى » وكانت واقفة على الطيبة قرب شاطىء النهر — فى إطلاق النار على الثوار الذين هجموا عليها ووالوا ضربها بالرصاص حتى فتكوا برجالها جميعا .

وكانت الطائرات توالى نقل أكياس الدقيق فقنص رجال الثوار إحدى الطائرات فهوت وتحطمت وقتل قائدها .

وغادرت الرمادى يوم ١٥ أغسطس ثلاث بواخر تحمل المؤن والعتاد إلى ضاحية الفالوجة وما كادت تبتعد خمسة أميـــال حتى فاجأها الثوار بنيرانهم وظل إطلاق النار سجالا بينهم وبين البواخر حتى أصابوا قائدين من قوادها وواصلت الباخرة المسلحة إطلاق النار حتى نفذ عتادها ، فهجم عليها نحو ٥٠٠ من الوطنيين . وأضرموا فيها النار .

كان لهذا الصراع العنيف أثره فقد ضعفت بريطانيا وسلمت للعراق بحقه فى أن يكون دولة مستقلة لها عرش وحكومة وبرلـان ومضى العراق يجـاهد على طريقته، طريقة الانتظار والترقب فإذا جاءت الفرصة اقتنصها ولم يدعها تفلت .

وظل العراق يترقب هـذه الفرصة ، التى جاءت عند ما أعلنت الحرب العالمية الثانية .

وتبلورت الخصومة بين العراق وبريطانيا ، فى هـذه المعركة الوطنية الخالدة فقد وقفت العراق كلها من وراء رشيد ، وأيدته واستجابت له ، وقدمت دماءها مرة أخرى على مذبح الوطنية والحرية . واسترخصت التضحية والفـداء من أجل الحق الذى آمنت به .

وكانت هـذه الحركة مرتبطة إلى حد كبير برغبة شعب العراق فى تحرير فلسطين ، فقد وقف العراق إلى جوارها منذ قامت ثورتها عام ١٩٣٦ ، ولم يتوانى عن مد يد المساعدة إليها من مال ورجال وعتاد ورجال فخصصت لها ١٠ آلاف جنيه للصرف على المتطوعين كما قدم الجيش العراق الأسلحة والذخائر للفلسطينيين .

ولما انتهت الثورة لم يجد مجاهدو فلسطين ملجأ لهم إلا العراق .

وتدخلت بريطانيا فى شئون العراق ، على صورة جريئة ، بعد إعلان الحرب الثالثة وحاولت أن تلغى صفقة الأسلحة التى اشتراها العراق من اليابان وطالب بذلك طه الهاشمى .

ثم توالت الأعمال العدوانية وكان مقتل الملك غازى من الأسباب التى أدت إلى توتر العلاقات . وقيام المظاهرات فى طول البلاد والتى ذهب ضحيتها القنصل البريطانى فى الموصل . وأخذت بريطانيا تفرض سـلطانها فتزج بالمئات داخل السجون والمعتقلات ، وقيل إنه كان للصهيونية يدا فى مقتل الملك .

كما طلبت طرد مجاهدى فلسطين . وكان مفتى فلسطين وأعوانه قد لجأوا إلى العراق .

ورفض « رشيد الـكيلانى » قبول مطالب بريطانيا بعد أن بسطت يدها على البصرة وكانت تتلخص فى حل فرق الجيش العراقى وإبقاء فرقة واحدة تعمل

تحت إشراف الإنجليز الحربي ، وتخويلها الحق في استعمال مطارات العراق . . فلما أصر الكيلاني على الرفض أقصاه الإنجليز وجاءوا بطه الهاشمي الذي أذعن لمطالب الإنجليز وهنا بدأ الجيش يتدخل في الأمر .

وهنا تقدم العقيد آن صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وطلبا من رئيس الحكومة توقيع خطاب استقالته فوراً .

وكلف الجيش رشيد الكيلاني بتشكيل الوزارة وأطلق عليها حكومة الدفاع الوطني ورفضت حكومة الكيلاني الاستجابة لمطالب الإنجليز ، وأيدها مجلس النواب .

ورفض الكيلاني السماح بإنزال قوات بريطانية أخرى في أرض الوطن وهنا بدأت علامات الخطر ٠ إذ انسحب الجيش البريطاني من المدن العراقية ولجأ إلى المعسكرات البريطانية .

وقد أرسل العقيد فهمي سعيد خطاباً إلى القائد البريطاني بأن الجيش العراقي سيطلق مدافعه إذا حاولت إحدى الطائرات البريطانيه التحليق في الجو أو بدت أي حركة من القوات البريطانية وتدخل السفير فطلب من رشيد الكيلاني أن يسحب القوات العراقية من منطقة الحبانية فكان أن رد الكيلاني بقوله : إننا أصحاب البلاد ولنا حق تدريب جنودنا في أي مكان نختاره ٠

وعلى أثر ذلك هاجمت القوات البريطانية معسكرات الجيش العراقي متذرعه بالإنذار فواجهها العراقيون . واندلعت الحرب .

وانضم رجال البوليس إلى الجيش ليعملوا معا في ميدان القتال ٠ وبذل رجال العشائر في هذه الحرب جهداً جبارا . إذ قدموا شبابهم وأسلحتهم ومعداتهم .

وبذل الشباب من دمه فى هذا الصراع . وجاد الأهالى بالأموال والهبات •

ووجهت قوات هندية لمقاتلة أهل العراق . فرفضت هذه القوات أن تقاتل .
ثم لم تلبث بعض هذه الفرق أن انضمت إلى العراقيين ووقفت تحارب الإنجليز .

وحالت انجلترا دون وصول مساعدات الدول العربية إلى العراق .

وظل الجيش العراقى يقاتل الإنجليز فى قوة وعنف بالرغم من الوساطات التى بذلت لإيقاف القتال والتفاهم.

وفكر العراق فى فتح جبهة جديدة للقتال فى فلسطين ، يديرها من بغداد حتى يشغل القوات البريطانية ويفرق جيوشها .

غير أن القوات تضاعفت وأخذت تتدفق إلى داخلية البلاد وتغمرها تدريجيا حتى سدت جميع المنافذ .

وظل العراقيون يدافعون عن كل شبر ، ولكن لم تلبث القوات البريطانية المصفحة والطائرات المنقضة أن زحفت على بغداد فى ٣١ مايو سنة ١٩٤١ واحتلتها من جديد •

وكانت وطنية زعماء الجيش صلاح الدين الصباغ محمود سالمان ، وفهمى سعيد ويونس السبعاوى هى القوة التى واجهت الإنجليز وحاربتهم ، ووقفت فى وجوههم . . فلما التجأ رشيد الكيلانى وأصحابه إلى إيران لم يلبثوا تحت ضغط الظروف أن يطرقوا أبواب روسيا ثم سمح لهم بدخول تركيا ، وقبضت بريطانيا على زملاء الكيلانى ونفتهم إلى رودسيا ، ومهدت السبيل لإعدام قوادهم وزعمائهم فانفذ حكم الإعدام فى محمود وفهمى ويونس فى ٥ مايو سنة ١٩٤٢ أما رشيد فقد توجه من تركيا إلى إيطاليا ثم المانيا ثم الحجاز .

ولما كانت ثورة رشيد الكيلانى من الحركات الضخمة فى مقاومة سلطات الاستعمار البريطانى فى العالم الإسلامى فقد أفردنا لها فصلا كاملا •

العراق وثورة رشيد الكيلانى

يتشابه تاريخ العراق قبل الحرب العالمية الأولى مع تاريخ الأمة العربية . كانت تركيا العثمانية تسيطر عليه . وقد حارب العراقيون فى سبيل استقلالهم وحريتهم حروبا شهدت لهم بالشجاعة الفائقة . وقد قاسى فى خلال الحرب العالمية الأولى نفس المتاعب التى قاستها سوريا . فقد أعدم الجنرال نور الدين باشا قائد القوات التركية رمياً بالرصاص الفا وخمسة وخمسين مواطنا حرا من المجاهدين .

وقد عبأ الضباط الوطنيون فى سوريا الشعور الوطنى فى العراق . وكانت بريطانيا قد بعثت إلى العراق « بيرسى كوكس » داهية البحرين الذى كان ملما باللغة العربية ولهجات البدو احتلت بغداد فى ١١ مارس عام ١٩١٧ بعد حروب دامية بين الأتراك والإنجليز استمرت ثلاث سنوات . وأذاع الجنرال مور منشورا أشار فيه إلى أنه جاء محررا من الترك لا غازياً . وقد أوهم الإنجليز العراق بأنهم إنما يحاربون لتحرير الشعوب المستضعفة وتشجيع الأمم التى تحكمها تركيا إلى إنشاء حكومات وطنية فى سوريا والعراق .

فلما انتهت الحرب العالمية حصلت بريطانيا على سلطات الانتداب فى العراق فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠ .

وكان ويليام ويلكوكس قد أعلن أنه سيبحث مشروعات الرى فى العراق وقدم مشروعاً يتطلب ١٥ مليونا من الجنيهات .

وكان الاتجاه البريطانى يرمى إلى إلحاق حكومة العراق بحكومة الهند وأقام الإنجليز حكومة عسكرية على رأسها الكولونيل ولسون وعينوا حكاماً

عسكريين في كل المدن العراقية وجلبوا معهم موظفين من الهنود . وبدأت خطة من الضغط والكبت تنفذ بصورة مزعجة مما عجل بقيام الثورة العراقية واندلاعها في ٣٠ يونيه ١٩٢٠ .

وكانت المعارضة للحكم البريطاني قد ظهرت في أوائل عام ١٩١٩ . وكان مجموعة من الضباط العراقيين قد اتخذوا دمشق مركزا رئيسياً لنشاط الجمعيه وكأن أول هدف للجمعية هو استقلال العراق استقلالا تاماً . وكان هؤلاء الضباط من تلاميذ عزيز المصري الذي ألف منهم حزب العهد السري .

وقد قابلت بريطانيا الحركة الوطنية باضطهاد زعمائها واستعمال منتهى الشدة وهنا ظهرت القومية العراقية كحركة سياسية إنضم إليها العلماء ورجال الدين وتقارب علماء السنة والشيعة ورجال الدين ورجال السياسة وانضم تحت لوائها المشائر والجماهير واتسمت الحركة الوطنية في بغداد وفي أواخر شهر يوليو انفجرت الثورة عند ماعلم الوطنيون نبأ انتزاع دمشق من يد العرب ، هنالك اندلعت الثورة قوية البأس وبدأت من الرميثة .

وقد تزعم الثورة العلماء رؤساء المشائر واشتركت فيها بغداد والفرات ثم انتشرت إلى سائر الأنحاء وكان في طليعة قادتها الإمام محمد تقي الشيرازي والأصبهاني والسيد محمد الصدر وجعفر حلمي ابوالتمن وعلوان الياسري ومحمد الباقر ومحمد رضا الشبيبي .

وقد لقن العراقيون بريطانيا درساً قاسياً أجبرهم على إخلاء ريف العراق فبقوا محصورين في المدن الثلاث الكبرى وألف الوطنيون حكومات محلية واستولى الثوار على مدرستي النجف و كربلاء وهددوا مدينة الحله واضطر الإنجليز إلى إخلاء الديوان والسماوه استمرت الثورة إلى اكتوبر عام ١٩٢٠ بعد أن

تـكبد الإنجليز خسائر قدرت بنحو الأربعين مليوناً من الجنيهات ومئات من القتلى والجرحى كما استشهد من العراقين بضعة آلاف . وقد قربت الثورة من الطوائف المختلفة ووحدت بين رجال الدين والسياسة ، وكان اتجاه بريطانيا يرمى إلى أن يجعلوا رئيس الدولة الأعلى مندوبا بريطانياً « سامياً » يعاونه حكام عرب يتولون أمر الولايات من قبله ومجلس يمثل الولايات ينتخب أعضاؤه من مجالس المناطق المختلفة . ولـكن هـذه الثورة دفعت بريطانيا إلى تغيير خطتها وأقامة حكومة مستقلة يرضى عنها الشعب في ظل الاحتلال البريطاني .

ودعا برسى كوكس الثوار إلى التفاهم وسارت الخطـــوات التمهيدية فى الحـكومة المـؤقتة التى أقيمت برياسة عبد الرحمن الـكيلانى نقيب الأشراف فى بغداد ومجلس الوزراء حتى ارتقى الملك فيصل الأول عرش العراق فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٢١ وقد قيد الشعب بيعته بأن يكون ملـكا لحـكومة دستورية ديمقراطية . وقد أقيم استفتاء شعبى بشأن اختيار الملك فيصل وكان مفهوماً أن بريطانيا أعدت الخطة لذلك إعداداً كاملا بعد أن تغير الوقف فى ســوريا وقام الفرنسيون باحتلالها وكانت الخطة البريطانيــة أن تنصر عملائها الهاشميين بتولى فيصل عرش سوريا وعبد الله عرش العراق .

ولم تلبث بريطانيا أن وقعت مع العراق معاهدة فى ١٠ اكتوبر عام ١٩٢٢ وعدلت هـذه المعاهدة فى أعوام ٢٣ و ٢٥ و ٢٧ إلى أن عقدت معاهدة أخرى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠ كما عدلت هذه المعاهدة عام ١٩٤٥ وعرضت بعدهامعاهدة بورت تسموث (صالح جبر — بيفن) فى يناير ١٩٤٨ فثار الشعب عليها ورفضها وألغيت معاهدة العراق ١٩٥٥ عند ماوقعت حكومة العراق برئاسة نورى السعيد على ميثاق الدفاع عن الشرق الأوسط بين تركيا والعراق والباكستان .

* * *

وفى عام ١٩٤١ شهد العراق أخطر حدث فى تاريخه الحديث : انه الحدث الذى كان على وشك أن يغير مصير الشرق الإسلامى كله . ذلك هو ما أطلق عليه حركة رشيد على الكيلانى .

كانت مشكلة فلسطين هى أول أسباب الحركة . فقد كانت العراق مهتما بقضية فلسطين لذلك لم يكن غريباً أن تظهر بها فرق الفتوة والنجادة وتكونت أول منظمة فيها عام ١٩٣٢ كما أن قواد الجيش العراقى وهم صلاح الدين الصباغ ومحمود سالمان وفهمى سعيد كانوا خريجى دفعة واحدة من كلية استانبول الحربية مع زميلهم الحاج أمين الحسينى . وكان صلاح الدين الصباغ قائد الجيش العراقى الأعلى هو أحد الذين أسسوا جيش الفتوة لطلاب المدارس العراقية .

فلما كانت الثورة العربية فى فلسطين عام ١٩٣٦ لم تتوان العراق عن مديد المساعدة اليها من مال وعتاد ورجال . كما خصصت الحكومة العراقية ١٠ آلاف جنيه للصرف على متطوعى العراق الذين ذهبوا إلى فلسطين . كما أخذ الجيش العراقى بدوره يهرب الأسلحة والذخائر إلى عرب فلسطين أيضاً .

فلما انتهت ثورة فلسطين عام ١٩٣٩ لم يجد مجاهدوا فلسطين ملجأ غير العراق .

والمشكلة الأخرى هى اتجاه الجيش العراقى لشراء الأسلحة الحديثة من اليابان فى نظير القطن العراقى فاغضب ذلك الانجليز الذين طلبوا من الفريق طه الهاشمى الغاء هذه الصفقة .

وكان مقتل الملك غازى من أسباب توتر العلاقات بين الشعب العراقى والسلطات البريطانية إذ قامت عقب مقتله المظاهرات فى طول البلاد وعرضها وذهب ضحيتها القنصل البريطانى فى الموصل فى ١٤ إبريل عام ١٩٣٩ .

ولما تحرجت الحالة أعلنت الحكومة العراقية حالة الأحكام العرفية فى البلاد وزجت بالمئات داخل السجون والمعتقلات.

فلما وقعت الحرب العالمية الثانية بين المانيا وانجلترا . أجبر العراق على خوض غمار الحرب ضد بريطانيا . حيث اعترف بذلك أنطونى إيدن فى مجلس العموم فى ٧ مايو ١٩٤١ حيث قال « لقد بسطت قواتنا إشرافها على أهم نقطة اتصال فى الشرق وأعنى بها البصرة التى سندافع عنها بلا ريب دفاعا شاقاً طويلا . أما رشيد عالى الكيلانى فقد دفع دفعا إلى مواقف شديدة الإحراج .

وبعد أن تقدم الفريق طه الهاشمى رئيس الحكومة العراقية باستقالته إثر مصرع الملك غازى تقدم الإنجليز مرة أخرى إلى رئيس الحكومة الجديدة السيد رشيد عالى الكيلانى بمطالب جديدة علاوة على المطالب السابقة وتتلخص فى :

حل بعض فرق الجيش العراقى وإبقاء فرقة واحدة تعمل تحت إشراف الإنجليز الحربى .

تخويل الحق للقوات البريطانية باستعمال مطارات العراق ووضعها تحت تصرفهم .

منح الانجليز سلطة الإشراف على مواصلات البلاد الحديدية والبرية والجوية والبحرية وقد رفض الكيلانى الاستجابة لهذه المطالب فلما اشتد الضغط البريطانى قدم استقالته منددا بتدخل الانجليز فى شئون البلاد .

وألف الوزارة الجديدة الجنرال طه الهاشمى وهو يقدر خطورة الموقف

السياسي . وقابل توفيق السويدى وزير خارجية انجلترا المستر إيدن فى مصر فى ٨ مارس عام ١٩٤١ ثم أعلن بعد عودته تصريحاً يدل على رضاءه عن مباحثاته مع بريطانيا حيث وصفها بأنها كانت مشبعة بروح الصراحة والإخلاص !

وظهر أن المطالب الجديدة التى تقدم بها الانجليز تمس كيان الاستقلال . فأيقن الشعب والجيش بأن الحكومة الجديدة قد أذعنت لمطلب الانجليز .

ولذلك بدأ الجيش يتدخل فى الأمر . ولم يقف تدخله عند حدود المعارضة السلبية بل تقدم القائد العام للقوات العراقية العقيد صلاح الدين الصباغ ومعه زميله قائد القوات الجوية العقيد محمود سلمان ودخلا على رئيس الحكومة فى مكتبه وطلبا منه كتابة استقالته أمامهما فوراً . فكتب الهاشمى استقالته وأخذاها منه وانصرفا حيث رفعت إلى الوصى الذى رفض قبولها وترك بغداد إلى مدينة البصرة .

وباستقالة حكومة الهاشمى وخروج الوصى على العرش من البلاد . لم يجد قواد الجيش العراقى بدا من تكليف « رشيد عالى الكيلانى » بتشكيل الوزارة الجديدة فألف الكيلانى وزارته وجند فيها أمثال ناجى السويدى أبو الدستور العراقى وناجى شوكت ويونس السبعاوى وأطلق على الحكومة اسم « حكومة الدفاع الوطنى » .

وقرر مجلس الأمة العراقى تأييد حكومة رشيد الكيلانى فى موقفها كما تقرر تنحية الأمير عبد الاله عن وصايته على عرش العراق وإقامة الأمير الشريف شرف وصياً .

وهاجت الصحف البريطانية حكومة العراق الجديدة فقالت عن مفتى فلسطين . وكان لاجئا إلى العراق « أنه يتطلع لبسط نفوذه وسلطانه على العراق

وفلسطين . وأن حزب المفتى فى دمشق يعمل بنشاط فى إيران وسوريا والعراق ويقوم فى نفس الوقت بدعاية واسعة النطاق لدولتى المحور .

واجتمع كرانوالس ، السفير البريطانى بالعراق برشيد الكيلانى وأبدى له استعداد حكومته للاعتراف بحكومة العراق وبالوصى الجديد على شريطة أن تجاب المطالب البريطانية ولكن الكيلانى رفض هذه العروض .

فما كان إلا أن أبلغته بريطانيا عدم رضاها عن النظام القائم بالعراق قائلة أن الحالة الحاضرة فى العراق مخالفة صريحة للحياة النيابية فى البلاد ويجب أن تنتهى حالا كما طلبت طرد مجاهدى فلسطين خارج العراق ومنهم أمين الحسينى وعارف عبد الرازق وسليم عبدالرحمن .

ورفض الكيلانى مطالب بريطانيا .

وكان الكيلانى قد وافق للانجليز حسب نصوص معاهدة ١٩٣٠ على فتح الطريق لمواصلات قواتهم فى العراق . وفعلا نزلت القوات البريطانية فى ميناء البصرة دون حادث ولما أعلن الإنجليز عن وصول قوات بريطانية أخرى رفض الكيلانى السماح لها بالنزول إلى أرض الوطن مستندا إلى تفسير لإحدى نصوص المعاهدة . كما أنه فهم شيئاً آخر هو أن الإنجليز يحاولون تنفيذ مطالبهم بالقوة ومع ذلك أعلن أنه على استعداد تام لاستقبال هذه القوات والسماح لها بالنزول إلى أرض العراق بشرط أن تجتاز القوات الموجودة منها حالياً حدود العراق وحتى لا تصبح العراق معسكرا انجليزياً لا اعتبار فيه لمصالح الشعب العراقى صاحب البلاد .

وأصر الكيلانى على موقفه ودعا القوات العراقية إلى التأهب لمواجهة الموقف إذا بدت أى حركة من القوات البريطانية واحتلت القوات العراقية

منطقة الحبانية تمهيدا لهذا الإجراء . وأرسل رشيد الكيلانى إنذارا إلى بريطانيا فى أول ابريل عام ١٩٤١ .

وفجأة هاجت القوات البريطانية معسكرات الجيش العراقى متذرعة بالإنذار فرحب العراق بهذا القتال الذى تاق إليه منذ ثورة ١٩٢٠ .

ولما وقعت الحرب انضم رجال الجندرمة والبوليس إلى الجيش ليعملوا معاً فى ميدان القتال وتولت كتائب الشباب العراقية ومنظمات الفتوة حفظ الأمن الداخلى .

وبذلت العشائر فى حربها ضد الانجليز جهداً جبارا لاسبيل إلى إنكاره فما كادت تعلن الحرب حتى تقدموا بأسلحتهم ومعداتهم وفرسانهم وخيولهم ووضعوها تحت تصرف الحكومة والجيش . ومن بين هـــذه القبائل عشائر الأكراد القاطنة شمال العراق والمعروفة بكفاحها الصادق كما وضعت عشائر الجنوب نفسها تحت تصرف الثورة . وهناك عشائر كثيرة منها شمر وعتيرة والعبيد وكلها أبلت بلاء حسنا فى مقاتلة العدو .

وتقدم مولود مخلص باشا إلى الحكومة العراقية يطلب السماح له بتألف فرق من شبان قبيلته « الدليم » على نظام المليشيا لاشغال الجبهة الغربية بدلا من الجيش وصد هجوم القوات البريطانية التى خرجت من شرق الأردن بقيادة جلوب باشا ، ولكن الجيش العراقى رفض ذلك واعتذر الكيلانى إلى مولود مخلص . كما رفض تجنيد شباب القبائل الذين تطوعوا للخدمة كما تبين لهم أنهم دون السن التى تسمح لهم بتحمل مشقات الحرب .

وكانت الحركة العراقية فى صميمها حركة تحرير قومية عربيـة قبل أن تكون حركة تحررية للقطر العراقى . لذلك لم تتوان الهيئات العربية المختلفة

الموجودة فى العراق عن الاشتراك فى الحرب بكل الوسائل الممكنة . ومنهم من جاد بالأموال والمرتبات وانخرط فى سلك الجيش ، ومنهم من قام بالدعاية وأثار همم المحاربين . وكان من موجهى الحركة مفتى فلسطين وسليم عبد الرحمن وعارف عبد الرازق . وفوزى القاوقجى ومصطفى الوكيل .

وقد وجهت بريطانيا القوات الهندية لمقاتلة العراقيين فرفضت هذه القوات محاربة إخوانهم فى سبيل المستعمر بل انتقلت بعض الفرق ووقفت تحارب فى جانب العراق ضد بريطانيا . وفى هذه الأثناء سار « جلوب » بقوات الجيش الأردنى وهاجم القوات العراقية من الخلف وهى مشتبكة فى مقاتلة القوات البريطانية وكان الجيش الاردنى هو الذى فتح الطريق أمام القوات البريطانية المتقدمة لاحتلال بغداد من ناحية الغرب .

وتوقع العراق أن تساعده الدول العربية وتشد من أزره ولكن السلطات البريطانية حالت دون ذلك . فاتجه تفكير حكومة العراق إلى مساعدة مفتى فلسطين وذلك بفتح جبهة جديدة للقتال بفلسطين يديرها من بغداد حتى تشغل القوات البريطانية وتفرق جيوشها ولكن العقبات المختلفة قامت دون تنفيذ هذه الفكرة

وتوسطت حكومات مصر وتركيا فى عقد صلح واشترط الكيلانى أولا أن لا يبقى الجنود البريطانيون النازلون فى البصرة بها . وأن لا تتم زيادة الجنود البريطانية فى العراق إلا بواسطة لجنة بريطانية عراقية .

وقالت بريطانيا إن هذه الشروط تتعارض مع المعاهدة العراقية البريطانية وبذلك لم تقبل بريطانيا شروط الصلح . ولم يجد الشعب العراقى بدا من الاستمرار فى قتاله ضد انجلترا .

ولكن القوات البريطانية ظلت تتدفق إلى داخل البلاد وتغمرها تدريجيا حتى سدت عليها جميع المنافذ . ومع ذلك فقد ظل العراقيون يناضلون ويدافعون عن كل شبر من أرضهم المقدسة . ولكن لم تلبث مقاومة الثوار طويلا حتى قهرتها القوات البريطانية المصفحة . والطائرات العديدة المنقضة .

وفى يوم ٣١ مايو عام ١٩٤١ دخل الإنجليز مدينة بغداد واحتلوها من جديد ولم تجد حكومة رشيد الكيلانى بداً من الالتجاء إلى إيران . ومن هناك طرقوا أبواب روسيا . ولكن الحكومة الروسية رفضت طلبهم فبذل الكيلانى مساعيه لدى الحكومة التركية حتى سمحت له بالالتجاء إليها هو وأسرته فقط . فذهب إليها وظل يعمل لدى الحكومة حتى تقبل بقية اللاجئين إلى إيران . ولكن يد الإنجليز كانت أسرع فى القبض عليهم حيث نفتهم إلى ردوسيا . ومن ثم مهدت السبيل لإعدام قوادهم وزعمائهم وفى ٥ مايو عام ١٩٤٢ نفذ حكم الإعدام فعلا فى محمود سالمان وفهمى سعيد ويونس السبعاوى وصلاح الدين الصباغ وكان قد تولى الوزارة نورى السعيد . وخرج رشيد من تركيا إلى إيطاليا ومن ثم توجه إلى ألمانيا حيث ظل بها حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية ثم سافر إلى المملكة السعودية وعاد إلى مصر فأقام بها .

رشيد الكيلانى

هذا بطل من أبطال التحرير ورائد من رواد القومية العربية . قاوم الاستعمار بقوة وصنع للعراق تاريخاً باهراً وعرف بعدائه للانجليز وخصومته لهم وإيمانه بوطنه . وحاول أن يحرر العراق من سيطرة بريطانيا أبان الحرب العالمية الثانية واتجه فى ذلك إلى طلب معونة معسكر المانيا : وطالب بتعديل المعاهدة العراقية البريطانية بما يحقق حرية العراق . وقاوم مؤامرات بريطانيا ومناوراتها وفتنها المسلحة وكان من وراء وطنية فيصل فى أيامه الأخيرة . وهو الذى كشف الستر عن أن بريطانيا قتلت فيصل بحقنة تحت الجلد وأنها هى التى قتلت غازى أيضاً عند ما حمله رشيد على أن يعلن أنه لن يساعدهم فى الحرب إلا بعد الاعتراف باستقلال مصر وسوريا ولبنان وإلغاء وعد بلفور .

وهو أول من أعلن سياسة الحياد بين المعسكرين فى الشرق العربى . ومنع دعايات بريطانيا فى العراق ورفض قطع العلاقات بين العراق والمانيا وإيطاليا كما رفض إعلان الحرب على المانيا وهو الرجل الوحيد الذى استطاع فى العراق أن يجمع حوله الجيش والشعب والقبائل .

وقد أيد الحركة التحررية القوية التى ظهرت فى صفوف الجيش ووكل إليه الضباط قيادة الثورة . وكان هؤلاء الضباط هم صلاح الدين الصباغ[1] وفهمى سعيد ومحمود سلمان وكامل الشبيب .

وكانت الثورة التى حملت اسمه هى ثورة ١٩٤١ . وقد أعلن الجيش تشكيل حكومة وطنية برئاسته وأطلق عليها حكومة الدفاع الوطنى . وقرر البرلمان عزل الوصى وعرض السفير البريطانى على رشيد الكيلانى عرش العراق

(١) اقرأ فصلا عن الشهيد صلاح الصباغ فى كتابنا « رواد القومية العربية » .

ورفضه رشيد . وقد أقسم له الضباط ألا يتدخلوا فى شئونه ويتركوه يسير الأمور وفق المصلحة العامة .

وأذاع الجيش بيانه التاريخى المعروف . وأعلن توليه مسئولية البلاد باسم الشعب وتشكيل حكومة تحت رئاسته . وكانت أولى خطوط السياسة العراقية هى الحياد بين المعسكرين المتحاربين . وتحرير البلاد من الاستعمار وتسيير سياسة وطنية قومية . وتعزيز الجيش

وحاول البريطانيون الاتصال بزعماء العشائر لتحريضهم على الثورة ورفض زعماء القبائل التعاون مع الاستعمار كما رفض حجة الإسلام الشيخ حسين كاشف الغطاء منحة بعثت بها بريطانيا إليه قيمتها ٢٠ ألف جنيه من الذهب الخالص .

وقالت أبواق الدعاية البريطانية أن حركة العراق نازية وهاجمتها محطات الإذاعة العربية التى تسيطر عليها بريطانيا تمهيدا للاعتداء المسلح على العراق .

وفجأة أخذت طائراتهم تضرب بغداد ونزلت قواتهم فى ميناء البصرة فاحتلتها . وبدأت الحرب التى استمرت أكثر من شهرين .

وهدد رشيد الكيلانى بأن إلقاء قنبلة واحدة على بغداد ستؤدى إلى نسف السفارة البريطانية وفيها السفير البريطانى .

وأعلن رشيد إلغاء المعاهدة العراقية البريطانية فى ٢ مايو ١٩٤١ وهو نفس اليوم الذى هاجمت فيه القوات البريطانية العراق . ولم يكن فى يد الجيش العراقى أسلحة كافية وكان عليه أن يدافع عن الوطن إلى آخر طاقة . وقد استعان الإنجليز بقوات حملتها ثلاث بواخر من الهند نزلت فى ميناء البصرة كما أخذت تنقل الجنود بالطائرات إلى الحبانية . وبدأت بريطانيا تطلق نيرانها على القوات العراقية .

وأعلن رشيد الـكيلانى الجهاد المقدس ضد الانجليز وهبت القبائل كلها تؤيده فوقفت وراء الجيش وكان من نتيجة ذلك أن ظلت القوات البريطانية محصورة لاتستطيع التقدم شهراً كاملا .

واستولت الطائرات البريطانية على سماء العراق ووجهوا إنذاراً يطالبون فيه بأن يسلم رشيد الـكيلانى وجميع قواد الجيش أنفسهم فى مدى ٢٤ ساعة . ووجه رشيد إنذاراً إلى السفير بأنه إذا خربت الطائرات البريطانية المدن سينسف السفارة التى كانت معتقلا لجميع الانجليز وعائلاتهم وحارب رشيد شهرا كاملا . بأجساد العراقيين وبالبنادق القديمة .

ولم يكن من المستطاع هزيمتهم لولا أن جلوب تدخل بالفيلق العربى فى اللحظة الأخيرة وطعن العراق من الخلف وفتح ثغرة واسعة فى إحدى جبهاته . وقال الانجليز أنه لولا تدخل جلوب فى معركة العراق لتحول الموقف كله فى الحرب العالمية وأخذ صورة أخرى .

ولم يغادر رشيد الـكيلانى بغداد إلا بعد أن وصلت القوات البريطانية إلى مشارف المدينة وبينما كان يستقل سيارته ليعبر الحدود الإيرانية كان نورى السعيد وعبد الاله يدخلان المدينة فى حراسة الحراب البريطانية وكانت مصفحات الانجليز تدم المدينة فوق أشلاء القتلى .

وقد قاتل العراق قوات بريطانيا ٢٤ يوماً كاملا .

ورشيد الـكيلانى هو وليد ثورة ١٩٢٠ وربيبها وابن كل مقاومة هبت فى وجه العدو . وكان أول وزير يرفض التوقيع على اتفاقية البترول الانجليزية العراقية .

وقد ساهم فى ثورة فلسطين ضد بريطانيا عام ١٩٣٦ وزودت حكومته الثوار بالأسلحة كما اشترك عدة آلاف من العراقيين فى الثورة .

ليبيا والحركة السنوسية

ترتبط الحركة الوطنية فى ليبيا بالدعوة السنوسية التى كانت نواة العمل التحريرى فقد أعلنت إيطاليا الحرب على طرابلس فى ٢٩ سبتمبر عام ١٩١١ وزحف الأسطول إلى طرابلس وطلب تسليم المدينة واحتل الإيطاليون بنى غازى وحمص من موانى طرابلس فخف إليها أنور باشا ومصطفى كمال وعزيز المصرى وصالح حرب يدافعون عنها . ولكن تركيا التى تألبت عليها دول البلقان عقدت صلحاً سريعاً مع إيطاليا تنازلت فيه عن سيادتها على طرابلس . ولكن العرب لم يعترفوا بهذه المعاهدة ومضى الليبيون يعملون . ثم عرضت شروط اتفاق بين الإيطاليين وبين السيد احمد السنوسى عام ١٩١٥ الذى رفض أن يسلم شبرا واحدا من أرض طرابلس ومضى السنوسيون يحاربون حرباً دامية طويلة قذفت فيها إيطاليا البلاد بمدافع الأسطول .

وظل عمر المختار يحارب الإيطاليين عشرون عاماً كاملة . من سنة ١٩١١ — ١٩٣١ . إذ كان زعيم المجاهدين فى الجبل الأخضر ولم ينزل عن سرج جواده سبع سنين ثم لجأ إلى مصر عام ١٩٢٣ فلما وصلته أخبار الوقائع الدموية عاد إلى طرابلس وظل يجاهد جهاد الأبطال واشتبك مع الإيطاليين فى ألف معركة .

فلما حاولوا الصلح معه اشترطوا أن ترد الحكومة الإيطالية ما اغتصبته من الأموال والأملاك فلم تتم المفاوضات وزادت الأمور شدة وتعقيدا فكان عمر المختار أول من لبى نداء الوطن وباشر الجهاد بالسيف ثم اعتقل وهو فى استطلاع حربى ومعه خمسون فارساً من رجاله . ونقل إلى بنى غازى لمحاكمته . حيث صدر

الحكم عليه بالإعدام وهو فى سن الثمانين وقد تم استشهادة فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١ رمياً بالرصاص .

ثم اجتاحت إيطاليا زوايا السنوسيه وصادرت أموالها ونصبت المحاكم العسكرية والمشانق بعد أن تولى موسلينى الحكم عام ١٩٣٢ فهاجر أغلب السنوسيين إلى واحة جغبوب ثم إلى مصر ٠

ويعجز الوصف عن تصوير المجازر التى أقامتها إيطاليا لأهالى برقه وطرابلس فقد سلطوا السيوف على الأعناق والرقاب فى الجبال وخربوا البلاد بدكها بالمدافع ونهب الأموال واغتصبوا الأرض وألقوا المجاهز من الطائرات على ارتفاع ٤٠٠ مترا وحاولوا تنصير المسلمين ٠ وهاجر ٣ ملايين إيطالى إلى طرابلس كما هاجر ٢٥٠ ألف إلى السودان الفرنسى وفقد ٥٧٠ ألف من المواطنين وبلغ ماقتل من ١٩١١ إلى ١٩٢١ ما يقرب من ٦٦ ألف نسمة ٠

وقد ظلت طرابلس تجاهد حتى فقدت مايقرب من مليون من شبابها فى سبيل حريتها ٠

كما مضت ليبيا تحارب الاستعمار الإيطالى ٣١ سنة بلا انقطاع ١٩١١ — ١٩٤٥ وقد جندت تركيا فى الحرب العالمية الثانية من الليبيين ١٧ ألف جندى ٠ كما استهدفت مدن ليبيا خلال الحرب للتخريب والتدمير ٠ وأصبحت مدينة طبرق أثراً بعد عين ٠ ودمرت ثلاثة أرباع بنى غازى عاصمة برقه . ونسف الليبيون بعد انتصار العلمين مخازن البنزين ودمروا معدات الحرب التى أعدها الألمان والطليان فى برقة ليعتمدوا عليها فى تقدمهم إلى مصر وتقدر بمئات الملايين ٠

وقد أيدت مصر المجاهدون الليبيون فقد كانت مهجرا لهم طوال فترة جهادهم كما عملت مصر دائماً على مدهم بما يحتاجون إليه . وقد انتهى الحكم الإيطالى

فى ليبيا عام ١٩٤٣ حين دخلت جيوش الجنرال مونتجمرى مدينة طرابلس الغرب بعد انتصارها على جيوش المحور وانتخب الشعب الليبى الأمير إدريس السنوسى ملكا دستورياً ، وقد تقاسمت بريطانيا وأمريكا وفرنسا القواعد الجوية والبحرية فى طبرق وبنى غازى وطرابلس . وتعتبر ليبيا من وجهة نظر بريطانيا خاصة ، القاعدة التى تستعيض بها عن قاعدة قناة السويس . وقد قسمت ليبيا إلى مناطق : برقه تحت الحكم البريطانى . وفزان تحت الحكم الفرنسى . وطرابلس بها قواعد جويه لأمريكا .

وقد أعلن فى أول يونية سنة ١٩٤٩ استقلال برقه وتم استقلال ليبيا بأطرافها الثلاث فى أول يناير عام ١٩٥٢ .

والذى يتابع تطور الكفاح الذى قامت به ليبيا فى وجه الاستعمار يدهش لهذه الصلابة والعناد التى عرف بها الليبيون فى مقاومة الغاصب . ويرجع ذلك فى الواقع إلى الحركة السنوسيه فقد كان نجاح السنوسيه وتغلغلها فى إفريقيه يقض مضاجع السياسة الاستعماريه الأوربية .

وقال المؤرخون إن فى السنوسية خطرا عظيما يهدد المسيحية فى القارة الافريقيه ويعطل مصالح الدول الأوربية التى تريد استعمار أقطار هذه القارة . كما أنها تحرض أهالى شمال إفريقيا على القيام بالثورة .

وقد سجل المؤرخون أيضاً أن السنوسية كانت أكبر وأنشط الوسائل التى يستطيع عن طريقها محاربوا الاستعمار تحقيق أهدافهم .

وقد وضع أساس الطريقه السنوسيه السيد محمد بن على السنوسى الذى ولد بالجزائر فى ٢٢ ديسمبر عام ١٧٨٧ ونقل من شمال إفريقيا حيث أمضى سبع سنوات فى مراكش ثم سافر إلى مصر بعد أن استولت فرنسا على الجزائر .

وقد أثاره أمر تركيا دولة الخلافة التى عجزت عن رد العدوان الفرنسى عن الجزائر مما اعتقد معه أنه علامة أفول نجم الأمبراطوريه العثمانية .

وقد سافر إلى الحجاز ومنها إلى المسير ثم عاد إلى مكة حيث أنشأ بها أولى الزوايا السنوسيه عام ١٨٣٨ إلى أن اضطر إلى الهجرة إلى برقة عام ١٨٤٠ مارا بعدة أقطار ثم عاد إلى طرابلس واستقر به المقام فى بنى غازى وفى أول نوفمبر عام ١٨٤٢ انتقل إلى الدار البيضاء ثم انتقل إلى جغبوب فى اكتوبر عام ١٨٥٦ وقد دعا السيد إلى الاتحاد ويقظة العالم الإسلامى ومقاومة الاستعمار وأصبحت جغبوب إمارة عربية تقوم على أصول ثلاثة : الأصل الدينى والأصل الاجتماعى والأصل السياسى مستهدفا جمع كلمة المسلمين فى إفريقيا داخل نطاق وحدة سياسية كبرى .

ثم استمرت الحركة بقيادة ابنه السيد محمد المهدى الذى زاد فى عهده عدد الزوايا حتى بلغت المائة فى عام ١٨٨٤ بين برقه وطرابلس وفزان ووصلت إلى تونس ومراكش .

وكانت هذه الزوايا تعلم السنوسيين استعمال الأسلحة التى كانت تهرب من ميناء طبرق . وقد أخذ نجاح السنوسية فى إفريقيا يقض مضاجع السياسة الاستعمارية والفرنسية بالذات .

وقد أدى دعم السنوسية إلى انتقالها من الكفرة إلى قلب الصحراء .

وأعلنت الحركة السنوسية عن أهدافها وهى إنشاء ملك مستقل كامل السيادة يمتد عبر القارة الإفريقية من الحدود المصرية شرقاً إلى شواطىء الأطلنطى غرباً فتضم ليبيا وبرقة وطرابس وفزان وصحراء الجزائر والمنطقة التى تسيطر على كل طرق التجارة من ساحل البحر الأبيض شمالا إلى السودان جنوبا .

وقد قام السنوسيون بالعبء الأكبر فى حرب المقاومة فما أن اعتدت إيطاليا

على ليبيا عام ١٩١١ حتى تكتل السنوسيون والأتراك لمقاومة الاعتداء البريطانى فلما انسحب الترك من ليبيا حمل السنوسيون عبء الجهاد . فقد تحولت الطريقة السنوسية إلى حركة كفاح فى سبيل تحرير الوطن الليبى .

وقد أقفل الحاكم الايطالى غرزيانى الزوايا السنوسية فى مارس عام ١٩٣٠ وصادر أملاكها ونفى شيوخها وعطل مرافق الحياة فيها . وأقام معسكرات الاعتقال التى ضمت ٨٠ ألفا من البدو رجالا ونساء وأطفالا فى برقه وأقام حاجزاً من الأسلاك الشائكة بين القطرين طوله ٣٠٠ كيلو متر بعدا من البحر فى الشمال .

وقد تطوع فى إبان الحرب الإيطالية عدد كبير من أبناء الأمة العربية بلغ ١٩ ألفاً وسارعت مصر لجمع التبرعات وإيفاد البعثات المزودة وقد قسمت القيادة السنوسية ميدان الغزو الإيطالى إلى ثلاثة مناطق تولى قيادتها جميعاً الضابط أنورباشا واشترك فيها القادة عزيز المصرى ومصطفى كمال وناظم وصالح حرب وقد أرغمت القوة السنوسية إيطاليا ذات الجيوش والعتاد على البقاء فى السواحل وعدم التوغل فى الداخل فلما انسحبت القوات التركية فى ١٦ يوليو ١٩١٣ تولى قيادة المجاهدين الشهيد عمر المختار .

وقد عهد الضابط البريطانى المنسحب إلى السلوم إلى الضابط المصرى محمد صالح حرب سلطة الحاكم العسكرى فى مرمى مطروح فخطر للضابط المصرى أن ينضم إلى العرب المجاهدين ولكنه فضل أن يعمل على على تحريك عربان أولاد على المنتشرين على الحدود الغربية الشمالية واستمالتهم إلى الثورة ضد الانجليز .

ورأى الضابط المصرى أن ينقل العرب المجاهدين من الواحات وأن

ينظموا حرب العصابات وقد تمكن البريطانيون فى عام ١٩١٦ من التغلب على فريق المجاهدين الذى بقى فى الشمال رغم الجهود التى بذلتها قواتهم . وكان من المتطوعين فيها عبد الرحمن عزام . وقد وقعت المعركة الفاصلة التى شتت العرب المجاهدين الشمالية فى شرق سيدى برانى وكان من نتيجة المعركة أن عاد البريطانيون إلى احتلال السلوم فى ٢٤ مارس عام ١٩١٦ .

ولا شك أن الحركة السنوسيه كانت قوة مرهوبة إذ شاركت مشاركة فعالة فى الدفاع عن العالم الإسلامى والوقوف فى وجه الاستعمار وقد أشار هانوتو إلى أنه كلما هاجمت البلاد العربية والإسلامية قوة خارجة تطوع شباب العالم الإسلامى من كل مكان للقتال والاستشهاد .

تحرير السودان

سجل السودان ثلاث حركات تحريرية ضخمة فى تاريخه الحديث ، كانت عاملا فعالا فى تحقيق استقلاله وحريته بمولد جمهورية السودان فى أول يناير سنة ١٩٥٥ .

الحركة الأولى : هى الحركة المهدية التى كانت تهدف إلى التخلص من بقايا الحكم العثمانى وحكم أسرة محمد على ، وذلك بعد أن فسد الحكم فى السودان فساداً لا حد له . وساءت معاملة الحاكمين للأهالى ووصل حكام السودان من الترك والشراكسة إلى غاية العسف والظلم والقسوة والإرهاق .

وقد وقعت الثورة المهدية بعد ثورة عرابى مباشرة وكانت تتخذ نفس الأهداف وترمى إلى نفس الغاية ، بل إن الثورتين قد التقتا فى كثير من مظاهرهما . وكان المهدى زعيم الثورة السودانية حريصاً على أن يصل إلى مصر لينقذ عرابى حتى أنه أصدر أوامره فى إبان هجومه على الخرطوم بأن تأسر قواته « غردون » حياً ليفتدى به عرابى . وذلك بالرغم من أنه لم تكن هناك صلة أو معرفة بين الزعيمين : عرابى والمهدى .

وقد استغلت بريطانيا كلتا الثورتين المصرية والسودانية لتحقيق أغراضها فى فصل دولتى وادى النيل وتوزيع عدد من المناطق والأجزاء بعد إجلاء مصر عن السودان ، ثم العودة لاحتلال السودان بعد ذلك على أساس جديد يتيح لها بسط يدها فيه وحدها باسم الحكم الثنائى الذى لم يكن لمصر فيه إلا المظهر والصورة .

وقد قام السيد محمد احمد بن عبد الله بثورته من جزيرة أبا التى تقع على النيل الأبيض داعياً إلى الحرية . وعندما وصلت أنباء ثورته إلى البريطانيين عملوا على انسحاب الجيش المصرى من السودان ، وقد رفض « شريف » الأمر فأرغم على الاستقالة . وقبل « نوبار » إخلاء السودان على النحو الذى رغبت إليه بريطانيا .

وامتدت ثورة المهدى وحققت غايتها واحتلت الخرطوم عام ١٨٨٥ ، وأقامت حكومة جديدة غير أن المهدى قضى بعد ذلك بقليل فى نفس العام وتولى بدلا منه خليفته السيد التعايشى .

وفى هذه الفترة هاجم الدراويش الحدود المصرية الجنوبية فى معركة « توشكى » التى قتل فيها النجومى قائد قواتهم .

وعادت بريطانيا بعد أربعة عشر عاماً لتمد قوة مصرية فى ٢٥ ألف جندى مصرى وألفى ضابط بريطانى لإعادة احتلال السودان بقيادة « كتشنر » ، وقد تم احتلال دنقلة وبربر وعطبرة وأم درمان ودخل الجيش المصرى الخرطوم ليحكم السودان حكما بريطانيا خالصاً تحت اسم مصرى بريطانى وفى ظل اتفاقية أرغمت مصر على توقيعها فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٨ .

وبذلك استعادت بريطانيا السودان لصالحها وحدها .

* * *

أما الحركة التحريرية الثانيـة التى هزت الاستعمار وزلزلت قواعده فهى ثورة عام ١٩٢٢ المعروفة بثورة اللواء الأبيض بقيادة البطل الباسل « على عبد اللطيف » ، وكانت الثورة السودانية فى هـذه المرة تترسم خطوات ثورة ١٩١٩ المصرية ، وطالب الجندى على عبد اللطيف بما طالب به عرابى من قبل

وهو إسناد المناصب الكبرى فى الجيش إلى السودانيين . واندلعت الثورة وشهد السودان أكبر حركة منظمة فى تاريخه ، كان قوامها الاحتجاجات الشديدة فى العاصمة والأقاليم والمظاهرات السياسية التى تهتف بحياة مصر وسقوط الانجليز . وامتدت هذه الثورة حيث خرجت الخرطوم فى يونيه عام ١٩٢٣ فى مظاهرة جبارة وامتلأ سجن كوبر بأعضاء اللواء الأبيض . وخرج طلبة الكلية الحربية فى مظاهرة مسلحة .

وفى ٢٢ نوفمبر من نفس العام قدمت بريطانيا إنذارها المعروف بخروج الجيش المصرى من السودان بعد مقتل السردار . وقامت على الأثر ثورة عارمة ، وتدفقت الجماهير إلى قشلاقات الجيش المصرى تهتف بسقوط الاستعمار وحياة مصر والسودان ، وقامت فرقة سودانيـــة بكامل عتادها بقيادة البطل « عبد الفضيل ألماظ » نحو قشلاقات اللواء المتمرد وبدأوا الزحف بمظاهرة طافت بشوارع العاصمة ، وعند ما وصلت إلى مشارف المدينة تصدت لها القوات البريطانية فلم تلبث القوات السودانية أن قتلت ٧٠٠ جندى بريطانى .

وحكم على الملازم على عبد اللطيف بالسجن ونفى إلى منطقة « واو » عند بحر الغزال بعد أن أذيق ألواناً من التعذيب أثرت فى مخه . وقد أفرج عنه ثم أعيد إلى السجن مرة أخرى .

والحركة الثالثة هى حركة مؤتمر الخريجين التى بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقطعت أشواطا طويلة فى فترة قصيرة ، وتعد هـــذه الحركة استقلالية تقدمية ذات أثر واضح فى تحقيق الأهداف التى وصل إليها السودان والتى مهدت لتحرير السودان نهائياً .

وقد أدى هـذا الـكفاح المتصل للأحزاب السودانية مجتمعة إلى توقيع الاتفاق المعروف فى ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ بين مصر وبين المملـكة المتحـدة فى شأن إقامة الحـكم الذاتى فى السودان وممارسة السودانيين حق تقرير المصير بعد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات ، وقد ظلت قضية السودان حجر عثرة فى جميع المفاوضات التى باشرتها مصر فى العهد السابق ، ولم تغير معاهدة ١٩٣٦ التى وقعها جميع زعماء مصر السياسيين فى ذلك العهد الوضع السياسى للسودان بل اعترفت بسلطان بريطانيا فى إدارة منفردة فى الواقع وثنائية اسما .

وقد ظلت بريطانيا تعمل بكافة الوسائل على زيادة الفصل بين مصر والسودان حتى جاءت الثورة المصرية فقضت قضاء كاملا على هذه العوامل ، وفتحت بين مصر والسودان بابا لجو سياسى خالص حر صريح ، واعترفت بحق السـودان فى تحرره واتخاذ الأسلوب الذى يرضاه فى حياته السياسية الجديدة .

وقد اتخذ البرلمان السودانى فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٥ قراره بأن السودان سيصبح دولة مستقلة ذات سيادة فى أول يناير سنة ١٩٥٦

ويتأهب السودان اليوم لاستكمال نظامه السياسى بانتخاب رئيس الجمهورية ، وقد انضم السودان إلى الجامعة العربية وإلى الأمم المتحدة ووقف الشعب السودانى موقفاً غاية فى الشرف والأخاء أزاء مصر أبان معركة بور سعيد ، كما قاوم الأحلاف ورفض مشروع إيزنهاور .

الحركة المهدية

كانت الحركة المهدية ترمى إلى القضاء على الحكم الأجنبى وتسويد العنصر الوطنى والتخلص من سيطرة الترك الشراكسة وإنشاء نظام دستورى برلمانى وقد حرصت الحكومة التى أنشأها المهدى فى الخرطوم على السير وفق النظام الإسلامى الأول .

وكان المهدى قد دعا أتباعه فى منشوراته وبياناته إلى الهجرة وحضهم على الجهاد فى سبيل الله وقد تحقق له تحرير السودان من المصريين والأتراك واستولى على أجزائه المختلفة وتمكن من تمزيق كل النجدات الاستعمارية التى أرسلت إليه . فاضطر الانجليز إلى الجلاء عن السودان الشمالى والتراجع حتى حدود أسوان الجنوبية . وقد كان الزحف على مصر والاستيلاء عليها من أهم أغراض المهدى وقد شرع المهديون فى نوفمبر عام ١٨٨٤ فى الزحف شمالا بقيادة النجومى . فدارت معارك بينهم وبين الجيش المصرى فى سرس وتوشكى . وانكسر النجومى فى معركة « توشكى » وارتد .

وفى ١٢ مارس عام ١٨٩٨ وبعد مرور أربعة عشر عاماً تأهب الانجليز لاسترداد السودان وفرضوا على مصر تجنيد قوات لهذا الغرض فأعدت حملة عسكرية قادها « كتشنر » قائد الجيش المصرى فى ذلك الوقت وكان رجالها ١٦٦٨٠ ضابطا وجندياً ووصل إلى سواكن آلاى انجليزى استقدم من الهند وانضم إلى الحملة التى واصلت الزحف حتى استولت على الخرطوم فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٦٨ وقتل التعايشى . ووقعت مصر وبريطانيا معاهدة عام ١٨٩٩ الباطلة التى قضت

بأن تحكم مصر وبريطانيا السودان وأن تعين الحكومة البريطانية حاكم السودان وأن يكون انجليزياً .

وقد عمدت بريطانيا منذ ذلك اليوم على فصل السودان عن مصر . وإيجاد روح من الكراهية والعداء بين المصريين والسودانيين . كما عمدت فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤ إلى نقض الاتفاق المعقود على أثر وقوع حادث مقتل السردار فأخرج الجيش المصرى من السودان وكذلك الموظفين المصريين .

وهنا اندلعت ثورة السودان عام ١٩٢٤ .

ويتصل بهذا أن نذكر أن بريطانيا انتهزت فرصة إخلاء السودان بين (١٨٨٤ — ١٨٩٨) ففصلت من السودان أجزاء كثيرة حيث استولت على منطقتى زيلع وبربره وأنشأت منهما « الصومال البريطانى » وأهدت « مصوع » وراس جودفرين إلى إيطاليا التى ضمتهما إلى الجزء الذى استولت عليه من ارتريا عام ١٨٨٢ كما استولى الانجليز على تاجورة وجيبوتير وانتزعت الحبشة منطقة هرر عنوة .

وفى خلال الحرب العالمية الأولى ساهم عرب القبائل السودانية فى مساعدت بريطانيا بتقديم الجمال والمواد التموينية بما بلغ فى خلال ثلاث سنوات أكثر من سبعة ملايين من الجنيهات .

اليمـــن

قاعدة الدولة العربية المتحدة

تعرضت اليمن لعدوان بريطاني مازال مستمراً منذ شهر فبراير سنة ١٩٢٧ . ومع أن اليمن كانت إلى عهد قريب تحارب بأسلحتها القديمة العتيقة فإنها ظلت تقاوم ببسالة صادقة وإيمان عميق وتواجه هذا العدوان الباغى وهى واثقة من حقها الذى تدافع عنه .

وقد كانت اليمن منذ قديم ، منذ آلاف السنين مهد حضارة عظيمة عرفها العالم كله . كانت واحدة من الحضارات التى قامت فى الشرق وأثرت فى تطور المدنية والعلم وفى اليمن تاريخ مجيد منه « مأرب » عاصمة اليمن القديمة حيث قام سد مأرب العظيم الذى أشارت إليه كتب التاريخ وما زال الباحثون يدرسون هذه الحضارة التى عم العالم ضياؤها والتى اكتشف فيها معبد بلقيس ومعبد القمر ، وعدة معابد أخرى وحيث كانت تعيش بلقيس منذ ثلاثة آلاف سنة . وفى التاريخ الحديث عاش الشرق العربى كله فى قبضة العثمانيين حيث كانوا يحكمونه ويسيطرون عليه . أما اليمن فقد استطاعت أن تتحرر من هذه السيطرة فى مفتتح هذا القرن حيث انتصرت على الأتراك واستقلت .

وكانت تركيا قد استولت على شواطىء اليمن بمؤامرة ، إذ ادعى قائد الأسطول التركى أنه إنما جاء لزيارة عدن باسم الصداقة الإسلامية بين تركيا واليمن . وقد صدقه الحاكم اليمنى فأقام له حفلا . ثم دعا قائد الأسطول صفوة حكام البلد وأعيانه إلى حفل على سفينته واغتالهم واحداً واحدا ومن ثم سقطت المدينة فى يد العثمانيين حيث عملوا وفق أسلوبهم المزرى فى القتل والنهب ولكن اليمن الأبى لم يقبل الاحتلال البغيض وظل يقاومه بشدة .

ثم جاء الإنجليز وادعوا أن اليمن قتلت ضابطاً هندياً ثم ضربوا السواحل بالمدافع والطائرات . وهنا (عام ١٨٣٢) تمكن الإنجليز من احتلال عدن وظلوا يتوسعون حتى سيطروا على هذه المنطقة الساحلية المعروفة اليوم بالمحميات التسع وعزلوها عن اليمن وباركت تركيا احتلالهم .

ولكن اليمن ظلت تؤمن بأن هذه المنطقة جزء منها لاسبيل إلى اقتطاعه . وفي أبان الحرب العالمية الأولى عندما أعلنت الثورة العربية طرد الإمام يحيى الأتراك من اليمن وأعلن الاستقلال .

وقد ظلت بريطانيا حريصة على أن ترغم اليمن على الاعتراف بشرعية احتلالها للمحميات التسع مستمدة ذلك من نصوص معاهدة فرضت في ظل القسر عام ١٩٣٤ بعد أن ضربوا المدن اليمنية الملاصقة لمحمية « الضالع » .

واليوم تعود بريطانيا مرة أخرى لتضرب اليمن بالقنابل الحارقة بصورة وحشية حتى أن الحريق دام في مدينة « قعضية » أكثر من ثماني ساعات ولعل مرد هذا إلى أن نفوذ بريطانيا الذى تقلص بعد تأميم قناة السويس قد دفعها إلى تركيز مناطق نفوذها في جنوب الجزيرة العربية ومنطقة عدن التى هى جزء من اليمن انتزع منها قسرا ، وذلك رغبة في البحث عن البترول في هذه المنطقة الغنية به والقضاء على الروح التحريرية التى عرفت أنباؤها في البحرين وغيرها ومحاولة انتقاص القومية العربية بعد أن ارتبطت اليمن بمصر وسوريا والحجاز في معاهدة دفاعية . وستظل مقاومة اليمن لبريطانيا عاملا قويا في حرمان بريطانيا من تحقيق مشروعها الاتحادى بين المحميات التسع والاستيلاء على منابع البترول أو الحصول على معاهدة مع اليمن تعترف فيها بشرعية احتلالها لعدن ولهذه المناطق التى فصلت من القطر اليمنى .

وقد تحررت اليمن من سلطان الامبرطورية العثمانية عام ١٩١١ فقد قاد الثورة الإمام يحيى حميد الدين منذ تولى الإمامة عام ١٩٠٤ حتى نشبت الحرب الطرابلسية بين الترك والإيطاليين نتيجة الاعتداء الإيطالى على طرابلس عام ١٩١١ فجنح الأتراك للصلح فلما نشبت الحرب الكبرى ١٩١٤ كانت هناك قوات عسكرية من الأتراك تعسكر فى صنعاء وفى الموانى اليمنية كما كانت هناك قوات بريطانية معسكرة فى عدن وفى المحميات البريطانية الممتدة جنوب اليمن وقد بدأت انجلترا تضرب المدن والموانى اليمنية من الجو واستمرت المناوشات بين اليمن والإنجليز حتى وقع الأتراك الهدنة فى يونيه عام ١٩١٨ .

وقد ظل اليمن لايعترف بالمحميات البريطانية وفى معاهدة ١٩٢٤ اعترفت بريطانيا باليمن كمملكة . ولكن العلاقات لم تصف بين الدولتين مما أدى إلى تجديد اعتداءات بريطانيا على الحدود اليمنية .

* * *

وقد تعرض اليمن لفتنة أخرى حين اغتيل الإمام يحيى حميد الدين عام ١٩٤٨ إذ أعلن عبد الله بن الوزير نفسه إماماً ثم تمكن الإمام أحمد من استرداد عرش أبيه . كما تمكن عام ١٩٥٤ من القضاء على الانقلاب الذى دبره بعض إخوته .

وقد حكم الإمام يحيى حميد الدين اليمن ٤٤ عاماً (١٩٠٤ — ١٩٤٨) وهو الذى حفظ اليمن من حكم الترك حتى الحرب العالمية الأولى . ثم واجه الضغط البريطانى والأطماع الأجنبية فى فترة مابين الحربين العالميتين .

وقد قام بثورة أخرى عام ١٩١٠ وضاق قادة جماعة الاتحاد والترقى بهذه الثورة اليمنية ثم جنحت تركيا إلى صالح الامام وعقد الصلح عام ١٩١١ ولما قامت الحرب العالمية الأولى انتهى الحكم التركى .

وقد تحققت خطوة ضخمة فى مارس ١٩٥٨ إذ تم الاتحاد الفيدرالى بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة .

الخليج العربى

والامارات العربية

الخليج العربى — كان يطلق عليه الخليج الفارسى — هو الشق الداخل من بحر عمان بين بلاد فارس وجزيرة العرب . يبدأ فى الجنوب بمضيق رءوس الجبال ويمتد إلى شط العرب حيث مصب دجلة والفرات شمالا . والخليج العربى هو مفتاح الطريق للتجارة بين الشرق والغرب . وتقع على الخليج عمان ومسقط وقطر والحسا والبحرين والكويت .

وقد بدأت بريطانيا فى انتزاع هذا الجزء من الأراضى اليمنية الذى يطلق عليه المحميات . حينما دهم أسطول الغزاة البريطانيين الأراضى اليمنية عام ١٢٥٤ وأطلق على مدينة عدن وابلا من نيران مدافعه والتجأ الآلاف من السكان إلى مدينة لحج .

ثم تمدد عدوان الاستعمار البريطانى على اليمن واتصل الانجليز اتصالا مباشرا بشيوخ القبائل والعشائر . واستطاعوا بأساليب خادعة الحصول على وثائق من الأهالى جعلوها تبريرا لوجودهم فى هذه المناطق بدعوى حماية سكانها . وقد أطلق البريطانيون على هذا الجزء الذى اقتطعوه من اليمن اسم المحميات .

وقد تمكنوا من استغلال البترول فى هذه المناطق بنسبة ٨٧ فى المائة لبريطانيا و١٣ فى المائة لشيوخ القبائل .

ولا شك أن هذه منطقة خطيرة من المناطق العربية الإسلامية التى تحكى

قصة الاستعمار البريطاني في أقسى صورة وتحتاج إلى الدرس والبحث لاسيما بعد موقف الجامعة العربية من البريمي وعمان ·

فهي منطقة ممتدة على الشاطىء الجنوبي لشبه جزيرة العرب تطل على طريق الهند البحري · قد استولت عليها بريطانيا منذ عام ١٨٣٩ · أي منذ أكثر من قرن وربع قرن · ومزقتها تمزيقاً وفرضت عليها معاهدات عجيبة جعلت سلاطينها لايملكون شيئاً مع بريطانيا التي كانت قد استغلت فرصة ضعف تركيا ففرضت الحماية على هذه المحميات ماعدا « عدن » التي أصبحت مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني تتبع حاكم الهند الإنجليزي رأساً ·

وتقع المحميات التسع بين عدن واليمن . وهي : لحج · ابين . الحواشب . الصبيحة · القطيب · الضالع · يافع العليا والسفلى . العوالق . وحضرموت ·

وتبلغ مساحة المحميات ١١٤ ميلا مربعا : ولا تزال يد بريطانيا تضغط على هذه المنطقة ، وما زال عسفها يتزايد نظراً لغنى هذه المناطق بالبترول بعد أن سجلت تقارير الخبراء بأن (القطران) ينبع من جوف الأرض . وأن هناك بحيرات واسعة من هذه المنطقة في مختلف المناطق .

وقد منحت بريطانيا عام ١٩٤٩ لبعض الشركات امتياز البحث عن البترول في أرجائها وهي تعمل جاهدة لحماية معمل البترول الجديد الذي أنشأته في عدن ودعمه بالمادة السوداء التي تسمى بالذهب الأسود ·

وقد عمدت بريطانيا إلى هـذه المنطقة فمزقتها وأوقعت الخلف بين حكامها واستولت عليها واحدة واحدة بأن عقدت معاهدات فردية مع حكام كل منها ·

وكانت « لحج » تابعة لليمن إلى أن عقدت بريطانيا معها معاهدة سنة ١٨٠٢ تعطى لهـا الحق في بعض الامتيازات التجارية والملاحية . ونصت

على أن لا تعقد « لحج » أى معاهدة من أى نوع مع أى دولة أخرى دون موافقتها .
وألا تصدر أو تستورد أية أسلحة أو ذخائر أو أى صفقات تجارية مع أى جهة
من جهات الساحل دون إجازة حاكم عدن البريطانى .

* * *

أما حضرموت فقد انفصلت عن اليمن مستقلة إلى أن عقد سلطانها سنة ١٨٨٨
معاهدة مع حكومة عدن البريطانية رضى فيها ببسط الحماية البريطانية على بلاده
وتعهد بألا يؤجر شيئاً من أراضيه لدولة أجنبية إلا بعد موافقة بريطانيا .

أما عمان فقد كانت من أقوى الدول الإسلامية فى خليج فارس . حتى
أنها حاربت البرتغال ووقفت أمام سلطانها الذى كان يمتد فى خلال هذه الفترة
إلى الشرق كله .

وقد أدى هذا إلى قيام البرتغال بضرب عمان بالمدافع وامتلاك مسقط وصحار
والمطرح وقريات .

وقد رفعت عمان علم العرب فى القرن العاشر الهجرى ، حتى أن بعض المؤرخين
أشار بأنه لم تقم للعرب قائمة منذ خرجوا من الأندلس الا عمان التى دامت نهضتها
من عام ١٠٠٠ إلى ١٢٥٠ هجريه (١٨٣١ م) فنشأ بها فطاحل عظماء كونوا
دولة عربية قامت على أساس العدل . واستولت على بعض ثغور البحر الأحمر ثم
على المحيط الهندى والخليج العربى فافريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح .
وفى بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار الثلاثة العظمى وأصبح لهم أسطول
ضخم هاجم الأسطول البريطانى ومزقه إربا وشتت شمل البرتغاليين المحتلين
وأجلاهم عن جميع الثغور الهندية والفارسية والإفريقية . وكان الأسطول العمانى
مؤلفاً من ٣٠٠ قطعة بين بارجة وفرطاقة وحراقة فضلا عن المدرعات والطرادات

ويعد أسطول عمان الأسطول العربي الرابع بعد أسطول صلاح الدين . ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة التي كانت تهددهم في توسعهم الاستعماري وعملت في مدى ٨٠ عاماً على إضعافها والقضاء على أسطولها حتى تم الاستيلاء على بلادها وقهرها شيئا فشيئا .

وفي عام ١٩١٢ تمكنت بريطانيا من تجريد أهل عمان من السلاح .

وكانت بريطانيا قد عقدت عام ١٧٩٨ معاهدة بين شركة الهند الانجليزية وسلطان عمان وتبعتها معاهدة أخرى عام ١٨٠٠ تعطى لبريطانيا أن تعين مقيما في مسقط . وبين عام ١٨٠٠ — ١٩٠٠ استولت انجلترا على البلاد بالحيلة والتجارة والفتنة والقوة القاهرة .

ولكن الأمير ناصر الدين — أحد أمراء عمان الشجعان — استطاع مهاجمة البرتغال وانتزاع عمان منهم وظل يكافح حتى طرد البرتغاليين من الساحل كله .

أما زنجبار والمستعمرات التي كانت لعمان في شرق أفريقيا فقد اقتسمتها انجلترا مع ألمانيا وإيطاليا .

وفي سنة ١٩١٣ فرضت الحماية على مسقط وعمان بمعاهدة ثانية أرغم فيها السلطان على وضع بلاده تحت الحماية الانجليزية .

وعمدت بريطانيا من ناحية أخرى إلى إنهاء السيادة العثمانية على هذه المنطقة لتلتهم الساحل كله فعقدت اتفاقا مع الباب العالي في ٢٩ يوليه عام ١٩١٣ تنازلت تركيا بمقتضاه عن سيادتها على الكويت والبحرين وسائر الإمارات وتعهدت بألا تجند من سكان هذه المناطق أحداً وألا تأخذ من صيادي اللؤلؤ رسوماً أو أتاوات .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان الخليج الفارسي جميعه

فى قبضة بريطانيا بمدنه وجزائره وسواحله . ثم امتد نفوذها إلى شرق أفريقيا وسواحلها .

لكن فى خلال هذه الأربعين سنة لم يكن من المعقول أن يظل الاستعمار قابضاً على ناصية الأمور فى بلاد على الرغم من أهلها ، ولذلك فقد اندلعت الثورات فى كل مكان . وقام فى هذه المناطق بين الحين والحين رجال يطلبون تحرير بلادهم . وقد أسرعت الجامعة العربية فضمت عمان إليها وهى خطوة طيبة ستتلوها خطوات .

ولن ينقضى وقت طويل حتى تتحرر هذه المنطقة تحرراً كاملا ، وتعود تجارة اللؤلؤ والجواهر والبترول فيها إلى أهلها العرب الذين كتب لهم التاريخ فى الماضى صفحة مجيدة .

أما البحرين فقد كان لها أسطول شراعى كبير مسلح بالمدافع والذخيرة الوافرة مكنها من أن تستولى على قطر والقطيف كما استولى أسطول عمان على زنجبار وشرق أفريقيا وقد هددتها بريطانيا بإيقاف حملاتها البحرية وإلا فإنها ستقصدها بالقوة وانتهى هذا بأن تدخلت فى شئون البحرين والمحمرة والكويت سنة ١٨٦٩ وعقدت معها معاهدة أرغمتها فيها على التنازل عن حقوقها فى تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية على أن ترد بريطانيا أى غارة عليها . وفى عام ١٩٠٣ أنزلت بريطانيا جنودها إلى ساحل البحرين وطلبت إحراق بقية أسطولها .

ولم تستطع بريطانيا أن تضع يدها على البحرين فى سهولة فقد قاوم سكانها جميع محاولات احتلال بلادهم . كما كان للبحرانيون دور كبير فى مقاومة الاستعمار من قبل عام ١٥١٤ مع القوات البرتغالية وعرفت فى ذلك الوقت فروسية الشيخ مقرن قائد الجيش البحرانى . ورفض البحرانيون دفع الجزيه لملك البرتغال .

وفى عام ١٥٢٢ ثار الوطنيون على الحامية البرتغالية وأرغموها على الجلاء . كما شنقوا الحاكم البرتغالى .

واستأنفوا ثورتهم عام ١٥٢٩ .

وفى عام ١٥٣٣ حاول السلطان العثمانى سليم القانونى احتلال البحرين بعد أن احتل بغداد ولكنه ارتد منهزماً . وفى عام ١٥٣٤ عاود الأتراك الكرة واستخدموا أسطولا بحريا وفشلوا .

وفى عام ١٦٠٢ طرد البحرانيون البرتغاليين من بلادهم وألحقوا بهم هزيمة نكراء . وبقيت البلاد مستقلة إلى أن تمكن عملاء شاه إيران من إغراء بعض الخونة الذين مهدوا لهم احتلال البلاد ثم ثارت البحرين من جديد وطردت الإيرانيين .

* * *

وقد أخذت الحركة التحررية فى البحرين دوراً إيجابياً منذ عام ١٩٥٣ حيث انجلت الانتفاضة الطبيعية عن عمل إيجابى لمقاومة الاستعمار . وعندما وقع الاعتداء الثلاثى على مصر اندفع البحرانيون يحرقون كل ماهو انجليزى كما نسفوا أنابيب البترول .

ويبلغ دخل البحرين من البترول ١٠٥ ملايين روبية فى العام (٩ ملايين من الجنيهات) وسكانها مائة ألف نسمة وهى مجموعة من الجزر المرجانية اشتهرت بصيد اللؤلؤ والاتجار فيه .

واليوم تندلع فى الخليج العربى كله نار الثورة فى وجه الاستعمار وتتنادى جميع الأطراف لتلتئم فى « الأم » العربية المتحدة

فلسطين المحتلة

أضخم قضايا العالم الإسلامى

— ١ —

فى خلال تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ليس هناك حدث أخطر من الغزو الاستعمارى الذى تمثل فى احتلال الصهيونية العالمية لفلسطين .

وفى تاريخ العالم الإسلامى كله يعد واحداً من أربعة أحداث خطيرة فى مدى أربعة عشر قرناً هى : الحروب الصليبية ونهاية الأندلس واجتياح التتار للعالم وتسليم فلسطين لليهود .

فالاستعمار الذى منيت به مصر وسوريا والعراق والمغرب وأندونيسيا والهند قد أمكن التحرر منه ومقاومته . وترى المقاومة فى أعنف صورها فى الجزائر اليوم وفى تونس ومراكش فى السنوات الأخيرة . وكان حرب التحرير قوية فى ليبيا وأندونيسيا كما استطاعت سوريا ولبنان أن تطرد قوات المستعمر بعد مقاومة وصراع وثورات دامية . وكذلك مصر التى تحررت بعد سبعين عاماً من النضال كان أشدها قوة وعزماً الثورة المصرية ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ عندما سحقت أذناب الاستعمار وفلول الأحزاب فلم يجد الاستعمار أمامه سبيلا إلا أن ينسحب . فلما عاد مرة أخرى فى معركة السويس (اكتوبر — نوفمبر ١٩٥٦) تحطمت قواه . وكسبت مصر الجلاء بالدماء .

أما احتلال فلسطين فقد كانت ولا تزال جرحا دامياً فى أدق مكان من العالم

الإسلامي كله ، ذلك أنه وقع بالتآمر والدس والخداع . ولم يكن بالحرب أو المواجهة الصريحة .

بدأت قضية فلسطين تأخذ صورتها التي حددها الاستعمار لها لتكون شوكة في جنب الأمة العربية والعالم الإسلامي عند ما أصدر بلفور وعده المشهور في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ . لإقامة « وطن قومي » لليهود في فلسطين . بدأت على أثره هجرة اليهود إلى فلسطين . حتى إذا جاء ١٥ مايو عام ١٩٤٨ أعلنت بريطانيا فجأة جلاءها عن فلسطين وأسلمت مقاليد الحكم فيها لليهود . هنالك بدأت عملية حربية اشتركت فيها الدول العربية وانتهت بالفشل . وبدأت عملية « إخراج بالقوة » شملت أكثر من مليون فلسطيني هاجروا إلى غزه ولبنان والأردن والعراق . وما زالت هذه الهجرة قائمة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم بعد أن أضحت فلسطين دولة محتلة وقامت فيها حكومة يهودية .

وفي خلال هذه السنوات الطويلة (من نوفمبر ١٩١٧) إلى اليوم في خلال ٤٠ عاماً انتقلت فلسطين بين مراحل متعددة قوامها التآمر الغربي الاستعماري ممثلا في بريطانيا والصهيونية العالمية وأمريكا وبعض الحكومات العربية التي كانت قائمة عام ١٩٤٨ وإذا أردنا أن نقول إن « فلسطين » هي بؤرة القومية العربية كلها والمركز الحساس للعالم الإسلامي كله لم نعد الحقيقة . ونستطيع أن نؤكد صحة هذا القول حينما نلقي نظرة على الدول العربية عام (١٩٤٨) واليوم (١٩٥٨) .

فالملك عبدالله ملك شرق الأردن . ثم ملك الأردن بعد اغتصاب الضفة الفلسطينية العربية إلى مملكته ، اغتيل بعد معركة فلسطين . وكان قائد الجيوش العربية . وفي سوريا وقعت عدة انقلابات استمرت خمسة أعوام . وفاروق الملك السابق ودوره في معركة فلسطين معروف ، هذا الدور الذي قضى على ملكه فانتهت الملكية في مصر . وقام بالثورة نفس الرجال الذين اشتركوا في معركة فلسطين

وكانوا فى ميدان النار . وقد كانت فلسطين « بؤرة » اشعاعاتهم الثورية بل إن خطوط الثورة التى قامت بعد معركة فلسطين عام ١٩٤٨ بخمس سنوات إنما استمدت من الموقف العربى كله هناك خطوطها العامه .

وإن الانبعاث العربى واندلاع القومية العربية بعد ثورة ١٩٥٢ فى العالم العربى كله على هذه الصورة التى هزت العالم كله . ودفعت الاستعمار إلى تجميع قواه فى محاولته الأخيرة إنما كان مصدرها فى الواقع « بؤرة فلسطين » فإن قيام دولة يهودية فى قلب العالم العربى إنما كان يعنى أشياء كثيرة أكثر من ظاهرها : كان يعنى إقامة نقطة تدمير ضخمة للقضاء على الوحدة العربية ووقف كل تقدم أو تجمع أو تحرر شامل . وقد كشفت معركة « السويس » عند ما هاجمت القوات اليهودية مؤيدة بالقوات الفرنسية موقع الكونتلا فى صحراء سينا فى ٢٨ اكتوبر عام ١٩٥٦ أن « إسرائيل » ليست إلا أداة استعمارية أعدت لعمل كبير يرمى إلى تمزيق القومية العربية وإذلال كل قطر عربى متحرر يحاول أن يكون خارج نطاق الاستعمار . أو يتجه إلى الحياد الايجابى أو يجنح إلى عدم الانحياز .

ذلك أن وعد بلفور عام ١٩١٧ واحتلال فلسطين عام ١٩٤٨ كان يعنى هدفاً أبعد من إعادة المشردين اليهود الذين كانوا يعيشون لاجئين بعد اضطهاد هتلر وإخراجهم من ألمانيا . وأن كل مايدعيه اليهود من حق لهم فى فلسطين أو الهيكل أو دولة سليمان القديمة ليس فى الواقع إلا غشاء رقيق لحقيقة رهيبة هى إيجاد قوة استعمارية مركزة خاصة بعد أن بدأت تتحرر الدول والأمم وتتجه إلى الاستقلال مما سيكون له أثره فى تصفية الاستعمار من الشرق .

فى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ أعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا — الذى سافر إلى أمريكا — تصريحه المشهور ضمن خطاب وجهه إلى لورد رتشيلد زعيم اليهود فى انجلترا وفيه يقول « إن الوزارة الانجليزية تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسين ، وإنه مع هذا لن يعمل شىء يمس الحقوق المدنية أو الدينية للطوائف غير اليهودية التى تقيم فى فلسطين .

ولم تلبث عصبة الأمم عام ١٩٢٠ أن عهدت لبريطانيا بالوصاية على فلسطين وكان عدد اليهود فى فلسطين ٦٥ ألف وصلوا إلى ١/٨٠٠/٠٠٠ يهودى عام ١٩٤٨ .

وكانت بريطانيا قد وضعت بالاشتراك مع اليهود منذ اليوم الأول الخطط العملية لتهويد فلسطين ففتحت أبواب البلاد على مصراعيها لاستقبال المهاجرين من اليهود وشجعت الهجرة المهربة . وساعدت اليهود على إنشاء مؤسسة كبرى هى الصندوق اليهودى وقال هربرت صموئيل أول مندوب بريطانى علانية أنه يعمل على وضع فلسطين فى حالات سياسية وإدارية واقتصادية من شأنها تسهيل إقامة الوطن القومى اليهودى بها

وفى ٢٠ أغسطس عام ١٩٢٢ أذاعت بريطانيا دستور فلسطين الذى انطوى على حق يمنح المندوب السامى المعين من قبل الحكومة البريطانية سلطة مطلقة فى تقسيم البلاد إلى مقاطعات إدارية وفى التصرف الكامل فى الأراضى الأميرية والمواد المعدنية وثروة البلاد الطبيعية .

وكانت بريطانيا قد اختارت لمنصب أول مندوب سام فى فلسطين اليهودى

« هربرت صمويل » وقال وايزمان فى مذكراته أنه اتفق مع الحكومة البريطانية على تسليم فلسطين لليهود خالية من أصحابها العرب وأنه كان مقرراً لذلك الاتفاق أن يتحقق عام ١٩٣٤ لولا الثورات التى قام بها عرب فلسطين .

وبدأ الرأسماليون اليهود توا فى إنفاذ خططهم فأخذوا فى شراء بعض الأراضى البور غير المستثمرة من كبار الملاك العرب وأقاموا عليها مستعمرات زراعية . وتوغلوا بعد ذلك فى فى المدن فأنشأوا مدينة تل أبيب على شاطىء البحر الأبيض وأقامت الرأسمالية اليهودية صناعات مزدهرة . كما قدمت بريطانيا ٥٠٠ ألف دونم (١٢٥ ألف فدان) من أملاك فلسطين لليهود بعد طرد العرب منها وهى بنى عامر ووادى الحورث والحوله .

ولم يقف العرب مكتوفى الأيدى أزاء هذه المؤامرة الضخمة التى رسمت فى دقة فقد بدأت المعارضة تجتاح كل خطوات العدو فى صورة اضطرابات بدأت فى ٤ ابريل عام ١٩٢٠ ثم تجددت فى يافا وطولكرم عام ١٩٢١ ثم امتدت ولم تتوقف فى القدس وصفد والخليل ونابلس عام ١٩٢٩ ثم كانت ثورة ١٩٣٣ فى القدس ويافا وحيفا ونابلس .

ثم كانت الثورة العربية الكبرى عام ١٩٣٦ تنتظم أول إضراب من نوعه . فقد أضرب العرب ستة أشهر عن المعاملات التجارية . وأغلقوا محلاتهم وامتنعوا عن التعامل مع الاجانب واليهود . كما أعلنوا العصيان المدنى لحكومة الانتداب ثم تطور الإضراب إلى ثورة دامية عنيفة كان على قيادتهـــا القائد العربى « فوزى القاوقجى » الذى نظم المعارك وقادها وقد عطل نحو مليون عربى أعمالهم تعطيلا تاماً .

وقد واجهت بريطانيا هـذه الثورة بفظائع لا حد لها فى النسف والتدمير

وأبادة مدن بأكملها وإحراق المزارع والقرى وفرض الاتاوات ونهب الأموال وسلب الأعراض وتمزيق المصاحف والأناجيل .

ومن ناحية أخرى عهدت بريطانيا إلى إقناع ملوك العرب ورؤسائهم بالتدخل فكان تدخلهم هزيمة كبرى حين أدت إلى توقف ثورة العرب . فى نفس الوقت الذى انطلقت فية بريطانيا واليهود إلى أهدافهما البعيدة المدى :

وكان السبب الرئيسى لثورة عام ١٩٣٦ هو رفض الحكومة المنتدبة إنشاء حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابى ديمقراطى تمثل جميع الطوائف فى فلسطين وكذلك تركها — اليهود يستولون على مايشاءون من أراضى العرب وفتحها أبواب الهجرة .

ومن أهم معارك هذه الثورة معركة نور شمس فى ٢٢ يونيو عام ١٩٣٦ وعين جارود فى مرج بنى عامر .

— ٣ —

فى خلال هذه الفترة ١٩١٦ — ١٩٣٦ كانت الأمور تسير فى فلسطين على الوجه التالى : ثورات عربية متوالية تقمع بالحديد والنار . أراض عربية تسلب من أصحابها . هجرة تتدفق على فلسطين . الحكومة المنتدبة تنفذ مشروع إنشاء الوطن القومى اليهودى بقوة السلاح والنار . نسف كل بيت بالديناميت والمدافع الرشاشة وإحراق كل قرية اشتبه فى أن بعض أفرادها اشتركوا فى المقاومة .

واليهود يغيرون على البدو وسكان الخيام فيقتلونهم ويسلبوهم متاعهم وأراضيهم ويتغافل البوليس البريطانى عن الحوادث .

وفى عام ١٩٣٠ فقد العرب ثلث الأرض ، وغدت الأرض القابلة للزراعة لاتكفى لتأمين معيشة الأهالى . وفى عام ١٩٣٠ كان مجموع ما اشتراه اليهود من الأراضى ٣٢٥ ألف فدان .

وكان صندوق القرض اليهودى يتلقى كل عام ٥/٥٠٠/٠٠٠ دولاراً سنوياً لهذا الغرض .

وفى نفس الوقت الذى تدفقت فيه سيول المهاجرين إلى فلسطين ، حيث تقف هيئات ضخمة فى أنحاء أوربا نفسها لترحيلهم وتقديم السفن والمساعدات لهم ، تقوم الحكومة المنتدبة بدعم اقتصاديات اليهود ومساعدتهم مادياً فى فلسطين ومنع العرب من التوسع . وإقامة العراقيل فى وجههم بمنع صادرات الأقطار العربية المجاورة من وصولها إلى فلسطين .

ثم لم تلبث الحكومة المنتدبة من إجراء حركة اعتقالات واسعة فقبضت على أعضاء اللجنة العربيـة العليا ونفتهم إلى سيشل وحاصرت الحرم الشريف والمسجد الأقصى وعزلت الحاج أمين الحسينى .

ولكى تعطى بريطانيا الفرصة كاملة لتحقيق الغاية من المؤامرة كانت ترسل بين آن وآن لجنة تحقيق كوسيلة من وسائل كسب الوقت . فأرسلت لجان التحقيق العسكرية ، بكرافت ، التحقيق البرلمانية (واترشو) جون مكبسون التحقيق الملكية ، التحقيق الانجلو إمريكية . وذلك فى سنوات ١٩٢٠ و ١٩٢١ / ١٩٢٩ / ١٩٣٠ / ١٩٣٦ / ١٩٣٨ .

وفى نفس الوقت عقد العرب عدة مؤتمرات « كلامية » حماسية . مؤتمر عرب فسطين عام ١٩١٩ . النادى العربى بدمشق ١٩٢٠ . سافر وفد فلسطينى إلى أوربا عام ١٩٢٢ . المؤتمر الإسلامى الكبير : القدس ١٩٣١ . مؤتمرات ١٩٣٢ / ١٩٣٥ / ١٩٣٦

وفى نفس الوقت أصدرت بريطانيا كتباً « بيضاء » !

الكتاب الأبيض ١٩٢٢ وضعه الاستعمارى « تشرشل » وادعى فيه أن الوعود التى أعطيت للشريف حسين لاتشمل فلسطين .

الكتاب الأبيض ١٩٣٠ .

الكتاب الأبيض ١٩٣٩ وفيه قررت بريطانيا تشكيل حكومة فلسطينية مستقلة فى خلال عشر سنوات مع السماح لـ ٧٥ ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين ثم توقف الهجرة بعد ذلك .

وفى الوقت الذى كان العرب فيه يعقدون المؤتمرات ويمثلون أمام لجان التحقيق ويفاوضون بريطانيا . كانت الخطة المرسومة تسير إلى غايتها فى الهجرة والتملك وسحق القوى العربية فى فلسطين . وإن كان العرب قد قاموا فى خلال ثلاثين سنة بأحد عشر ثورة مسلحة وقاموا بمئات الانتفاضات كما أضربوا ١٨٦ يوماً وهو أطول إضراب عرف فى تاريخ العالم العربى .

— ٤ —

اندلعت الحرب العالمية عام ١٩٣٩ وقد انتهز اليهود الفرصة فقاموا بإعداد تشكيلات ومنظمات عسكرية وسياسية داخل فلسطين وخارجها . وتدفقت فى نفس الوقت سيول المهاجرين اليهود على فلسطين . وساعد الانجليز فى زيادة التوسع اليهودى فى احتلال أراضى العرب واغتصابها عنوة . وإقامة المستعمرات عليها وتدريب الشباب اليهودى على استعمال السلاح . كما أقامت العصابات بأعمال الإرهاب ونسف القرى .

ويبدأ الاتجاه اليهودى فى فلسطين إلى الاعتداء على البريطانيين وتهديد

المنشآت البريطانية . وقد قتل اللورد موين عام ١٩٤٤ فى قلب القاهرة حيث اعتدى يهوديا عليه — وهو إذ ذاك وزير الدولة البريطانيه لشئون الشرق الأوسط . كما قتلوا بعد الوسيط الدولى «فولك برنادوت» .

وهنا طلبت بريطانيا إلى أمريكا التدخل لحل مشكلة فلسطين . واتفقت الدولتان على إرسال لجنة « تحقيق » امريكية انجليزية . انتهت أعمالها بالتوصية باستمرار الهجرة وإبطال القوانين التى تنظم انتقال الأراضى لليهود .

وعقدت الجامعة العربية مؤتمرين فى ١٩٤٦ — ١٩٤٧ وطالبت باسم الدول العربية وقف الهجرة الصهيونية على أن يتولى الحكم فى فلسطين أصحاب البلاد الشرعيين . كما تقدمت بعرض القضية جملة على هيئة الأمم المتحدة التى قررت إيفاد لجنه تحقيق إلى فلسطين . وقد قاطع العرب لجنة التحقيق لأنها أظهرت ميولا واضحة نحو اليهود وصرح أحد أعضائها القضاه تصريحاً يتنافى مع واجب العدالة .

وكانت الصهونية الدولية قد تركزت عام ١٩٤٤ فى أمريكا بعد أن تولى « ترومان » منصب الرئاسة وكان من أشد الحكام حماسة لقضية اليهود وقد طالب بفتح أبواب فلسطين كحل لليهود المشردين فى أوربا وحتى يصبح لليهود أكثرية فى فلسطين .

ثم انتهت هيئة الأمم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بإصدار قرار بتقسيم « فلسطين » بين العرب واليهود ويقضى القرار بأن تقسم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية وأن يكون بين الدولتين اتحاد اقتصادى وأن تترك مدينة القدس تحت الوصاية الدولية . وقد رفض العرب هذا القرار .

وكانت بعثة عام ١٩٣٧ قد قدمت تقريراً بتقسيم البلاد إلى ثلاث دول يهودية فى الشمال ودولة عربية تنتظم سائر البلاد . ودولة ثالثة تضم المدن الثلاث القدس وبيت لحم والناصرة .

وبلغت خطط اليهود فى فلسطين فى مقاومة البريطانيين حدها فقد بدأت عصابة أرجون الإرهابية تخطف الضباط البريطانيون وتجلدهم على قارعة الطريق دون أن يقوى البوليس البريطانى على هذه الحملة . وبذلك بدأ اليهود يقاومون العرب والانجليز على السواء مما اضطر بريطانيا إلى الجلاء عن فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ إذقامت بسحب موظفيها وجميع قواتها من البلاد غير عابئة بقرارات الأمم المتحدة ولا بمصالح البلاد الكبرى . وبذلك هيأت الجو الصالح للصهيونيين ليضموا أيديهم على مرافق البلاد ومراكزها الحيويه ، والاستيلاء على الأسلحة والمعدات الحربية ومينائى عكا وحيفا .

وكون العرب جيش التحرر الوطنى الذى انضم إليه المتطوعون من جميع أنحاء العالم العربى ووقعت مذبحة ياسين التى راح ضحيتها عدد كبير من النساء والرجال وقد أعلن اليهود إنشاء دولتهم فى نفس الدقيقة التى انتهى فيها الحكم البريطانى . وقد اعترفت بها أمريكا بعد إنشائها بساعات .

— ٥ —

وبدأت الجيوش العربية الحرب فى الأرض المقدسة دون استعداد . وقد استطاعت هذه الجيوش — وخاصة الجيش المصرى — بالرغم من كل عوامل التآمر التى أحاطت بها إحراز انتصارات رائعة على أرض فلسطين . لولا أن تدخلت السياسة الخاصة فى الدول العربية للاستعمار لإقرار هدنة مفتعلة فى نفس اللحظات الحاسمة .

فقد تقدمت القوات المصريه من العريش فى اتجاهين : الأول أزاء الساحل الفلسطينى حتى وصلت إلى اسدود على بعد عشرين ميلا جنوبى تل أبيب عاصمة إسرائيل . والثانى زحف إلى الداخل عبر الأراضى العربية نحو بير سبع والخليل فبيت لحم حتى أشرفت هذه القوات على الضواحى الجنوبية لمدينة القدس .

غير أنه حدث بعد بدء القتال بثلاثة أيام أن قدم مندوب الولايات المتحدة فى مجلس الأمن اقتراحا بوقف القتال فى فلسطين . وفى ٢٩ مايو قرر مجلس الأمن وقف القتال لمدة شهر واحد على أن يحرم على كلا الفريقين فى خلاله جلب الأسلحة والمحاربين إلى فلسطين . أما المهاجرون اليهود فيسمح لهم بدخول فلسطين على ألا يدربوا على القتال .

ولم يطبق قرار الحظر إلا على العرب وحدهم أما اليهود فقد أعطتهم الهدنة فسحة من الوقت لتنظيم قواتهم وجلب السلاح . وتدريب المهاجرين حتى إذا ما تجدد القتال فى ٨ يوليو ظهر رجحان كفة اليهود فى مختلف جهات فلسطين وخاصة فى سلاح الطيران والمدفعية الثقيلة والمدرعات فى نفس الوقت الذى بقى فيه العرب على حالهم من نقص فى السلاح والمعدات . فقد استطاع اليهود استيراد الأسلحة الحديثة من دول شرق أوربا وأخذت ألوف المهاجرين الذين هم فى الحقيقة محاربون مدربون تتدفق على إسرائيل .

ثم استؤنفت الحرب ولكنها لم تستمر أكثر من عشرة أيام إذ تدخل مجلس الأمن مرة أخرى وأوقف القتال وفرض الهدنة الثانية (١٨ يوليه ١٩٤٨) وكان اليهود قد كسبوا فى هذه الأيام العشرة مزيدا من أرض فلسطين يبلغ ثلاثة أضعاف ما حصلوا عليه فى الجولة الأولى .

وتآمر جلوب حين سحب الكتيبة الأردنية التى كانت ترابط فى منطقة اللد والرمله ليمكن اليهود من احتلالها وقد شرد من أهل هذه المنطقة وحدها نحوا من ١٠٠ ألف عربى .

واغتال اليهود الكونت برنادوت فى القدس بيد جماعة من الصهيونيين .

ولم يقف اليهود عند هذا الحد . بل تحدوا قرار الهدنة واتجهوا إلى غزه

فى اكتوبر عام ١٩٤٨ وعزلوا قوة مصر فى الفالوجه والتى رفضت التسليم رغم تشديد الحصار عليها خلال مدة ثلاثة شهور .

وفى ديسمبر عام ١٩٤٨ اندفعت قوات يهوديه إلى يمين القوات المصريه فى طريق السيارات الممتدة من بير سبع حتى قناة السويس وتوغلت داخل حدود مصر فى سيناء ثم بدأت مفاوضات لعقد هدنة دائمة بين مصر وإسرائيل حددت فيها خطوط الهدنه .

وفى نفس الوقت شن اليهود هجوماً آخر على الجبهة الشمالية حيث كان جيش التحرير العربى بقيادة فوزى القاوقجى يحتل الجزء الشمالى من فلسطين . وقد أفلح اليهود فى تشتيت هذا الجيش وانتزاع المنطقة التى كان يحتلها . بل توغلوا داخل لبنان واحتلوا بضعة قرى لبنانية . كما اندفع اليهود صوب العقبة على البحر الأحمر فوصلوا ساحل البحر وأقاموا ميناء « إيلات » بجوار العقبة .

واستطاع اليهود الاحتفاظ بما احتلوه من أرض فلسطين فى اتفاقية الهدنه التى عقدوها مع مصر والدول العربية .

وبقى من فلسطين فى غير أيدى اليهود : منطقة قطاع غزه ومنطقة غربى الأردن وقد احتلتها القوات الأردنية .

أما القدس فظلت مقسمة بين العرب واليهود . فالأردن تسيطر على المدينة القديمة وتشمل أكثر الأماكن المسيحية المقدسة . واليهود يحتلون المدينة الجديدة وتفصل بينهما أسلاك شائكة .

وفى ديسمبر عام ١٩٤٩ قررت الأمم المتحدة تدويل القدس وقبلت الدول العربية هذا القرار كحل يحول دون ابتلاع إسرائيل لمدينة القدس . ولكن

كلا من الأردن وإسرائيل رفضت قرار التدويل لم تلبث إسرائيل أن تحدت القرار فأعلنت « القدس » عاصمة للدولة ونقلت إليها دوز حكومتها .

واستشهد فى معركة ١٩٤٨ عبد القادر الحسينى وعدد كبير من أبطال العرب المجاهدين .

ثم أصدرت الدول الكبرى (بريطانيا ، فرنسا . الولايات المتحدة) فى مايو عام ١٩٥٠ قراراً أعلنت فيه تصميمها على المحافظة على السلام والاستقرار فى هذه المنطقة ولم ينفذ هذا القرار إلا لمصلحة إسرائيل وحدها بل إن بعض هذه الدول التى تعهدت بصيانة السلام فى المنطقة هاجمت مصر فى عام ١٩٥٦ كما تمكنت إسرائيل بفضل تأييد الدول الكبرى — وخاصة أمريكا — من تلقى المساعدات العسكرية الضخمة التى مكنتها من توطيد أقدامها فى هذا الجزء من العالم الإسلامى وهو قلب القومية العربية .

وفى مقابل هذا عقدت الدول العربية ميثاق الضمان الجماعى ومعاهدة الدفاع المشترك عام ١٩٥٠ وإن كان هذا الميثاق لم يوضع موضع التنفيذ .

ثم توالى الهجوم الإسرائيلى الغادر على الحدود العربية : على غزه وسيناء والأردن وسوريا . وكان أقوى هذه الأحداث هجوم الصبحه الذى كان جرس الخطر الذى دفع مصر إلى عقد صفقة الأسلحة التشكيه مما كان له أبعد الأثر فى تحول موقف إسرائيل وتأهبها لإعلان حرب وقائية بواسطة فرنسا وانجلترا فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ حيث قامت باحتلال غزه وجزء من صحراء سينا ثم ارتدت على أثر قرار مجلس الأمن والإنذار الرومى .

— ٦ —

عسكرت الجيوش العربية الخمسة التى دخلت معركة فلسطين سنة ١٩٤٧ فى مناطق محددة :

الجيش الأردنى فى منطقة رام الله. والعراقى فى منطقة جسر الجامع . والمصرى فى منطقة غزه . السورى فى منطقة صفد وسمخ · اللبنانى فى منطقة الجليل الغربى وكانت قيادة الجيوش العربية للملك عبدالله ملك شرق الأردن وحليف الإنجليز · وقد وزع الجنرال جلوب كتائب الجيش العربى على الجبال الواقعة فى المنطقة العربيـة حسب قرار التقسيم · وكان ينفذ أوامر لندن التى تقضى بأن يقف الجيش العربى على الحدود المقررة للعرب حسب قرار التقسيم وألا يشترك فى حرب جدية ضد اليهود

وفى ٨ يوليو سنة ١٩٤٨ وقبل انتهاء الهدنه بيوم واحد سحب جلوب أقوى كتيبة فى الجيش الأردنى من ميدان القتال لحوات مجرى الحرب لصالح إسرائيل وكان جلوب قد استولى قبلا على سلاح المجاهدين الفلسطينيين فى منطقة الرمله · وبذلك تمكن اليهود من التقدم لاحتلال المنطقة دون قتال واضطر أكثر من ١٥٠ ألف فلسطينى من إلى الهجرة فضلا عن عدد ضخم قتل فى الهجوم الغادر

أما الجيش العراقى فقد انتظر فى منطقة جسر المجامع بضعة أيام ثم انتقل إلى منطقه نابلس بحجة عجزه عن اقتحام المنطقة الأولى · وفى منطقة نابلس رابطت القوات العراقية على الحدود المرسومة للعرب بموجب قرار التقسيم ·

— ٧ —

عند ماعين هربرت صمويل البريطانى اليهودى أول مفوض سامى لانجلترا فى فلسطين أدلى بتصريح قال فيه .

« انه يجب أن توضع فلسطين فى حالات موافقة للهجرة اليهودية والاستعمار اليهودى . وأن تمنح أكثر امتيازات المشاريع التى تحتاج إليها البلاد للهيئات اليهودية . وأن يوسع نطاق التعليم والتربية القومية اليهودية وأن تتمتع البلاد

بالحد الأقصى من الحكم الذاتى لكى يتمكن القائمون عليها فى النهاية من تأسيس دولة مستقلة تحت إشراف أكثريه يهوديه . »

وعلى ضوء هذه الصورة وضعت فلسطين تحت سلطان اليهود ويجب أن نذكر بالتقدير أن عرب فلسطين قاموا بدور خطير فى سبيل مقاومة الاستعماريين الانجليزى واليهودى . وكانوا مثلا للتضحية والبطولة وهم يقاومون قوتين عالميتين غادرتين .

وإذا كان لنا أن نذكر شيئاً فهو التنافس والانقسام بين الأحزاب فى فلسطين وموقف ملوك العرب الذين كانوا يثبطون الهمم ويوقفون حركات الكفاح لحساب الاستعمار .

وقد أقصى عرب فلسطين عن تحرير بلادهم وكان فى الإمكان أن تتاح لهم الفرصة للدفاع عن بلادهم بدلا من الجيوش العربية التى تنازعت واختلفت .

ولم ينته أمر فلسطين عند هذا الحد . بل إن للعرب جولة أخرى قريبة يأخذون فيها بثأرهم ويعيدون أرض الآباء للأبناء .

المخرجون الفلسطينيون

— ١ —

أخطر قضايا العالم الإسلامى كله : قضية المخرجين الفلسطينيين التى أطلقت عليها الصحف خطأ طوال السنوات الماضية : قضية اللاجئين . ذلك لأن هـذا المليون من المخرجين ليسوا فى حقيقة أمرهم لاجئين . إنما هم قوم أخرجوا من وطنهم عنوة فاضطروا إلى الهجرة والإقامة فى أطراف وطنهم فلسطين المحتل بالقوات الصهيونية المغتصبة التى ليس لها أى حق شرعى فى احتلال هذا الجزء الذى هو قلب الأمة العربية التى هى أقوى مناطق العالم الإسلامى تماسكا ووحدة . فضلا عن أن بيت المقدس الذى يقوم بها هو قبلة أصحاب الاديان المنزلة على السواء .

ولا شك أن « بريطانيا » تعد المسئولة الأولى فى نظر التـاريخ والضمير العالمى عن تشريد هذا العدد الضخم من المواطنين . فهى التى ساعدت اليهود على تهويد المنطقة فى مدى ٣٠ عاماً (١٩١٧ — ١٩٤٧) وكانت لها محاولات ضخمة رمت بها إلى ترحيل العرب عن بلادهم . وسلب أراضيهم وقراهم .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية قرر المؤتمر اليهودى العام فى الولايات المتحدة أن تـكون فلسطين دولة يهودية وأن يجلى عنها العرب إذا كانوا يمارضون فى ذلك وعند ما عقد حزب العمال البريطانى مؤتمره عام ١٩٤٥ قرر تحويل فلسطين إلى دولة يهودية وإخراج سكانها العرب . وقد جرت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية محاولات لهذا الغرض .

فلما تولى حزب العمال الحكم كان من أهم الأعمال التى قام بها تنفيذ القرار الخاص بفلسطين .

وفى نفس الوقت كانت أمريكا قد اشتركت فى المؤامرة . نظراً لتركيز الصهيونية العالمية لقوتها فى الولايات المتحدة : حكومة وتجارة وصحافة وإذاعة .

وفى خلال الفترة (٢ نوفمبر ١٩١٧ — ١٩٤٨) أجريت عمليات خطيرة أريد بها « تهويد » فلسطين وحرمان أصحابها العرب منها . كان أهمها عمليات الهجرة الضخمة التى أريد بها إبلاغ عدد اليهود فى فلسطين عدداً مساوياً لعدد العرب . وإضعاف الفلسطينيين . وانحياز لجان التحقيق إلى صالح اليهود . وزيادة تسليحهم وتدريبهم فضلا عن جرائم البطش والتنكيل والابادة فى دير ياسين وطبريا والناصرة والخليل .

وعند ماأعلن البريطانيون فجأة إنهاء انتدابهم على فلسطين انسحب جيشهم منها بعد أن سلم لليهود معظم المدن والقرى العربية . وترك للقوات العسكرية اليهودية كميات وافرة من من الأسلحة والعتاد والمصفحات .

ودخلت الجيوش العربية النظامية — بعد الكتائب المجاهدة — أرض فلسطين لتحريرها وقد فشلت الحملة بالدس والتآمر . وانتهى الموقف بتشريد مليون عربى فلسطينى

وقد جرت فى خلال هذه الفترة (١٩٤٦ — ١٩٥٧) محاولات لتحويل اللاجئين إلى مجاهدين غير أن هذه الجهود فشلت . وكانت المشكلة الضخمة هى إعانة هؤلاء اللاجئين على الحياة والعيش . وجمع التبرعات لإغاثتهم . وقد حاولت اللجنة العربية العليا هذا فأقام الاستعمار العراقيل فى وجهها وحيل بينها وبين وصول التبرعات المالية إليها .

وأدركت الدول الاستعماريه أنه مادام الفسلطينيون مشردون فى الأقطار العربية متمسكون بحق العودة إلى بلادهم فإنه يخشى من نتيجة ذلك على مصير الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين . لذلك أسرعت أمريكا فأنشأت وكالة لإغاثة اللاجئين رغبة منها فى القضاء نهائياً على مليون فلسطينى بإماتتهم تدريجياً . والتخلص منهم .

وقد حرصت هذه الوكالة ألا يشترك فى عملها أحد من العرب .

وما أن باشرت الوكالة أعمالها فى يونيو عام ١٩٥٠ حتى تكشفت حقيقة أهدافها الرامية إلى تصفية اللاجئين بإضعاف روحهم المعنوى . وسحق شعورهم الوطنى وحملهم على قبول الأمر الواقع . وإزالة فكرة استعادة فلسطين من أذهانهم . كما جرت محاولات كثيرة لفصم روابط الاتحاد بين صفوف الفلسطينين وبث الدعاية ضد زعمائهم وضد الدول العربية مستهدفين حمل اللاجئين على اعتبار الدول العربية هى المسئولة عن كارثتهم وليست بريطانيا ولا الولايات المتحدة .

وقد فشلت كل هذه المحاولات وثبت أن الروح العربى فى المخرجين قوى غاية القوة وأنه لا سبيل إلى تحطيمه بل ان كل هذه المحاولات زادته قوة وضاعفت يمان أهل فلسطين بالعودة إلى وطنهم السليب .

وقد أعلن الفلسطينيون المخرجون غير مرة أنهم يتمسكون بحقهم الكامل فى العودة إلى بلادهم ورفضوا مبدأ التعويض إذ لا يمكن بأى حال قبول تعويض عن الوطن الذى هو جزء من التاريخ .

ولاشك أن مبدأ التعويض ليس إلا حلقة من سلسلة المؤامرات الاستعماريه لتصفية القضية الفلسطينية على أساس التخلص من اللاجئين فضلا عن أنه ليس فى نية اليهود ولا حلفاءهم أن يدفعوا تعويضاً حقيقياً للعرب كما رفض المخرجون مشروع تسهيل سفرهم إلى استراليا وكندا والولايات المتحدة والبرازيل وتزويدهم ببعض المال لمباشرة أعمالا فى تلك الأقطار .

يبلغ عدد اللاجئين ٢٥٧و٩٧٨ موزعين على لبنان وسوريا وغزه والأردن والعراق ومصر . منهم ٢٣٥٠٧ فى المنطقة التى تحتلها إسرائيل و ٩٠ ألف فى طولكرم والمثلث . ويسكن ثلث اللاجئين فى ٦٠ مخيما يتراوح عدد سكانها بين بضعة مئات فى مخيم واحد إلى ٢٠ ألف فى مخيم آخر . وتتألف أكثر أماكن السكن فى المخيمات من الخيام وفى بعض الأماكن من الشكنات والأكواخ وقد ثبت أن هذه المخيمات فى حالة رديئة فلا تقى برد الشتاء ولا حر الصيف ولا تصمد أمام العواصف .

أما الثلثان الباقيان فيعيشان فى المدن والقرى . وهناك فريق من اللاجئين يقيم فى الحفر والكهوف والمغارات فى الجبال أو فى المقابر القديمة . ومنهم من يقيم تحت مظلات من الخيش والخرق البالية أو تحت عرائش من فروع الأشجار وأوراقها .

ويتلقى بعض أطفال اللاجئين التعليم ولكن عدد ١٢٦٤٢١ من الأطفال محرومين منه وهناك سوء التغذية وضعف مقرراتها إلى حد أضعف مناعتهم فى مقاومة الأوبئة والأمراض .

وبالرغم من أن الهدف التى تقصد إليه الوكالة الدولية هو تصفية مسألة اللاجئين نهائياً سواء بالقضاء عليهم أو ابقائهم من العودة إلى أرضهم إلا أن الفلسطينيين بعد مرور ثمانية أعوام ما زالوا ملتهبى الشعور مؤمنين ببلادهم وبحقهم فى العودة .

وتصرف الهيئات الدولية للمهاجرين مرتبات زهيدة ومخصصات ضئيلة بالنسبة للمخصصات التى تصرف للقائمين على هذا العمل من الأجانب وجملة المخصصات

لإغاثة اللاجئين هى ٤٠ مليون دولار ، تدفع منها الدول العربية والإسلامية ٨ مليون دولار تقريباً . ولكن المنصرف على اللاجئين لم يزد عن ١٨ مليون دولار وهو مبلغ ضئيل جداً . أى أن جملة ما يصيب كل لاجيء لا يزيد فى العام عن ١٩ دولاراً أى حوالى ٧٨٠ قرشاً سنوياً أى ٦٥ قرشاً شهريا فى العام أى ٢٢ مليما فى اليوم . وهو مبلغ تافه جداً لا يكفى أن يكون وسيلة لشىء إلا للانتحار البطىء .

وقد درجت الوكالة على أن تحذف كل عام عدداً من اللاجئين من سجلاتها تحقيقا للاتجاه الاجرامى وقد حذف عام ٥٢ : ٤٥٨٠٩ لاجئا واعترفت بذلك فى تقريرها الرسمى .

ويتوزع المهاجرين على الوجه الآتى :—

٤٨٦ر٦٣١ فى فلسطين وشرق الأردن .

٢١٢ر٦٠٠ فى غزة .

١٠١ر٦٣٦ فى لبنان .

٨٦ر١٩١ فى سوريا .

٢٤ر٣٨٠ فى فلسطين المحتلة .

٨ر٠٠٠ فى العراق .

٩ر٠٠٠ فى مصر .

٢٠ فى سائر الأقطار العربية والسعودية واليمن وعدن والكويت والبحرين وليبيا .

السعوديون فى جزيرة العرب

اتصلت الدعوة الوهابية بالبيت السعودى. وكان محمد بن عبد الوهاب قد بدأ دعوته عام ١٧٣١م ثم اتصل بآل سعود فنصروه وأيدوه . وتزوج محمد بن سعود بابنة محمد بن عبدالوهاب فولدت عبد العزيز الذى خلف أباه عام ١٧٥٧ م وجمع بين سلطان جده ابن عبد الوهاب من الوجهة الدينيـة ووالده سعود من الناحية السياسية وبذلك دخلت الدعوة الدينيـة ميدانهـا السياسى واستولى على مكة عام ١ ١٨ .

ومن ثم أصبح السعوديون موئل هذه الدعوة وسيفها المحارب وباسمها فتحوا الرياض ووصلت الدعوة الجديدة إلى أطراف الجزيرة وإلى حدود اليمن . ثم استولى السعوديون على بلاد الحجاز وعلى مكة وامتد سلطانهم إلى الحسا وغيرها من نواحى شبه الجزيرة . وقد استتب الأمر لسعود بن عبد العزيز فأصبح أمام الوهابيين وزعيمهم الأكبر . وقد أوفد جيشاً إلى العراق وكربلاء عام ١٧٩٧ . لتحطيم مزارات الشيعة بالنجف والكاظمية وغيرها وظل أمر السعوديين فى قوة حتى عام ١٨٠٧ عندما بعثت تركيا محمد على الذى حارب الوهابيين وأزال سلطانهم عن الحجاز الذى عاد إلى حكم العثمانيين عام ١٨٢٤ بعد أن بقى تحت سلطان مصر زمنا حتى استولى آل سعود مرة أخرى على الحجاز كله عام ١٩٢٥ .

وقد وقفت تركيا أمام الدعوة الوهابية التى ظهرت بنجد وأمام محاولاتها لدخول مكة وهدم مزاراتها وقفة المترقب فكانت ترسل لهم بين الحين والحين جيشا لردهم أو تغرى القبائل بعضها ببعض لتوقع بينهـا العداء حتى يظل لها

لها السلطان ولم تنظر تركيا إلى الحركة الوهابية نظرتها إلى الدعوات الإصلاحية وإنما رأت فيه قوة سياسية شابة تريد أن تجتاح جزءا من أملاك الدولة العثمانية ولذلك سرعان ما سلطت عليها «محمد علي» الذي كان يعمل على إقامة امبراطورية عربية ويطمع في أن تكون الحجاز قلب هذه الامبراطورية لولا أن عاجلته أوربا وحطمت قوته في ناڤارين ·

ومن ثم عاد الحجاز مرة أخرى إلى حوزة تركيا التي كانت تسعر الفتن بين آل سعود وآل الرشيد حتى انتهى الأمر بخروج الأمير عبد الرحمن الفيصل آل سعود الكويت ونزوله ضيفا على مبارك الصباح حتى رمضان ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) حين خرج عبد العزيز آل سعود على رأس أربعين من رجاله لاسترداد ملكهم فهاجم الرياض وانتزعها من آل الرشيد وبذلك عاد لآل سعود ملكهم الضائع .

وبدأت حركات السعوديين في الجزيرة تلفت نظر أوربا · وأخذت كل من ألمانيا وانجلترا تحاول أن تخطب ود ابن سعود · وقامت الحرب بين شمر ونجد عام ١٩١٥ وفاوض الانجليز الملك عبد العزيز مفاوضة انتهت باعترافهم بحكومة نجد ·

ثم تجدد الخلاف بين السعوديين والهاشميين . هذا الخلاف القديم الذي بدأ عام ١٨٧٥ عندما حاول الشريف غالب القضاء على عرش السعوديين · وأصبحت الحرب سجالا بين الهاشميين والسعوديين ، غير أن هذه الحملات توقفت حينا ثم تجددت مرة أخرى عندما دعا الشريف حسين نفسه (ملك العرب) واعترض السعوديون على هذا اللقب .

وعقد مؤتمر الكويت سنة ١٩٥٣ لتسوية الخلاف وانتهى بالفشل ولم

يلبث السعوديون أن اتجهوا إلى السيطرة على الحجاز بعـــد أن تبين لهم مدى اضطراب الأمن فيـه وكان ذلك فى ١٩١٩/٦/٤ وقد عرفت بريطانيـا مكانة السعوديين فى الجزيرة بعد أن بدأت زعامة القبائل تتوحد تحت سلطانهم وأصبح من المستحيل تـكوين اتحاد عربى بزعامة الشريف إذ أصبح من غير المعقول أن يقبل ابن السعود زعامة الشريف بعد اعتراضه على تلقيب نفسه بملك العرب .

هذا فى نفس الوقت الذى كان الشريف لا يضع قوة السعوديين وأهل نجد موضع التقدير الـكامل على ما عرف عنهم بالتنظيم الـكتائبى وأنهم لم يكونوا قد انهزموا فى معركة قط .

وقد كان اضطراب موسم الحج (أغسطس ١٩٢٤) الشرارة التى دفعت إلى مهاجمة السعوديين للحجاز ودخولهم مكة (١٣ اكتوبر ١٩٢٤) وأعلان الملك عبد العزيز أنه لا يطمع فى ملك الحجاز وأنه سيجعل الأمر شورى بين أقطاب العالم الإسلامى .

وانتهى الأمر بأن سقطت حكومة الهاشميين وقضى على الآمال التى كانت معلقة على إقامة حكومة عربية برئاسة الشريف حسين . وفى ٨ يناير ١٩٢٦ نودى بالملك عبد العزيز ملـكا على الحجاز وسلطانا على نجد .

ثم أعلن الملك عبد العزيز أنه يعلن عدوله عن فـكرة المؤتمر الإسلامى لأن دعوته التى وجهها إلى الشعوب الإسلامية وإلى قادة المسلمين لم يجبه عليها أحد .

ولعل أبرز مواقف حياة عبد العزيز آل سعود هو أعادة فتح الرياض .

المغرب العربي

نضال مراكش

ليست النار التى اندلعت منذ سنوات فى شمال أفريقيا وفى مراكش وتونس والجزائر فى سبيل التحرر بالشىء الجديد الغريب . وإنما هى حلقة من سلسلة طويلة من أعمال الكفاح الدائب فى سبيل الحرية . هذا الكفاح الذى بدأه المغرب منذ اليوم الأول للاحتلال . فهو لم يعترف يوما بهذا الاستعمار ولم يقبله ولم يصبر عليه . وإنما ظل خلال هذه السنوات الطويلة منذ أكثر من قرن وعشرين عاما يكافح ويصارع ويتلقى فى صدره نيران مدافع الغاصب ، ويموت شهيدا فى سبيل حرية بلاده ، يموت بالمئات والألوف ، ولم ترده يوما هذه الوسائل الارهابية ولا القوى المادية ولا عوامل القمع والتقتيل عن أمله وعقيدته وهدفه . وتلك طبيعة النفس العربية المغربية فى صمودها وإصرارها على الكفاح وحرصها على الحرية .

لقد وقع مئات القتلى فى مراكش فى خلال العالم قبل الماضى بمناسبة خلع سلطان مراكش الشرعى سيدى محمد بن يوسف وحشدت فرنسا نحو ربع مليون جندى مؤيدا بالدبابات والطائرات لمحاربة هذا الشعب الأعزل المكافح الذى عاون فرنسا فى الحرب العالمية الماضية عندما خرت على ركبتيها صاغرة ذليلة أمام الاحتلال الألمانى .

وقد نسيت فرنسا - دولة الثورة الفرنسية والتى كان شعارها الحرية والأخاء والمساواة — نسيت كل هذه المبادىء وكفرت بها ولم تقدر أنه ليس من الممكن

أن يعيش شعب فى النصف الثانى من القرن العشرين دون أن يكون حرا .
وغفلت عن تقدير النتائج الخطيرة التى يمكن أن تترتب على الإندفاع فى سبيل استخدام القوة الغاشمة . وليس الذنب كله فى هذا هو ذنب فرنسا وإنما ذنب الخونة صنائع الاستعمار الذين كانوا يعاونون فرنسا هناك أمثال الجلاوى وأعوانه ، ولا يقابل هذا من كفاح الشعب ، هذا الكفاح المرير الذى اشتركت فيه قبائل البربر التى طالما زعمت فرنسا أنها خاضعة لها وقد اضطرت هذه القبائل فرنسا إلى إرسال جنود المظلات الذين هبطوا فوق التلال التى تسيطر على مناطق البربر .

ولست أعتقد أن أية تسوية عن طريق مؤتمرات أو مفاوضات يمكن أن تثنى هذا الشعب عن هدفه وكفاحه .

ويمتد كفاح مراكش منذ ۱۹۱۲ يوم أرغمت فرنسا وجيوشها المحتلة سلطان البلاد على توقيع معاهدة لم تنفذ على جورها سنوات طويلة عانى أثناءها الشعب المراكشى أقسى ماعاناه شعب حرم استقلاله . وفى خلال هذه السنوات الطويلة عملت فرنسا على هدم الوحدة المراكشية ومنع المراكشيين من الاشتراك الفعلى فى إدارة شئون بلادهم وحرمانهم من كل حرية خاصة أو عامة كما عمدت فرنسا منذ اليوم الأول على فرض نظام لا يمكن أن يتيح إلا الصدام بينها وبين الوطنيين . فقد وضعت يدها على كل شىء . وإذا بالبلاد تعيش فى ظل جاسوسية غريبة ، وانبث أعوانها فى كل مكان حتى أصبح مجرد الحياة عبئا لا يطاق واستولت فرنسا على أموال الأوقاف الضخمة وممتلكاتها الكبيرة وأخذت تستغلها فى سبيل تنمية ثروة المالية الفرنسية .

وأضافت إلى ذلك أنها خلقت سياسة عنصرية . وبدأت تقسم البلاد إلى مناطق صغيرة تضرب حول كل منطقة منها سياجا من الحراب . وأصبح

المراكشي لا يملك حق التنقــل في بلاده إلا بجواز سفر . وجميع الأراضي الشاسعة الموجودة في مراكش واقعة في أيدي زمرة من الرأسماليين الفرنسيين يتحكمون كيف شاءوا في حياة مراكش اليومية دون أن يكون لهم غرض سوى امتصاص دم شعب لا ينتمون إليه ، وضربت فرنسا بيد من حديد على كل ما يتصل بالحريات العامة ومنعت حرية الاجتماعات والصحافة وأصدرت قرارا يقضي بالشروع في تنصير سكان جبال الأطلس والاستحواذ على مقاليد التعليم في مدارسهم وتحويل قانونهم عن القانون الإسلامي العام .

وما يزال حكم الإرهاب المنتشر في البلاد يواصل عمله . فلا تخلو سنة من المآسي المروعة حيث يساق الناس إلى المقصلة وإلى المنفى وإلى السجن ، وأصبح جميع الزعماء يعيشون منذ سنوات طويلة في المنافي القاحلة في قرب أفريقيا السوداء وصحرائها الجرداء .

ولما وجدت فرنسا أن مولاي محمد الخامس سلطان مراكش يعمل مع شعبه في سبيل الحرية ، عزلت السلطان وعينت بدلا منه سلطانا من صنائعها .

وقاوم الشعب هذا بكل ما يملك من قوة ولكن فرنسا حاصرته وبدأ رصاصها يحصد الشعب حصداً وقاست مراكش الباسلة فترة دامية اختلطت فيها الدماء بالأشلاء .

وإذا عدنا بالذاكرة وجدنا أنه في أكثر من مناسبة كانت مراكش تقاسي هذه المجازر البشرية وكان أشدها هولا ما حدث في الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٩٥٢ بمناسبة عرض قضية مراكش على هيئة الأمم حيث بلغ عدد الضحايا ألفي قتيل من الوطنيين . في نفس الوقت الذي قامت فيه فرنسا بمنع إقامة الجنائز للضحايا .

* * *

ولا يقف أمر فرنسا فى مراكش إلى حد كبت الحريات وتقتيل الآمنين ولكنها تعمل من ناحية أخرى على « فرنسة » هذه المناطق العربية الصميمة. يبدو هذا واضحا فى كلام الماريشال جوان « إن الفرنسيين يجب أن لا يكونوا أجانب فى مراكش والاصلاحات المعروضة فى مراكش إنما ترمى إلى تنظيم الحياة العامة فى هذه البلاد على أساس مشاركة سياسية » ، ومعنى هذه المشاركة أن يكون الفرنسيون هم السادة والمراكشيون هم العبيـــد . وقد وصفت هذه المشاركة بأنها إيجاد مجتمع « مراكشى فرنسى » أوربى . وفى طليعة المشروعات المعروضة باسم الإصلاح تجديد نظام المجالس البلدية على أساس اشتراك الفرنسيين بالانتخاب وبالتساوى مع المراكشيين أصحاب البلاد الشرعيين وقد عرض هذا المشروع على السلطان محمد الخامس فرفضه .

وقد اضطرمت حركة المقاومة فى مراكش — وكان السلطان محمد الخامس على رأس الكفاح فرأى الفرنسيون القضاء على الحركة بعزل سلطان مراكش ونفيه وفى مايو ١٩٥٣ نجح الفرنسيون فى تحريض عدد من صنائعهم وعلى رأسهم تهامى الجلاوى باشا مراكش ضد السلطان ليطالبوا الحكومة الفرنسية بعزله وزحف الجلاوى على العاصمة بفرسانه الماجورين . وتوجه يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٣ المقيم الفرنسى الجنرال جيوم إلى قصر السلطان حيث عرض على السلطان توقيع وثيقة التنازل عن العرش فمزق السلطان الوثيقة وفضل النفى وقد تم ابعاده فورا بالطائرة إلى كورسيكا .

وأقامت فرنسا سلطانا آخر هو محمد بن عرفه فى ٢٦ أغسطس ١٩٥٣ وكان السلطان محمد الخامس قد اعتلى العرش عام ١٩٢٧ وعمره سبعة عشر عاما وقد نقل إلى مدغشقر فثارت مراكش واستمرت أعمال العنف فيها حتى اضطرت فرنسا إلى اعادته ومنح مراكش الحكم الذاتى .

كفاح الجزائر

سجل الأمير عبد القادر الجزائرى انتصاراً باهراً بعد الضربة الأولى عام ١٨٣٠ فلم تلبث معركة الاستقلال والمقاومة أن بدأت فى مدينة قسطنطينية واستمرت الحرب سبعة أعوام متوالية دون هواده . استعمل فيها الفرنسيون كل أساليب الاجرام والقتل الجماعى . واحتل الفرنسيون قسطنطينية عام ١٨٣٨ على أكداس من الشهداء والدماء فلما أعطت الجزائر بيعتها إلى الأمير عبد القادر بتولى قيادة الحرب مضى يقاوم الفرنسيين سبعة عشر عاما مواجها أكبر قادة فرنسا التى أعدت لمقاومته أكبر قوة استعمارية شهدتها أفريقيا وانتهى الأمر بفعلة الدخيل بالغدر وأخذ عبد القادر أسيرا ونكل الفرنسيون بالعرب .

وأحل الفرنسيون العنصر الأوربى مكان العنصر العربى فى الجزائر خلال ١٢٥ عاما وغيرت أسماء قراها ومدنها وانتزعت الأرض من أهلها . ودخل الجزائر مليونان من السكان الأوربين واعتبرت فرنسا قطعة من الجزائر ليس لها جنسية واغتصبت أجود الأراضى وشرد أصحابها إلى الأراضى الصحراوية وبلغ جملة ما استحوذ عليه الفرنسيون والأجانب ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ فدانا من أجود الأراضى كما حولت المساجد إلى كنائس .

وقامت ثورة العرب فى الجنوب الغربى الجزائرى عام ١٨٦٤ بزعامة الشهيد سليمان ابن أبى بكر الذى جمع ما يلزم من سلاح . وانضم العرب الذين جندتهم فرنسا إلى راية سليمان ودامت الحرب قاسية فظيعه خمسة أعوام هلك أثنائها عدد ضخم من المواطنين . ودمرت خلالها قوى عديدة . ثم استقدمت فرنسا قوة عظيمة أخضعت بها أرض الجنوب .

وتزعم محمد المقرانى عام ١٨٧١ ثورة أخرى اندلعت فى وجه الاستعمار واستجاب لها الجزائريون .

وفى عام ١٩٠٦ قضى « مؤتمر الجزيرة » على استقلال بلاد المغرب الأقصى وقسمها إلى قسمين . فكان نصيب اسبانيا من هذا القسم المقاطعة الريفية وما يجاورها من الجبال القاحلة ودخل ما بقى من بلاد المغرب الأقصى فى حيازة فرنسا ونفوذها . غير أن اسبانيا ترددت فى احتلال بلاد الريف حتى عام ١٩٠٩ ثم احتلتها اقتداءاً بفرنسا ورفض الريفيون قيام هذا الاحتلال وقاوموه مقاومة جماعية ودافعوا عن ديارهم وظلوا يحاربون حتى أوائل الحرب العالمية الأولى .

واستمرت المقاومة فترة مابين الحربين ولم تتوقف وحشدت فرنسا نصف مليون جندى فى الجزائر ومع ذلك لم يستطع الأستعمار القضاء على المقاومة . وكلما اشتد بطش الفرنسيين واشتدت عملياتهم الحربية زادت قوة التحرير شدة وقد أقدم المجاهدون على هذا العمل بعد أن شن الفرنسيون حرب الابادة والقمع ضد السكان المدنيين فى الجزائر .

وقد بدأت المقاومة فى ٥ مايو ١٩٤٥ حيث وقعت مذبحة من أفظع المذابح الاستعمارية استمرت أياما وليالى شارك فيها أسطول البحر وقاذفات قنابل الجو والمصفحات والدبابات وقد استشهد فيها ٤٥ ألف منهم بين رجال ونساء وأطفال .

وفى أول نوفمبر ١٩٥٤ دخلت الحركة الوطنية الجزائرية فى تنظيم سرى جديد وأعلنت الثورة الكبرى فى كل جهات القطر الجزائرى وبدأ هجوم على نطاق واسع بعد أن استولى المجاهدون على كميات من سلاح الجند الفرنسى وفتك الاستعمار فى خلال هذه الفترة بما يزيد عن ١٢٠ ألف نسمة من الشيوخ والنساء والأطفال وقد قسمت الثورة القطر الجزائرى إلى ست مناطق تخضع كل منطقة

لزعيم سياسى وزعيم حربى وقد جهزت فرنسا أكثر من نصف مليون جندى يستعملون أحدث أسلحة حلف الأطلنطى منها ٢٠٠ طائرة وألف دبابة ومصفحة تصرف عليها حكومة فرنسا يوميا مليوناً من الجنيهات وتفقد فرنسا يوميا مالا يقل عن مائة رجل هذا إلى انهيار اقتصاد فرنسا وقد استطاعت فرنسا بخدعة آثمة القبض على زعماء الثورة فى الجزائر فى أكتوبر ١٩٥٦ وهم مسافرون بالطائرة من تونس إلى مراكش وعلى رأسهم أحمد بن بلا .

ولا ينسى فى حركة التحرير الجزائرية ما قام به رجال جمعية العلماء وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس عام ١٩٣٦ وما بعدها حيث استطاعوا القضاء على سلطان المتصوفة ورجال الطرق الذين استغلهم المستعمر الفرنسى وحاول الافادة منهم فى دعم سلطانه فقد اتجهت جمعية العلماء إلى الدعوة الاسلامية السليمة ودعم الثقافة العربية الحقه .

محمد عبد الكريم الخطابي

ما كاد الأسبان يحتلون شمال المغرب ١٩١٢ بعد أن اتفقوا مع الفرنسيين حتى هبت قبيلة بني درباغل بقيادة والد الأمير محمد عبد الكريم مولاى عبد العزيز للدفاع عن الاستقلال المغصوب . وقد استمرت الحرب بينه وبين الأسبان سجالا إلى عام ١٩٢٠ . فلما استشهد مولاى عبد العزيز ولى أمر القيادة محمد عبد الكريم وكان قد درس نظم القتال فى خلال المعارك التى كان يقودها والده .

ومضى يدافع عن أرض الريف إزاء هجمات الأسبان الذين كانوا يطمعون فى احتلال البقية الباقية من شمال المغرب .

وقد كون فرقا فدائية على غرار الكومندس تعمل على تمزيق جبهات الأسبان واغتنام الأسلحة منهم . وفى خلال هذه الفترة كان قواد الأسبان يعدون جيشا ضخما قوامه ٢٥ ألف رجل لكى يقضوا قضاءاً نهائياً على المقاومة الشعبية .

وكان من الطبيعى أن يقع الصدام بين القوات الأسبانية والجيش الريفى فى موقعة فاصلة هى موقعة « أنوال » . ولم يصمد الأسبان للضربة الأولى وبدأوا يتقهقرون وأخذ المراكشيون يتعقبون المنهزمين فسادهم الذعر والارتباك وتساقطوا صرعى وتقدم المغاربة إلى الأمام . واستولوا على ٢٠ ألف بندقية ومائتى مدفع وبضعة ملايين من الطلقات وقد انتهت المعركة بسحق الجيش الأسبانى إلى آخر رجل .

ولم يقف الأسبان مكتوفى الأيدى بل أرسلوا على جناح السرعة جيشا جديدا قوامه ٥٠ ألف رجل فى الوقت الذى استمر الأمير عبد الكريم يتوغل فيه إلى

مناطق شمال الريف التى كانت فى أيدى الأسبان ، وتابع زحفه شرقا حتى وصل إلى مدينة مليله . وبدأ يستعد لمهاجمة المراكز التى يحتلها الأسبان ولكنه اضطر إلى الاشتباك مع الأسبانيين فى معركة « وادى لو » ودامت المعارك سبعة عشر يوما وتضعضت قوة الأسبان مرة أخرى وانهزموا ومضى جيش الريف يزحف حيث سجل عدة انتصارات أخرى فى معارك دارا فويع وشفشاون وغرغير وأسر المراكشيون أكثر من ١٢٠ ألف جندى من الأسبان .

وكانت فرنسا تنظر بعين القلق إلى انتصارات عبد الكريم ، وتقوم بدعاية واسعة ضده فى جميع أنحاء المغرب . فلما بدا الخطر يحدق بمركز أسبانيا فى البلاد تحولت فرنسا عن موقفها وبدأت تحتك بالقوات الريفية فى الجبهة الجنوبية التى تمتد من مدينة وران إلى مدينة تارة .

وزعم الفرنسيون ليجروا المراكشيين إلى معركة أخرى فتمزق قواتهم — إن وادى ورغه الأعلى داخل فى حدود منطقتهم فبدأوا يرسلون قوات الاحتلال إليه فأسرع الأمير بدوره إلى احتلال تلك المنطقة .

وخاضت جيوش الريف الحرب بنفس البسالة والقوة اللتين خاضت بهما الحرب مع أسبانيا واشتبكت معهم فى معارك طاحنة طوال الثلاثة أشهر الأولى . واستولى الجيش الريفى على أكثر من مائة مركز من مراكز الفرنسيين وغنم أسلحة كثيرة .

وفى أواخر عام ١٩٢٤ كان قد مر على مجاهدى الريف أربع سنوات وهم يخوضون المعارك ضد قوات الاحتلال والمعركة تزداد أمامهم اتساعا . فى نفس الوقت الذى بدأت المجاعة فيه تنتشر بين القبائل .

وزاد الموقف حرجا أن الفرنسيين وحدوا قيادتهم فى سبيل مواجهة

المراكشيين وطوقت الجيوش الفرنسية والأسبانية منطقة الريف بجيش قوامه ٢٠٠ ألف جندى وبذلك حالت دون وصول التموين إلى المجاهدين . فما أن جاء عام ١٩٢٦ حتى كانت القوات العربية قد انهكت تماما واضطرت إلى التسليم .

وهنا خدع الفرنسيون الأمير عبد الكريم الذين قدموا له عهداً مكتوبا بالأمان ولكنه ما كاد يقع فى قبضتهم حتى قامت بنفيه وجميع أفراد أسرته إلى جزيرة ريئون حيث قضى أكثر من عشرين عاما .

* * *

تعد معركة « انوال » من أهم المواقع التى خاضها الأمير عبد الكريم . وقد تحدث عنها فقال « بدأت فى غسق ليل ٢١ يوليو ١٩٢١ حين قررنا أن نحاصر القوات الأسبانية المرابطة فى بلدة اغريفين وعددها يزيد على ٢٠ ألفا من الضباط والجنود المدربين المزودين بأحدث آلات القتال بينما كانت قوات عبد الكريم ١٢٥ جنديا ليس فى أيديهم من الأسلحة إلا البنادق .

وبعثت بالليل بمن حفروا خمسين خندقا حول مركز القوات الأسبانية التى تقرر محاصرتها ثم وزعت الجنود فى هذه الخنادق فظلوا مرابطين بها ثلاثة أيام حاولوا دون تحركها للخروج من الحصار المضروب دون وصول أى مدد إليها ..

وبعث عبد الكريم إلى قائد القوات المحاصرة بخطاب أنذره فيه بأن لا أمل فى فك الحصار . فرد الرسول بعجرفة وكبرياء . ثم بدأ عبد الكريم فى شن هجوم خاطف متقطع على القوات الفرنسية . أدال منهم بقوة مما حملهم على تسليم قواتهم المحاصرة . فأخذ قائدها وجنودها أسرى وغنم كل

ما لديها من الذخائر الحربية « وكان شهدائنا ٨ جنود وكان عدد قتلاهم أكثر من ألف وجرحاهم أكثر من ٣ آلاف » .

ومن أهم المعارك الأخرى معركة « واولو » على رأس جيش قوامه ٣٠ ألف وكان عدد العرب خمسمائة جندى ودامت المعركة ١٧ يوما واستشهد من العرب خمسمائة وقتل من أعدائهم خمسة آلاف .

وتقدم المارشال بيتان على رأس جيش قوامه ٤٠ ألفا من الضباط والجنود فألحق به عبد الكريم هزيمة لن ينساها الفرنسيون وذلك فى ميدان صنهاجه .

يبلغ تعداد المسلمين فى المغرب العربى ٢٤ مليونا منها ١٠ ملايين فى الجزائر و ١٠ ملايين فى مراكش و ٤ ملايين فى تونس .

أما الجزائر فهى الجزء الأوسط والأضخم من المغرب العربى الواقع فى شمال أفريقيا تحده شرقا تونس وليبيا وغربا مراكش وشمالا البحر الأبيض المتوسط وجنوبا أفريقيا الغربية وأفريقيا الاستوائية وتربطها سلسلة جبال الأطلس بتونس ومراكش .

وقد احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ بعد حرب دامت ١٧ سنة متتالية وفرضت عليها نظاما عسكريا ومدنيا تغيرت به كثيرا عن حالتها الأولى وعند ما استولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ كان هذا القطر من أجزاء السلطنة العثمانيه التى افتتحته سنة ١٥١٦ .

وعقب تعيين حاكم للجزائر سنة ١٨٣٤ ودخول الفرنسيين تدريجيا إلى المدن اختار الأهالى أميرا قاتلوا المستعمرين تحت لوائه هو « عبد القادر الجزائرى » الذى حارب الفرنسيين حتى اضطرهم إلى عقد معاهدة (دميشل) التى اعترفت فيها لعبد القادر بجميع العمالة الوهرانية وقد قام بتقوية سلطته فى البلاد التى تحت سيادته وألف جيشا منظما ، وفى سنة ١٨٣٩ نقضت فرنسا المعاهدة ، وحاربت الأمير عبد القادر حتى سنة ١٨٤٣ حربا غير متكافئة الطرفين ، أبلى فيها الأمير بلاء حسنا واضطر فى النهاية إلى الفرار إلى المغرب وتأليب سلطانه على الفرنسين فكانت معركة (ايسلى) سنة ١٨٤٤ بينهما وبعد غارات وحروب أخرى شنها الأمير على الفرنسيين ، تآمروا عليه مع سلطان مراكش فسلم نفسه إلى الفرنسيين سنة ١٨٤٧ ، فأرسل إلى طولون ليرحل منها إلى الاسكندرية أو عكا ؛ ولكن حكومة فرنسا المؤقتة أبقته أسيرا ثم نقلته إلى الاستانه ومنها توجه إلى الشام بعد إذن

الفرنسيين وتوفى سنة ١٨٨٣ . ولـكن الجزائر لم تتوقف عن الـكفاح بعد خروج عبد القادر ومضت تقف فى وجه الظلم وتقاوم وتتلقى رصاص المستعمرين وتقدم ضحايا جديدة وشهداء فى كل يوم ..

وفى خلال ذلك كان الاستعمار الفرنسى يسير على سياسة مستبدة يجرد فيها الأهلين من الأرض الصالحة للزراعة حتى أصبح ٨٦ فى المائة منهم عمالا زراعيين أو رعاة لا أرض لهم ولم تشتر الحـكومة الفرنسية الأرض ، ولـكنها أخذتها من أصحابها ثم أرغمتهم على تقديم المال إلى المستعمر كما أرغمتهم على العمل فى أرضهم إجراء مع تحديد الأجر الذى يدفع لهم ، ولها أن تعاقب من يرفض العمل على هذا الوضع الشائن :

وشهدت الجزائر صورا من العدوان منها حوادث ٨ مايو ١٩٤٥ حيث استشهد الألوف من خيرة الشبان والـكهول الذين خروا صرعى وهم يهتفون باسم الحرية . فقد قامت فى ذلك اليوم مظاهرات سلمية تحولت إلى معارك دامية دارت رحاها فى نواح كثيرة من القطر الجزائرى وراح ضحيتها أكثر من ٣٥ ألف قتيل وما يربو عن ذلك سجناء .

* * *

وتقع مراكش على الجناح الشمالى من المغرب الأقصى وقد وقعت هـذه البلاد تحت سلطان الاستعمار سنة ١٤٩٠ بعد أن استولى الاسبان على « ميليلة » واستمر قتال المغاربة من أجلها ومحاصرتهم لها منذ عهد احتلالها حتى سنة ١٨٩٠ . ثم أعلنت أسبانيا الحرب على المغرب واستمر كفاح المغاربة لها من سنة ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ ووقع احتلال تطوان وأرغمت الحـكومة على إمضاء معاهدة صلح التزمت فيها بدفع تعويض ضخم لأسبانيا ، وفى ١٣ أكتوبر ١٩٠٤

وقعت بين فرنسا وأسبانيا معاهدة اشتركت الدولتان فى بمقتضاها العمل الذى يجب اتخاذه من أجل احتلال المغرب .

ولم ينقطع جهاد أهل الريف فى سبيل استقلالهم يوما واحد . وكان أهم دور من أدوار الكفاح ذلك الذى قام بهالبطل الأمير محمد بن عبد الكريم ، فانه استطاع أن يبسط نفوذه على القبائل وأن يشمل إيمانها ويتقدم صفوفها غازيا مقاتلا ، فواجه قواتأسبانيا ، وعددها مئات الألوف فدحرها ثم واجه قوات فرنسا وأسبانيا مجتمعين فقتل منهم عشرات الألوف وغنم منهم الكثير وسجل أروع الصفحات فى تاريخ المغربالعربى المكافح .

وقد عمدت فرنسا إلى تقويض سلطة الحكومة المراكشية منذ اليوم الأول لاحتلالها ، فأصبح الملك الذى كان يصدر المراسيم فيما قبل بحريته يصدرها باقتراح من هذه الادارة أو باجبار منها ، وأصبح المستشار الفرنسى يتدخل فى سلطته ويحد منها .

كما استولتفرنسا على أموال الأوقاف الضخمة وممتلكاتها الكبيرة وبدأت تستغلها فى سبيل تنمية ثروة المالية الفرنسية ، وأضافت إلى ذلك أنها خلقت سياسة عنصرية وبدأت تقسم البلاد إلى مناطق صغيرة تضرب حول كل منطقة منها سياجا من الخراب وأصبح المراكشى فى بلاده لايملك حق التنقل إلا بجواز سفر ، وأرادت الهيئة أن تحول بين الشعب وبين التطور فخلقت ما اطلقت عليه اسم « مصلحة الآثار » ومهمتها الاشراف على البلاد بحيث لاتسمح باحداث أى تغيير فى أسلوب الحياة وبحيث تظل مراكش متحفا للآثار . ثم ساعدت الهيئة أفراد الجالية الفرنسية بالقوة على احتلال أراض شاسعة فيحاء بحيث تصبح مقادير البلاد الزراعية بعد مرور وقت كاف فى أيدى زمرة من الرأسماليين

الفرنسيين يتحكمون كيف شاءوا في حياة مراكش اليومية .

* * *

وفى تونس ، منذ ١٨٣٠ أسدلت فرنسا ستارا على هذا القطر الاسلامى الواسع بحيث لا ينفذ إليه شعاع واحد من النور . وفى خلال فترة قصيرة اغتصبت مقاليد الحكم من أيدى أصحاب البلاد فألغت الدستور وحلت المجلس التشريعى فجعلت مراسيم الباى لا تكون نافذة إلا بعد إمضائها من المقيم العام الفرنسى ، وخلقت ما سمته مجلس الشورى وجعلته خاصا بالفرنسين المقيمين بتونس وكان الغرض منه تنسيق جهود الجالية الفرنسية وجهود حكومة الحماية لا ستنزاف ثروة البلاد واستغلالها .

وهكذا شلت الحماية الفرنسية حركة التطور التى كانت تعم الشعب التونسى قبل عهد الحماية فأبعدت التونسيين عن تولى حكم بلادهم وانتزعت منهم حقهم الأول وهو حق التشريع .

ولأجل أن تسيطر فرنسا تمام السيطرة على الناحية الاقتصادية فى البلاد وجهت همها إلى الاستيلاء على الأراضى الزراعية فاتخذت كافة الوسائل الممكنة وفى مقدمتها اصدار التشريعات المختلفة لا نتزاع الأراضى من أيدى التونسين واقرار الفرنسيين بها فأصبح هؤلاء الفرنسيون هم المتحكمين فى حياة البلاد الاقتصادية .

وتبلغ مساحة الأراضى التونسية الصالحة للزراعة ٩ ملايين من الهكتارات من مساحة المملكة التونسية التى تقدر باثنى عشر مليون ونصف مليون من الهكتارات .

وكانت هذه الأراضى بطبيعة الحال قبل الحماية تحت تصرف الأهالى يعيشون

من محصولاتها ومن تربية المواشى فى مراعيها وكان بعضها ملكا للدولة أو للأفراد أو ملكا مشاعا بين القبائل ، والبعض الأخر تابع للأوقاف العامة والخاصة .

وما كاد الاستعمار يضع يده على تلك البلاد حتى اتجه إلى قسم من هذه الأقسام ورسم الطريق للاستيلاء عليه سالكا سياسة واحدة متتابعة الحلقات طول مدة الاحتلال . وخلعت فرنسا على سياسة السلب والنهب التى انتهجتها فى البلاد التونسية ثوبا من التشريع كما اتجهت سياسة فرنسا التعليمية منذ فرض الحماية إلى محو الروح القومية وذلك بمحاربة اللغة العربية والاستعاضة عنها باللغة الفرنسية ، وبتطبيق برامج خاصة لاخراج الناشئة عن قوميتها العربية وقطع الصلة بينها وبين ماضيها وتاريخها وذلك لتتمكن من ادماجها فى العنصر الفرنسى .

وقد بدأت أول حركة لمقاومة الاستعمار الفرنسى لتونس بعد عودة التونسيين الذى كانوا فى بعثات علمية فى أوربا عام ١٩٠٥ وكان للصحافة التونسية فضل السبق فى تنوير أذهان الشعب فكانت البؤره التى استطاع الشباب المثقف أن ينفذ منها إلى بث ما يضطرم فى نفسه من حقد على الاستعمار ومن دعوة إلى التحرر وكانت روح جمال الدين الافغانى تبدو واضحه فى هذه الكتابات وليس هذا غريبا بعد أن زار تونس محمد عبده ومحمد فريد .

وألف حزب المقاومة عام ١٩٠٨ بقيادة (على باشى جمعه) وبعد أن انتهت الحرب الكبرى الأولى كان عبد العزيز الثعالبى فى مقدمة العاملين فقد ذهب على رأس وفد تونسى إلى باريس عام ١٩١٩ للمفاوضة التى كان من نتيجتها أن حصلت تونس على نظام دستورى لايحقق كثيرا من مطامحها فى الحريه .

وفى نفس الوقت عملت فرنسا على تشجيع التجنس بالجنسيه الفرنسية

ولـكن الحركة باءت بالفشل وكان لها رد فعل قوى قوامه التعصب ضد كل ما هو فرنسى ·

وقد نفى « الثعالبى » فاقام فى مصر فترة من الزمن مواصلا جهاده وظلت تونس فى كفاح متصل لا يهدأ ولا يلين حتى تحقق لها استقلالها فعقدت فرنسا مع الحـكومة التونسية عام ١٩٥٤ معاهـدة بقيام الحـكم الذاتى · وتحقق لتونس فى ٢٣ يوليو ١٩٥٧ الغاء الحـكم الملـكى فى تونس وأقامة الجمهورية برئاسة الحبيب أبو رقيبه ·

ولـكن «شعب» تونس مازال يقاوم سطان فرنسا الخفى متجها إلى وحدة شاملة مع باقى أجزاء الأمة العربية . وقد قاوم الشعب ولازال يقاوم مشروع الغرب فى إقامة حلف يضم تونس ومراكش وليبيا وسيرغم خصومه على أحزار حريته الـكاملة واتجاهه الحقيقى رغم الاستبداد والقيود ·

إفريقيا للافريقيين

تعد القارة الإفريقية التى يطلق عليها المستعمرون « القارة السوداء » من أهم أجزاء العالم الإسلامى · فقد شملها فى الفترة الأخيرة تيار التحرر الذى ظل مكبوتاً فترة طويلة تحت ضغط عسف الاستعمار وتسلطه . ويعد هذا ولا شك إيذاناً بنهاية الاستعمار بعد أن عمت الثورة عليه جميع المناطق المتباعدة التى ما كان الاستعمار نفسه يظن أنها تنتقض عليه ففى كل بقعة من بقاع أفريقيا بالذات تقوم الثورات اليوم التى أزعجت المستعمر ·

وفى الشمال الإفريقى تقف الأمة العربية وقفة الصراع مع الاستعمار المسلح · فقد تحررت مصر والسودان . ودخلت ليبيا فى دور من الحرية لا شك أنه سيؤدى إلى نتائج هامة بعد الكفاح الطويل الذى واصله السنوسيون وعمر المختار فى مقاومة إيطاليا ومقاومة كل ألوان الاستعمار الانجليزى والأمريكى بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى المغرب أندلعت ثورة ضخمة فى تونس ومراكش(١٩٥٣ — ١٩٥٤) نقلت القطرين من الحماية إلى الحكم الذاتى كخطوة إلى تحقيق الحرية الكاملة ثم اندلعت الثورة فى الجزائر قوية جبارة تهز فرنسا ودول حلف الأطلنطى ، وفى مختلف المناطق الأخرى فى ماو ماو ، والسنغال وليبيريا وساحل الذهب يهب الشعب الأفريقى قوياً ليواجه الاستعمار بسلاحه الأعزل ، بالضحايا والدماء والشهداء · ويواصل الاستعمار عمليات القمع فى هذه القارة ظناً منه أنها معقلة الأخير بعد أن اضطر إلى الجلاء عن آسيا · وحوض البحر الأبيض المتوسط .

ولكنه واهم فى تقديره فأن النار التى اشتعلت فى قلب أفريقيا لن تخمد حتى تأتى على جذوره .

* * *

اكتسح الاستعمار أفريقيا خلال القرن التاسع عشر كما أخضع معها أكثر من ٨١٥ مليون نسمة يمثلون السكان فى أكثر من ثلث هذا الكوكب .

وتزيد مساحة أفريقيا على أربعة أمثال مساحة الولايات المتحدة ويبلغ عدد سكانها ١٩٨ مليون نسمة من بينهم ٦٠ مليوناً يدينون بالإسلام .

وقد رافقت الحملة الاستعمارية حملة أخرى ضخمة هى عمليات التبشير التى بدأت باقامة مراكز العلاج والمدارس التى ليست فى حقيقتها إلا وسائل براقة لكسب هذه الطوائف إلى التعميد بالماء المقدس . وفى ظل هذه الخدعة كانت تملأ المراكب بالعبيد والماس والعاج وتعود إلى أوربا . ثم توسع الاستعمار فى استغلال هذه المناطق الغنية بالفحم والمطاط . فأخذ يجند الوطنيين ـ ولا زال حتى الآن ـ للعمل بالسخرة حتى الموت فى سبيل إسعاد الرجل الأبيض واغتصاب خيرات هذه المناطق دون أهلها .

وليس فى تاريخ الإنسانية صورة أقسى من هذه العبودية التى فرضت على القارة السوداء . ولا تزال تفرض حتى اليوم ، ... يقول بازيل دافيدسون الكاتب الغربى المحايد فى كتابه « أفريقيا تستيقظ » إن الرجل الأبيض انتزع من منطقة الكونغو — وحدها — ملايين الرجال والنساء وباعهم فى جميع أنحاء الأرض . ومن الطبيعى أنه فعل مثل هذا فى مختلف أقاليم القارة السوداء .

وفى خلال هذا التاريخ الطويل استغل الرجل الأسود فى تعبيد الطرق إلى مناجم الماس والذهب . واستخرج هذه الخيرات من باطن الأرض بأقل الأجور

وكانت هى مادة هذا العمل الصناعى الضخم الذى يقوم به الرجل الأسود لحساب أوربا والذى تصنع به أوربا قنابل وآلات تدمير جديدة تضرب بها ليظل الرجل الأسود عبداً ذليلا خاضعاً لها .

* * *

وللاسلام دور ضخم فى هذه القارة فقد سرت دعوته منذ عهد بعيد من مصر إلى السودان ثم إلى الجنوب والغرب . كما سرت أيضاً عن طريق ساحل الأحمر عبر أسمرة وغيرها من الثغور المقابلة للجزيرة العربية . وفى مناطق نيجريا والصومال وزنجبار وأرتريا وإثيوبيا وقد امتدت هذه الدعوة بالرغم من عمليات التبشير الضخمة التى تنفق عليها الأموال وتعتمد لها فى ميزانيات الدول الكبرى أرقاما خيالية ومع ذلك فان الاستعمار لم يستطيع الوقوف فى وجه هذا التمدد الذى تم ومازال يتم بدون أى سلطان سياسى . وإنما عن طريق الهجرات ، وتنقل الداعية المسلم المجهول ، هذا التاجر الذى يحمل معه بضائعه ويحمل معه روح الإسلام فى خلقه ومعاملته إلى كل مكان يحل فيه .

وقد نما الإسلام وازداد قوة من مراكزه فى شمال أفريقيا والسودان وغيرها . وارتضاه الزنوج دون قسر أو إرغام مما دعا إلى تقارب العرب والزنوج وامتزاجهم . وكان هذا نتيجة عملية لسماحة الإسلام . وعدم تفريقه بين الأجناس والشعوب .

ولقد كان للحملات التبشيرية الضخمة التى عززها الرجل الأبيض على أفريقيا منذ منتصف القرن التاسع عشر أثرها فى كسب مراكز مختلفة . ولكن الأفريقيين تنبهوا أخيراً إلى أن الرجل الأبيض لايحمل معه الدين خالصاً وإنما يحمل معه فكرة التمييز العنصرى والتفوق الجنسى والعبودية والتحكم للجنس الأبيض .

وسجل دعاة التبشير منذ عام ١٩١٠ فى تقاريرهم « أن الإسلام هو العقبة القائمة فى وجه الاستعمار . وأن خصمهم الأول هو « الشيخ » صاحب النفوذ الخطير فى أفريقيا . وهو يجوب شواطىء البحر الأحمر والنيجر والمغرب ودادای وكان المبشرون قد توافدوا على أفريقية عقب بعثة « لفنستون » وستانلى عام ١٨٧٨ فاقتسموا فى مناطقها . ومع ذلك فإن هذه البعثات وبعد خمسين عاما من العمل (١٩٢٨) قررت بأنها فشلت فى مهمتها تماما .

وما زال المسلمون فى كل قطر من أقطار إفريقيا هم الذين يحملون لواء الحرية والدعوة إلى الاستقلال . وكان لهم نشاط بارز فى كل حركة وثورة قامت فى أنحاء القارة وفى حركة ماوماو وساحل الذهب وغيرها .

* * *

وكتب أدون ميكر فى كتابه « تقرير عن أفريقيا » يقول : إن إفريقيا الغربية نصفها مسيحيون يتأثرون بالإسلام حتى إنهم يحملون سوراً من القرآن الكريم كتعويذة تدفع عنهم الشرور وأن أمرهم ينتهى تدريجيا إلى الإسلام .

ويقول المؤلف إنه رغما من الجهود التى يبذلها المبشرون المسيحيون والأموال الطائلة التى ينفقونها فإن الإسلام ينتشر انتشاراً سريعا يعزوه إلى بساطته وإنكاره للتفرقة العنصرية ، وإلى تحريم الخمور وإلى إباحة تعدد الزوجات . ويرى أن الإسلام يوافق طبيعة الإفريقيين : وأنه لايقبل على إعتناق المسيحية إلا الطامعون فى مناصب البلاد . كما أن نزاع الطوائف المسيحية يدفع الأفريقى إلى اعتناق الإسلام .

* * *

وبالرغم من المحاولات التى تبذلها الدول الغربية اليوم لإقامة امبراطورية

أفريقية كحصن أخير للاستعمار بحجة أن هذه القارة يجب أن تهيأ للحكم الذاتى فان قوة التحرر تدفع كل شىء أمامها . ويقول الغربيون المستعمرون إنه لو تحررت أفريقيا فمعنى هذا أنهم سيخسرون ثروات طائلة من المواد الحيوية إذ إنها تخرج ٩٨ فى المائة من ماس العالم كله ، و ٦٠ فى المائة من اليورانيوم و ٥٠ فى المائة من الذهب و ٢٢ فى المائة من النحاس ، ونسبة كبيرة من الصفيح ولكن الفجر يقترب رويداً من القارة المظلمة بعد الليل الطويل . .

وفى مناطق مختلفة تندلع حركات تحرر قوية منها ماوماو وحركة الباناكا فى أوغندا . قد انعقد مؤتمر الشعوب الأفريقى فى (اكرا) برئاسه الدكتور نكروما رئيس وزراء غانا (إبريل ١٩٥٨) وأشتركت فيه دول أفريقيا المستقلة كخطوة أولى فى سبيل توحيد الجهود لمقاومة الاستعمار واستهدف المؤتمر قاعدة العمل « أفريقيا للافريقيين » وطالب بتحرير الجزائر والكاميرون وكنيا وأوغنده وزنجبار

وتضم أفريقيا الإسلامية مصر وليبيا وتونس والجزائر ومراكش والسودان كما تضم مجموعات ضخمة من المسلمين فى الحبشه والصومال البريطانى وكينيا وغينيا ونياسالاند وأفريقيا الفرنسية والكاميرون ونيجيريا وسيراليون وليبريا وزنجبار .

كفاح آسيا
الساتيا جراها وتحرير الهند

(١٤٩٨ — ١٩٤٧)

« الساتياجراها » المقاومة السلبية « الاهمسا » وتهدف عدم العنف ومقاطعة بضائع المحتل وتقاوم بالصوم . تدعو إلى استماضة الشعب عن المقاطعة بطريقة الاكتفاء الذاتى والالتجاء إلى المنزل والعصيان المدنى . هذه هى سر النصر فى معركة الهند الضخمة الجبارة التى قادها غاندى .

وقد سجل التاريخ أبرز صور الكفاح فى ١٢ مارس ١٩٣٠ عندما أعلن عزمه على خرق قوانين الملح التى اثقلت كاهل الفقراء فبدأ يمشى هو واتباعه مسافة مائتى ميل حتى وصلوا إلى « داندى » على ساحل البحر وقد خرجت الألف النساء من عزلتهن ليشاركن الرجال . وسار غاندى إلى الشاطىء ثم خاض البحر . وبعد أن ملأ دلوه من مائه قفل راجعا إلى الشاطىء لتقطير ما يحمله من ماء . واستخراج ما به من الملح . وقد شل هذا التصرف العمل فى المدن الكبرى وألقى بمائة ألف هندى فى السجن .

* * *

وهذه قصة « الدم » فى الهند .. هذا الدم الذى أكسبها الاستقلال . .

فى الهند . تلك القارة الواسعة الضخمة ، بدأ الاستعمار مبكرا وقطع الوطنيون معه شوطا طويلا ، كانت حلقاته جميعا ، ملونة بلون الدم . فى كل خطوة أشلاء وجرحى ، وجثث وضحايا . ورصاص تقذفه يد الغاصب الذى

يريد أن يظل أهل الأوطان عبيدا له ، ولكن هيهات ، فلابد من أن يموت الأحرار فى سبيل حقوقهم المغصوبة . حتى يستخلصوها . وقد استطاعت الهند أن تحقق المعجزة .

خاضت الامبراطورية الضخمة بحار الدماء . الدماء التى أراقها الانجليز منذ أوائل القرن السابع عشر .

دخل الانجليز الهند باسم التجارة . باسم شركة الهند الشرقية التى عملت على احتكار الهند غير أن الثورة الهندية لم تلبث أن اندلعت مبكرة . قبل كل قطر من أقطار الشرق . اندلعت سنة ١٨٥٧ ، كانت حركة عنيفة مدمرة ، أشبه بثورة ماحقة ، سال فيها الدم الانجليزى مدرارا . ذبح الهنود من الانجليز عددا ضخما ، فهاج الرأى العام الانجليزى هياجا شديدا ، وهنا انحنى الانجليز للثورة يأخذونها بالهدوء . . والرفق حتى انتهت ، ثم أعدوا خطتهم للانتقام . وسرعان ما نقلوا حكم الهند من الشركة إلى التاج البريطانى . .

واتهموا محركى الثورة بأنهم طامعون فى الهند ، مخادعون لمواطنيهم . . وكانوا كاذبين ، وكانت الهند قد أعدت عدتها للمقاومة الطويلة الشاقة والعصيان المدنى المتصل .

وأغفى الانجليز فى الهند فترة استيقظوا سنة ١٩٠٦ على حركة وطنية عنيفة قادها « تيلاك » وكان القراصنة يعلمون أن مقاطعة البنغال هى « مخزن البارود » فأعدوا مشروعا لتقسيمها وهنا اندلعت الثورة العنيفة احتجاجا على هذا المشروع الاستعمارى فقوطعت البضائع الأجنبية . ونظمت أعمال المقاومة العنيفة .

وهنا أراقت بريطانيا الدماء : دماء العزل الآمنين الذين يطالبون بحقهم فى الحياة . . وأخذت تقمع الحركة وتقتل وتسجن وتضطهد فى عنف ، وفى ارهاب . .

وقبض على « تيلا » وحكم عليه بالسجن ست سنوات .

ولكن الهند ، لم تهدأ ، وإنما واصلت الاضراب العام فكان أول اضراب هز بريطانيا .

وبزغ نجم « غاندى » ١٩١٠ ، أحد قادة المؤتمر ، الذى نظم حركة المقاومة السلبية ضد قوانين « رولات » الجديدة ووقف المسلمون والهندوس يدا واحدة .. مما أحرج الحكومة المحتلة أشد الحرج ومن يومها أخذت تدس بينهما .

وفى سنة ١٩١١ صدر قرار منع الهجرة إلى ناتال .. ورأى الهنود أن فى ذلك عنتا واستبدادا بهم ، وأنه ينقص من كرامتهم ..

فنشطت البنغال ، مقر الحركة الوطنية الأول ومكان الدماء والخصومة العنيفة بين أهل الوطن وخصوم الوطن .

نشطت الجمعيات السرية ونقلت من أوربا سلاح القنابل إلى الهند ، وتعلمت صناعتها ومرن أفرادها عليها .

وأخذت الجمعيات ترتب نفسها لانتقام مكتسح ضخم . فلم تجد غير يوم الاحتفال بدخول الحاكم العام عاصمة الهند الجديدة فى دلهى بدلا من كلكتا .. فى ديسمبر سنة ١٩١٢ فألقى « فدائى » على الهودج الذى كان يركبه الحاكم مع قرينه ، فوق ظهر أحد الفيلة قنبلة أصابت الحاكم بجراح وأصابت حارسه .

وامتدت حركة الارهاب فى البنغال وامتزجت بهـــا حركة المقاومة السلبية ، وعانقتهما حركة مقاطعة الأقمشة الانجليزية وكأنما أراد غاندى أن يوقف هذه الدماء ... غير أن بريطانيا كانت تشتهى منظر الاشلاء . فأوقدت ومذبحة جديدة .

وفجأة ومن غير أن يتوقع أحد ، طلب الجنرال « داير » إلى قواته أن

تستمد ، ثم أمر باطلاق النار على مظاهرة سلمية غير مسلحة ، كانت تمر فى أحد الميادين ، فأصيب ١٧٥٠ شخصا وقتل منهم ٣٧٠ وطنيا فهل سمع العالم الخارجى بهذه المذبحة !.

كلا ، فإن بريطانيا استطاعت أن تخفى خبرها ، وتحول دون إذاعته . .

ولم تقف الهند عن الصراع ولم تهمد ، بل واصلت الاضراب وقد أحصى وقوع ٢٠٠ أضراب فى عام ١٩٢٠ اشترك فيها مليون ونصف مليون عامل .

واستمر حزب المؤتمر بهذى الحركة ، ويشد ساعد المقاطعة . مقاطعة البضائع والمحاكم الانجليزية .

وكما حدث فى مصر حين قاطعت لجنة ملنر . قاطعت الهند زيارة البرنس أوف ويلز وكانت صدمة عنيفة للبريطانيين .

فانتقمت وسجنت عشرة الألف شاب من هيئة المتطوعين .

ولم تجد بريطانيا بدا من أن تعتقل جميع الزعماء عدا غاندى .. ولكن غاندى كان يرى أن عليه أن يسجن أيضا ؟ فأنذر الحكومة باطلاق سراح المسجونين السياسيين . والغاء القوانين ، وإلا فانه سيبدأ حركة عصيان مدنية جديدة يمتنع فيها الأهالى عن دفع الضرائب والايجارات . فى قرية « باردولى » .

وثارت البنجاب ، ثورة عاصفة ، أشبه بثورة ١٩١٩ ، هاجم الثوار خلالها السكك الحديدية فعطلوا خطوطها ، وقطعوا أسلاك البرق ، ووقفوا بالمرصاد للبريطانيين .

وتلقوا فى صدورهم رصاص الانجليز وروت الدماء الأرض وسقط صرعى الوطن واستشهد الشباب .

وكانت الهند قد قدمت فى الحرب العالمية الأولى لبريطانيا ٨٠٠ ألف محارب ، و ٤٠٠ ألف من غير المحاربين كما تبرعت للقراصنة بمبلغ ١٠٠ مليون من الجنيهات وفى أبان الحرب الثانية لم تكن الحركة الوطنية قد توقفت فى الهند . وفى (أمرتسار) قاطع المؤتمر الدستور فأطلق البريطانيون النار على جماعة كبرى من الناس غير مسلحين فقتلوا منهم ٣٧٩ وجرح أكثر من ألف .

وبدا هناك ضوء جديد كانت مسز تيرانت الانجليزية تصفع الانجليز كل يوم .. وقد انتخبت رئيسة للمؤتمر الوطنى سنة ١٩١٧ .

ثم ظهرت أم شوكت على « أم الهنود » .. كانت تخطب الهنود وتحثهم على الاستشهاد فى سبيل حرية الوطن .

وظهر الزعيم الذى هز الجماهير أبو الكلام أزاد

وما كاد الحرب تضع أوزارها ، وتقف بريطانيا من الخلافة العثمانية موقفها الذى أباحت فيه « أسطمبول » لليونان .. حتى ثارت ثائرة المسلمين بزعامة شوكت على وشقيقة محمد على .

وأخذت بريطانيا تصدر القوانين الاستثنائية ، وتكم الصحافة وتمنع الاجتماعات .

وهنا ظهر غاندى بدعوته : الايمان بالقوة الروحية وتزعم الحركة السلبية ، وقاد العصيان المدنى ، وأمر بالتمرد على القوانين الظالمة وانتقلت الحركة بعد إلى عصيان عام ثم بدأت موجة من الاضطرابات المنيفة خضبت فيها إرض الهند مرات ومرات بالدماء .

وقبض على غاندى سنة ١٩٢٢ وحكم عليه بالسجن ست سنوات ثم أفرج عنه سنة ١٩٢٤ .

وفى سنة ١٩٢٩ أعلن المؤتمر ان مطلبه هو الاستقلال التام والانفصال المطلق عن الامبراطورية .

وفى سنة ١٩٣٠ بدأ غاندى حركته الكبرى وبدأ رحلته فى انحاء الهند يدعو إلى العصيان المدنى ، ضاربا بلوائح الحكومة عرض الحائط .

وما أن اعتقل حتى ازدادت الحركة عنفا وازداد الكفاح شدة . .

وأمرت بريطانيا القوات الهندية ، بأن تضرب الوطنيين .. غير أن هذه القوات لم تكن أقل إيمانا من المجاهدين أنفسهم .

. . فرفضت أورطتان من الفرق الهندية اطلاق النار على المسلمين ولم تلبث القوات العسكرية أن اختلطت بالشعب وانطلق الجميع يهتفون بالاستقلال .

... وتعددت المظاهرات وكانت أعنفها فى بومباى وانتظمت البلاد مقاطعة عامة بعد « مغزل » غاندى وأصاب البضائع الانجليزية البوار نتيجة المقاطعة والاضرابات وقبضت السلطات الغاشمة على ٩٠ ألف شخص فى عشرة شهور وقتلت ١٠٣ وطنيين . وجرحت ٤٢٠ برصاصها المسموم ..

وسجن غاندى ولكن استفحال الحركة ، واصرار الهنود على أن يموتوا دفع انجليز إلى مفاوضة غاندى وهو فى السجن .

ثم أطلق سراحه .. فى أوائل ١٩٣١ .

ووقفت الهند كلها خلف الرجل النحيل !

ثم أعلن غاندى وقف العصيان المدنى بعد أن تعهدت الحكومة بأن تلغى اجراءات الارهاب وتفرج عن بعض المعتقلين .

وعاد غاندى من مؤتمر المائدة المستديرة .. فوجد الزعماء جميعا فى السجون .. جميع زعماء المؤتمر ، وما أن وصل إلى الهند حتى فتح له باب السجن ..

وأمعنت بريطانيا فى الطغيان فأعلنت أن حزب المؤتمر غير شرعى وصادرت أمواله وعطلت صحفه .

واتسعت حركة الاعتقال فبلغ عدد المعتقلين ١٢٠ ألف شخص .. واستشرى البوليس البريطانى فى القرى الهندية ينكل بالفلاحين ويقذفهم بالرصاص .

فاذا فى كل شبر من أرض الهند قتيل أو جريح .

واستطاعت بريطانيا أن تؤجج الصراع بين الهندوس والمسلمين من ناحية وبينهم وبين المنبوذين من ناحية أخرى واستغلت الخلافات المذهبية بين الاديان و العقائد والتقاليد فجعلت منها أداة للتفرقة بين عناصر الامة .. فوقعت المصادمات بشان البقر فى كثير من أنحاء الهند

وفى الحرب العالمية الثانية إعلنت بريطانيا دون استشارة الزعماء أن الهند تقف معها فى الحرب ضد المانيا واستخدمت قواتها ومواردها لمواصلة الحرب .

واستقالت حكومة المؤتمر احتجاجا على موقف الحكومة البريطانية فى أوائل نوفبر سنة ١٩٣٩ بعد أن امتنعت عن أن تعلن أهدافها بالنسبة للهند .

.. ومنذ ذلك التاريخ وضع الحكام البريطانيون أيديهم على الولايات وحكموها ، واستمر سيل الدماء ..

وقدمت الهند ١٧٧ ألف نسمة فى الحرب الثانية منهم ٢٣ ألف قتيل .

.. ولم تفتر عزيمة الهند وتقدمت بقرابين جديدة فى سبيل الحرية ..

أعلنت حملتها بعد أن وسعت بريطانيا سلطة نائب الملك . وسيق الزعماء إلى السجن وواصل البريطانيون العدوان ظلوا كذلك إلى أن دخلت اليابان الحرب فأفرج عن بعضهم . أفرج عن « نهرو » الذى قبض عليه فى سنة ١٩٤٠ وحكم عليه بالسجن أربع سنوات .

وكانت المرة الثانية التى يحكم علية فيها بالسجن .

وأفرج عن أبو الكلام أزاد قائد الجهاد الوطنى سنة ١٩١٣ .

وفى سنة ١٩٤٢ قام بوزا الهندى بحركة وطنية عنيفة . كان على اتفاق فى القيام بها مع اليابان والالمان .. لاعلان استقلال الهند .

وتبعه ١٥ ألفا من الهنود والاسرى .. ولكن بريطانيا قمعت الحركة واعتقلت الزعماء الهنود .

ترى كم قتل فى هذه المجزرة أيضا ؛ قتل ٦٠ ألف نفس وزج فى السجون ٢٠ ألفا ثم لم تلبث بريطانيا أن رأت أن بقائها فى الهند دون إرادة أهلها لا سبيل إليه فأعلنت استقلال الهند فى عام ١٩٤٧ .

أفغانستان وثورة امان الله خان

حاربت أفغانستان الاستعمار مائة وخمسين عاما . ومضت تجاهد للتحرر من النفوذ البريطانى الذى بدأ عام ١٨٣٢ بعد أن تحررت من الاستعمار التركى . وقد كان كفاحها قويا حتى كان من المستحيل على القوى الاستعمارية أن تحكم افغانستان . بسبب المقاومة العنيفة والمستمرة لغزوات المستعمرين .

وافغانستان دوله لها وضعها الخاص فهى ليست ذات منفذ يمكن أن تطل منه على العالم الخارجى مما جعلها بعيدة شيئا ما عن تجربات الأحداث . وهى تشترك مع روسيا فى حدود تمتد ٧٠٠ ميل وتشترك فى نفس الوقت مع ايران بعلاقات ثقافية وتاريخية قديمة كما ترتبط مع الباكستان بروابط روحية مصدرها الإسلام والسنه .

وقد اندلعت نيران حروب ثلاثة بين أفغانسيان والانجليز وفقد المستعمر جيشه باكمله فى الحرب الأولى (١٨٣٨ — ١٨٤٢) .

كما عانت القوات البريطانية فى الحرب الثانية (١٨٧٨ — ١٨٨١) هزائم ساحقه وانتصر الأفغانيون .

وفى الحرب الثالثة (١٩١٩) نالت أفغانستان استقلالها الكامل .

فقد حدث فى ٢٠ فبراير ١٩١٩ أن قتل حبيب الله خان غيله فى (جلال أباد) لخلفة « أمان الله خان » الذى أستل سيفه فى ٧ مايو ١٩١٩ أمام جمهور كبير من أقطاب الأمة وأعيانها وأعلن أنه لن يعيده إلى قرابه حتى يعيد لبلاده استقلالها الكامل .

ثم أرسل على الفور انذاراً إلى الحكومة البريطانية فطالب بالغاء معاهدة « وول نبرى » المعقودة مع جده عبد الرحمن ١٨٨٣ . ولما رفض الانجليز أجابته إلى طلبه أعلن الحرب عليهم وأمر جيشه بقيادة السردار محمد نادرخان بمنازلتهم فوقعت معارك خطيرة وقد أمر أمان الله خان الجيش الأفغاني بالتقدم لغزو الهند لولا أن استطاعت بريطانيا صد الجيوش الأفغانية عن الجزء الذى احتلته من شمال الهند وانتهت باجابة الحكومة الأفغانية إلى مطلبها واعترفت بريطانيا فى ٢٢ فبراير ١٩٢١ باستقلال أفغانستان .

ثم عقدت أفغانستان معاهدة مع الروسيا السوفيتية حيث وافقت روسيا على منح افغانستان قرضا قدره مليون روبل ذهبا وبالرغم من ميل أمان الله خان إلى الروس إلا أنه عارضهم بعد غزوهم لبخارى .

* * *

وقد دفعت امان الله خان بطولته فى تحرير بلاده إلى أن يدفع بها فى طريق المدينة والإصلاح تشبها بمصطفى كمال اتاتورك والشاه رضا بهلوى ولكنه لم تجنح فى اسلوب الإصلاح إلى نهج تطورى تتفق مع العقليه الافغانية ويتمشى مع الانتقال على مراحل مما كلفه عرشه .. فقد اتجه دفعة واحد إلى انشاء جيش نظامى وعمل على ادخال الاصلاحات وفى مقدمتها السفور مما ادى قيام سحابه من النقمة والثورة التى إنفجرت عام ١٩٢٨ اثناء رحلته إلى اوربا ، حتى إذا رجع تمكن من إخماد الثورة التى كان يقودها باجا سقا واضطر أمان الله خان فى يناير ١٩٢٩ إلى التنازل عن العرش والسفر إلى اوربا وعند ما ثار باجاسقا كان السردار محمد نادر خان قائد ثورة التحرير يختلف مع عمه امان الله ويرى انه تسرع كثيرا وان اصلاحاته لا تتفق مع عادات البلاد .

وانصرف باجا سقا إلى حكم البلاد حكما تعسفيا قوامه النهب والسلب . عندئذ كان محمد نادر خان يستعد للهجوم على كابول وقد انفذ خطته فى أواخر سبتمبر ١٩٢٩ للقضاء على السقا واعد لذلك ثلاثة جيوش قاد أحدها شاه ولى خان . وفى ٩ اكتوبر كانت الجيوش الثلاثة تطبق على « كابول » من كل النواحى وتفتحها دون مقاومة تذكر فى ١٤ اكتوبر وقد اختفى باجاسقا وتلاشت قواه وسلمت المدينة للفاتح الجديد ولم يتمكن نادر خان من القاء القبض على زعيم الثوار واعدامه الا فى اكتوبر ١٩٢٩ . عندئذ نادى بابنه « محمد ظاهر خان » ملكا على البلاد وكان نادر خان قد وصل إلى كابول فى ١٥ اكتوبر ١٩٢٩ فاجتمع به رؤساء القبائل على هيئة جمعية وطنية فى ميدان العاصمة الأكبر وتم الأتفاق على قيام حكومة مركزية بدلا من أن تستقل كل قبيلة ببلادها ورفضوا حكم أمان الله خان الذى كان يطمع فى العوده .

وفى عام ١٩٣٠ وضع دستور جديد للافغان ينص على إنشاء برلمان من مجلسين كما عقدت أفغانستان معاهدة مع جارتها فارس كما وقعت ميثاق « سعد أباد » الذى جعل افغانستان طرفا فى المحالفة الدولية التى تمت بينها وبين ايران والعراق .

ومضت افغانستان فى سبيل الإصلاح فى حذر واحتياط . وتمت فيها الفكرة القومية واشتد عودها فأنشأت فى كابول أكاديمية لتعزيز اللغة الوطنية والثقافه القومية .

تأميم البترول

ليس شك أن البترول هو من أخطر قضايا العالم الإسلامى بل هو لب هذه القضايا ، وهو المحور الذى تدور حوله جميع المشاكل والقضايا ، وهو قوام الاتجاهات الاستعمارية ، التى تحاول بين آن وآخر أن تأخذ صورة أو أخرى من استعمار إلى احتلال إلى وصاية إلى انتداب إلى تحالف .

والبترول عصب الحضارة المادية ، وبدونه تستحيل أدوات المصانع الهائلة الكبيرة إلى قطع من الحديد يعلوها الصدأ .

وقد انتهى الأمر الآن بأن أصبحت منطقة الشرق الإسلامى من أهم المناطق البترولية فى العالم بعد أن استنزفت الآبار فى الغرب ، وثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة الإسلامية .

وقد اقترنت عملية البحث عن البترول بالاستعمار إذا بدأت هولندا تستخرجه من جزائر الهند الشرقية عام ١٨٩٠ ثم استغلت مناطق بورما وسيام ثم بدأت عمليات الحفر فى الأناضول والإسكندرونة والموصل وإيران عام ١٨٨٩ وزادت أهمية هذه المنطقة بعد أن تبين أن إيران والعراق والسعودية والكويت البحرين غنية بالذهب الأسود .

وأخذ البترول صورة الصراع بين الدول الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى التى كشفت عن مدى أهمية البترول . وقد حصلت بريطانيا فى مارس ١٩٢٥ على امتيازا حتكار البترول فى جميع أنحاء العراق لمدة سنة ثم تقاسمت بريطانيا مع روسيا بترول إيران ونزلت أمريكا إلى الميدان عام ١٩٣٠ واتجهت إلى شبه

الجزيرة العربية واستطاعت أن تحصل على ٧٠ فى المائة من بترول منطقة السعودية ؟

وينص الاتفاق المبرم عام ١٩٣٣ بين المملكة العربية السعودية والشركة على أن يكون لها الحق فى البحث والكشف عن البترول وإنتاجه ونقله وتكريره لمدة ٦٠ عاما فى مساحة ٦٠ ألف ميل مربع .

وقد أدى هذا إلى إنزعاج بريطانيا مما دفعها إلى الدخول فى مباحثات مع إمريكا انتهت بتوقيع اتفاقية بينهما فى أغسطس ١٩٤٤ .

وكان لهذا التنافس بين الدول المستعمرة أثره فى يقظه المسلمين ومعرفتهم لأهمية الثروة التى تكمن تحت ثراهم .

ويخرج من ثرى المنطقة الإسلامية فى اليوم الواحد أكثر من مليونى برميل فى اليوم وقد كان لهذه اليقظة أثرها فى اتجاه « إيران » إلى تأميم بترولها — ذلك أنها كانت تحصل على ما يوازى ٢٠ فى المائة من الأرباح فى الوقت الذى بلغ انتاج البترول الايرانى ١٧٠ مليوناً من البراميل فى العام وبعد أن أقيمت بها أضخم وأدق مصانع التكرير فى العالم .

وقد بلغ هذا الاتجاه ذروته عام ١٩٥٢ حيث قام الدكتور « محمد مصدق رئيس وزارة إيران » بتأميم البترول ودخل معركة اقتصادية ضخمة مع بريطانيا كان مقدراً له الانتصار فيها لولا دسائس المستعمرين . وقد آزرته الدول العربية والاسلامية كما حكمت محكمة العدل الدولية لصالحة إيران واستطاعت إيران مقاومة الحصار الاقتصادى طويلا بصبر وثبات .

ولا شك أن اتساع الوعى القومى العربى والوطنى فى العالم الاسلامى سيكون بعيد الأثر فى جعل البترول عاملا فعالا فى تحقيق الحرية ورفع المستوى

الاجتماعى والاقتصادى للمنطقة كلها وذلك على أساس ما يجرى الآن من حفريات متصلة تنبئ بزيادة الكميات المستخرجة من جوف الأرض .

وما زال البترول الموجود فى المنطقة الإسلامية سلاحا ماضيا يستطيع أن يؤثر أثراً فعالا فى حل قضايا فلسطين وتحرير الجزائر وسائر القضايا العربية وإن كان البترول سيظل عاملا خطيراً فى تكتل الجبهة الاستعمارية لايجاد المؤامرات والمناورات المختلفة ضد شعوب المنطقه مما يستدعى توحد هذه الجبهة توحداً كاملا للوقوف فى وجه الاستعمار ومقاومته وتحقيق نتائج هامة فى رفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى وتحرير الوطن الاسلامى كله .

وتعد « إيران » أكبر دولة منتجة للبترول فى الخليج الفارسى . والخليج الفارسى يمد العالم بما يوازى ٢٠ فى المائه من إنتاجه الحالى من البترول .

— ٢ —

وقد بدأ البحث عن البترول فيها على أثر الامتياز الذى ناله « دارسى » من شاه فارس عام ١٩٠١ .

وكانت الصفقة قد حققت للشاه مظفر الدين كاجا عشرة آلاف جنيه انجليزى دفعت نقداً وحصه من أرباح استغلال البترول قيمتها ١٦ فى المائة تدفع كل عام . وتدفق البترول من منطقة خوزستان عام ١٩٠٧ .

وفى عام ١٩١٤ دخلت الحكومة البريطانية شريكا مباشراً فى شركة البترول لتحصل على ٥٢ فى المائة من أسهم الشركة . وقفز انتاج البترول فى إيران حتى أصبحت الدولة الرابعة فى إنتاج البترول فى العالم .

وعند ما تسلم « رضا بهلوى » مقاليد الحكم وجد أن كل ما تحصل عليه الحكومه من البترول لا يزيد على مليون جنيه ، فطلب من الشركة أن تدخل

فى مباحثات لتعديل الامتياز . فلما ماطلت الشركة أنذرها فى نوفمبر ١٩٣٢ بأنه قرر إلغاء امتياز البترول .

وتمكن رضا بهلوى من الحصول على ٢٠ فى المائة من الأرباح .

وقد بلغ من اهتمام الحلفاء بهذا المورد أنه عند ما شعرت الشركة بتسرب الألمان إلى إيران وبميل الشاه رضا بهلوى إلى دول المحور أسرعت روسيا وبريطانيا باحتلال إيران وخلع رضا بهلوى فى عام ١٩٤١ .

ومضت سبع سنوات قبل أن تبدأ الأزمة التى دفعت إلى الموجه الشعبية التى تزعمها مصدّق والتى أدت إلى تأميم البترول الإيرانى ..

بدأت الأزمة فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٤٧ فى مجلس النواب برفض إعطاء امتيازات جديدة لروسيا ومطالبة الحكومة للشركة برفع قيمة نصيب إيران من بترولها ولم تقبل الشركة أن تزيد هذه الحصة عن ٣٠ فى المائة .

وشكلت لجنة برئاسة الدكتور مصدق رئيس الكتلة الوطنية فى المجلس فوراً وقررت أن خير عمل تواجه به تعنت الشركة هو تأميم البترول وكان هذا القرار قنبلة ضخمة .

ورفضت الشركة ، وبدأت بريطانيا مناوراتها مما هز الشعور الوطنى وأطلقة من عقاله فقتل رازم اراه رئيس الوزارة لأنه لم يكن مؤمناً بالتأميم وهددت القوة الشعبية بنسف عبادان إذا نزل فيها إنجليزى واحد .

وولى مصدق رئاسة الوزارة وكاشانى مجلس النواب وكان حسين فاطمى يلعب دوراً ضخما عن طريق صحيفته وعن طريق الوزارة .

ووقف الشعب الإيرانى فى قوة يدافع عن حريته وكرامته ويقاوم الاستعمار والاستغلال بصورة رائعة .

وكانت أرباح بترول إيران التى تحصل عليها الشركة حوالى ١٠٠ مليون جنية لم يزد نصيب إيران فيها عن ١٥ المائة . وعند ما بدأت الشركة تتحرك لترضى الحكومة كان الزمام قد أفلت وأصبح تأميم البترول أمنية وطنية . ووقفت الأمة الإسلامية كلها مع مصدّق وأنصفته محكمة العدل الدولية . ولما يئست بريطانيا من الاتفاق مع مصدق بدأت تعمل على إسقاطه بمختلف وسائل الدس والخديعة والتآمر والضغط الاقتصادى . وتوقف تدفق الزيت . وتوقف قرض أمريكا حتى لا يكون وصوله عوناً لمصدق على الاستمرار فى عناده تجاه الإنجليز ، وقيل إنهم ينتظرون مصدقا والشعب الإيرانى حتى يجوع ويمد يده ولكن مصدقا والشعب الإيرانى صبرا على الجوع عامين كاملين ، فى سبيل القضاء على كل نفوذ أجنبى فى الشرق الأوسط وكانت هذه أول ضربة ضخمة للاستعمار فى الشرق . وأول اتجاه وطنى لتحرير الأوطان من سلطان المستعمر وكانت ضجة كبرى لها صداها فى كل مكان .. وهى فى تقدير المؤرخين حجر الأساس فى يقظة « العالم الاسلامى » .

— ٣ —

لم يبدأ البحث عن البترول فى الشرق الاسلامى الا فى عام ١٩٠١ على إثر الامتياز الذى حصل عليه « دارسى » من شاه فارس . وقد بدأ بترول بلاد فارس يتفجر فى ٢٨ يونيه ١٩٠٨ فى منطقة مسجدى سليمان وفى نفس الوقت نبع البترول فى مصر وقد بذلت جهود ضخمة للحصول على البترول فى راس غارب حيث بدأ استغـــلال هذه المنطقة عام ١٩٣٧ ثم استؤنفت عمليات الحفر وحصلت الشركة الإنجليزية على امتياز البترول فى عام ١٩٢٨ لمده ٣٠ سنة وكانت قد بدات عمليات البحث فى الاناضول والاسكندرونه . ثم فى الموصل

بعد أن تم اكتشاف مناطق البترول فى عدن وعمان والكويت وكانت الحرب العالمية الأولى قد كشفت عن اهمية البترول بعد أن ظهر مدى خطر البترول ومشتقاته فى الحرب . وقد تبين أن حملات الانجليز على العراق كانت ترمى فى الواقع إلى الاستيلاء على هذه المناطق الغنيه بالبترول .

فلما اندلعت الحرب العالمية الثانية كانت بترولية محضه وقد صور هذا المعنى مستر اكس رئيس مجلس صناعة البترول الامريكى بقوله « هذه حرب الآت وسفن وطائرات يحركها الزيت . انها حرب البترول . فالجانب الذى يستطيع وقف تدفق المنتجات البترولية عن العدو ويتمكن فى نفس الوقت من امداد دباباته ومدافعه الميكانيكية وسفنه وطائراته بالجازولين وزيوت التشحيم والوقود من النوع السليم وفى الوقت المناسب وفى الاماكن الصالحة هو الجانب الذى سيحرز فى النهاية النصر فى هذا الصراع العالمى .. »

والواقع أن سلطان البترول وزعامته قد تحولت إلى المنطقة العربية فاصبحت بحق عاصمة انتاج البترول وذلك بعد أن استنزفت آبار الولايات المتحدة فيها وارتفع سعر الأرض وزادت أجور الايدى العامله . أما فى المنطقة العربية فما زالت بكراً وما زالت أراضيها الشاسعة بدون ثمن .

وقد أكد العلماء المتخصصون أن نصف الاحتياطى من البترول فى العالم يرقد فى أرض المنطقة العربية والنصف الثانى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم .

وتقول التقارير أن البلاد العربية تختزن فى ارضها من ٥٠ إلى ٥٥ فى المائة من مجموع البترول الموجود فى العالم وبلغ ما يستخرج منه مليونى برميل فى اليوم ففى عام ١٩٢٨ كان ٢٥ فى المائة مما تحتاجه بلدان اوربا الغربيه مستوردا من

البترول العربي . وفى عام ١٩٤٨ استوردت ٦٢ فى المائة وعام ١٩٥٣ بلغ ما استوردته ٩٧ فى المائة .

وقد ادى هذا الخطر الذى يواجه اوربا وأمريكا نتيجة لنقص المتوقع فى انتاج البترول لديهم . أن يضاعفوا عملية التطويق للمنطقة العربية . فتملقت الشركات الامريكية فى الشرق الاوسط ووضعت يدها على اغنى مناطقة وقدأدى هذا إلى إنزعاج بريطانيا واحساسها بأن أمريكا إنما تعمل لتثبيت اقدامها فى الشرق الأوسط مما دفعها إلى الدخول فى مباحثات مع أمريكا بصدد بترول الشرق الأوسط إنتهت بتوقيع اتفاقية بينهما فى اغسطس ١٩٤١ وتم الاتفاق عليها فى ديسمبر ١٩٤٥ .

ولا شك أن هذا التنافس الخطير وعقد الخناصر على استغلال هذه الثوره والاستفادة بها دون أصحابها العرب كان عاملا مهما فى يقظة العرب الجديدة واحساسها بانها المالكة الحقيقة لهذه الثروة وانها بسبيل رسم سياسه موحدة فى شئون البترول .

وهنا يتبين لنا بوضوح مدى اهمية العرب كوحده اقتصاديه ذات أثر فعال فى توجيه دقة السياسة العالمية والتأثير فى مجريات الأمور .

* * *

وتجرى اليوم حفريات متعدده فى سوريا والأردن ومصر وفزان وتدل التقارير ان منطقة فزان الليبية غنية بالبترول وأن حقوله تمتد تحت الأرض على مساحة شاسعة تشمل مساحة منطقه فزان كلها تقريبا .

وقد تردد طويلا عام ١٩٤٧ أن بترول الشرق العربى هو أمضى سلاح فى معركة فلسطين وما زال البترول الموجود فى المنطقة العربية سلاحا ماضيا

يستطيع أن يؤثر أثرا ماديا فعالا فى تحقيق الحريات فى المنطقة ومقاومة الاستعمار ·
والمعروف أنه فى خلال الحرب العالميه الأخيره كانت الاساطيل البحريه تعتمد اعتمادا كبيرا على بترول العرب .

وإذا كان الشرق العربى اليوم يقدم للحضارة هذا النصيب الضخم من البترول الذى هو قلب المدنية وقوامها فلا شك أن من حقه أن يتمتع بسيادة سياسيه كاملة معادله لسيادة الدول التى تستغل هذا البترول وأنه بهذا البترول ليس مضطراً أبدا لأن يكون ذليلا أو مفتقراً التى حماية أو أستدانة وهو القابض على مفتاح الصناعات فى أيام السلم ومفتاح الة الحرب ··

فلا شك أن بين العرب اليوم مفتاح السلم والحرب معا . وأن نقطة البترول تساوى نقطه من الدم .

— ٤ —

أثار الكشف عن البترول فى العالم الإسلامى أثاراً بعيدة المدى سواء فى حياة أهله أم فى أهميته الاستراتيجيه ·

وتمد منطقة الخليج العربى من اغنى المناطق البترولية : وكذلك الظهران وعبدان والكويت والموصل وكركوك ·

وتختزن المنطقة فى أرضها من ٥٠ إلى ٥٥ فى المائة من مجموع البترول الموجود فى العالم · ويبلغ ما يستخرج منه مليونى برميل فى اليوم كما يبلغ ما بالشرق من البترول الأحتياطى ٢٣٠ الف مليون برميل وهو ما يعادل ثلثى احتياطى البترول فى العالم .

كما تبلغ رؤس الأموال المستثمرة فى صناعة البترول فى الشرق العربى اكثر من بليونى دولار .

وقد حصلت الدول العربية على نحو ٩٠٠ مليون دولار أرباحا من البترول

وقد لعب البترول دوراً أساسيا خطيراً بعد ان قال لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب « أن قطرة من البترول تساوى قطرة من الدم » . وتعد مشكلة الموصل التى اندلعت فى أعقاب الحرب الأولى مشكلة بترولية وكذلك أزمه إيران ومشكلة البريمى وحرب اليمن والمحميات التى تشنها بريطانيا هى حرب بترولية .

كما أن عدداً من القواعد العسكرية القائمة فى العالم الإسلامى أنما هى قواعد أقيمت لضمان سلامة مراكز البترول وتأمين معامل تكريره وانانيب نقله وقاعدة الظهران إنما قامت لتأمين حقول البترول فى البحرين والحسا . وكذلك قاعدتا البصرة والفرق وهما يعملان لتأمين بترول إيران والكويت . وقاعدة الحبانية التى تعمل على تأمين بترول إيران والموصل وقاعدة أطنه التى تعمل لتأمين خطوط الأنابيب العراقية .

ويتجه بترول العراق فى أنبوبته من كركوك حيث يتفرع إلى فرعين أحدهما إلى حيفا والأخر إلى طرابلس .

ويتجه بترول إيران من عبدان إلى الخليج الفارسى . أما بترول المملكة السعودية فانه يتجه من الظهران إلى رأس التنوره والبحرية إلى البحر الأبيض وتعد أنبوبة «التابلاين» اطول أنبوب فى الشرق فهى تعبر أربع دول [السعوديه — الأردن — سوريا] وتبعث الحياة فى قلب الصحراء وتنقل فى اليوم ٤٥ الف طن من البترول وقد تم إنشائها فى ثلاث سنوات وبلغت تكاليفها ١٦٨ مليونا من الدولارات .

وقد كشفت معركة السويس عن مدى اهمية هذه الأنابيب وأثرها فى قيام القومية العربية .

إيران ومصدق

أحتلت بريطانيا فى ٩ أغسطس ١٩١٩ مناطق هامة من إيران على غرار ما حدث فى مصر والعراق . وكان الصراع مستمراً بين البلاد وسلطان الإنجليز وكان رضا خان أحد ضباط القوازق الفرس. وكانت حكومة طهران وعلى رأسها الشاه أحمد القاجادى قد عجزت تماما على وضع خطة لأيقاف هذا الصراع وقد أتجه رضا خان فى مجموعة من الضباط إلى الزحف على العاصمة (١٥ فبراير ١٩٢١) فدخلها فى ٢٥٠٠ رجل ليفرض على الشاه حكومة جديده · وبعد معركة قصيرة أستطاع السيطرة على الأمور واقام حكومة برئاسة ضياء الدين وعين رضا خان وزيراً للحرب وقائداً أعلى فبدأ فى النهضة بالجيش · ولكن الطوائف المختلفة قامت بالثورة ضد الحكومة الجديدة واستطاع رضا خان أن يخمد هذه الفتن خلال عامى ١٩٢١ — ١٩٢٢ أذ قام بحرب عصابات ضد الثوار فى الجنوب بعد ذلك وجرت محارلات للقضاء على حياتة · مما دعاة إلى أن يتولى رئاسه الوزراء · وعندما سافر الشاه إلى أوربا خلاله الجو واستطاع أن يحقق أهدافه .

وكان رضا شاه يتشبه بمصطفى كمال حين أتجه إلى أقامه الجمهورية بالحيلة إذا قصد إلى مدينه قم المقدسه حيث كلفه رجال الدين أن يدافع عن الأسلام بوصفه الأساس الذى تقوم عليه الدوله · لم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبين العلماء وانتهى البرلمان باعلان الثقة به فتقلد أزمه الحكم من جديد .

وكانت بريطانيا قد وضعت يدها على أبار البترول فى ولاية خوزستان عام ١٩٠٥

عن طريق معاهدة عقدتها مع الشيخ خزعل أمير المحمره . وقد زحف رضاخان إلى خوزستان لاخضاع هذه المنطقة :

وقد استطاع رضا خان فى ١ كتوبر ١٩٢٥ أن يعزل الشاه الغائب عن البلاد وينهى حكم أسرة « قاجار » ويتسلم السلطة وكان الأتجاه يرمى إلى أقامه جمهورية إيرانية غير أن الشيعه المجتهدون رفضوا الجمهورية ووافقوا على إقامته ملكا وقد قاومت إيران الموقف فأنتصر على المخالفين واجتمع البرلمان ووافق على عزل الشاه وتحويل السلطة إلى رئيس الوزراء الذى اصبح شاه لايران فى نيسان ١٩٢٦ حيث أرتقى رضا « عرش الطاووس » المتألق بجواهر يرجع عهدها إلى حمله نادر شاه على الهند . وقد أستطاع الشاه أن يكسب مشاعر رجال الشعية كما أتجه بالشعب الإيرانى إلى الحضاره . فاجرى اصلاحات كبيرة وأنفذ الكثير من المشروعات النافعة فى سبيل ترقية إيران كما ابطل رضا شاه جميع الأمتيازات الأجنبية فى إيران ١٩٢٧ وفى عام ١٩٤١ وقعت أزمة إيران المعروفة عندما وقف الشاه موقف الحياد ورفض أن يجنح إلى معاونة أمريكا وبريطانيا فى اعتقال ٥٠٠٠ من الألمان الذين كانوا يعملون فى إيران كخبراء وكانوا يخشون من تدمير منشأتهم ولذلك اقتحمت روسيا وبريطانيا إيران فى وقت واحد من الشمال والجنوب وأرغمت حكومة إيران على طلبات الحلفاء واعلن رسميا فى ١٠ اغسطس ١٩٤١ أن الشاه تنازل عن العرش وخلفه أبنه الاكبر شاهبور ونقل الشاة إلى جزيرة الويشيوس. وبدأ رضا بهلوى حكمه فى جو من المؤمرات والأحداث . وقد كان من اخطر ماواجه الملك ثورة الشعب الجامحه لتأميم البترول بزعامه مصدق مما أدى ألى مقتل رازماره رئيس الوزراء وظهور آية الله كاشانى وجماعه فدائيان أسلام .

وقد واجهت بريطانيا أخطر موقف فى هذه الأزمـــة عندما اهتزت قواعد الاستعمار لأول مرة وإن كانت المؤامرات السياسية استطاعت أن تتغلب على الشعور الوطنى الفوار وتقضى عليه بسجن مصدق بعد محاكته والقبض على أنصاره وإعدامهم والعودة بالبترول إلى نفس الأسلوب الاستغلالى القديم .

وبعد «محمد مصدق» من أكبر خصوم الاستعمار فى العالم الإسلامى . فهو الرجل الذى وجه إلى المستعمرين أضخم قنبلة هزت دوائرهم : عندما قال « بترولنا لنا » وبدأ معركة رهيبة طويلة المدى مع الاستعمار وظل يقاوم بعنف ، حتى تحـــول الموقف ضده فحوكم وسجن ولـكنه حفر فى تاريخ صراع العالم الإسلامى مع الاستعمار اسمه بحروف نور ونار .

ولقد كان تاريخ مصدق كله ، قصة كفاح ممتدة فقد فرض عليه النفى أكثر من مرة خارج إيران ، كان ذلك عام ١٩١٩ عندما ألغى معاهدة إيرانية بريطانية وعندما خفض المرتبات الحـكومية إلى النصف ، وعندما نُصب الشاه رضا بهلوى امبراطوراً لإيران عام ١٩٢٠ إذ عارض فى شرعيه هذا التنصيب وظل يعارضه ثلاثة أعوام .

ثم اعتزل مصدق السياسة أحد عشر عاما متوالية . وقد تآمر عليه الشاه وزج به فى السجن ١٩٤٠ لمدة أربعة أشهر ونصف .

وطالب بخروج الروس من إيران ١٩٤٦ ، وفى مارس ١٩٥١ رفض البرلمان الايرانى بزعامة مصدق عرض شركات البترول التى تملك بريطانيا ٥٣ فى المائة من اسهمها . وطالب بمنح الحـكومة الايرانية ٥٠ فى المائة من الأرباح وأرغم البرلمان على اتخاذ قرار بتأميم البترول الايرانى وفى ٢٩ ابريل ١٩٥١ تولى مصدق الوزاره وطرد الانجليز من عبدان وتوقف انتاج البترول الذى يبلغ ١٠ فى المائة من إنتاج العالم كله . وأقال الشاة مصدق سنة ١٩٥٢ ولـكن الثورات الدمويه أعادت مصدق إلى الوزاره .

واستمالت بريطانيا الشاة ووسمت شقة الخلاف بين الأحزاب والقصر فقبض على مصدق واتهم بالخيانه ، ومحاولة قلب نظام الحكم وزج به فى السجن وحكم على عشرات الضباط بالاعدام كما أعدم الدكتور فاطمى ودخل مصدق السجن أول أغسطس ١٩٥٣ وظل به ثلاث سنوات حتى اخرج منه فى اغسطس١٩٥٦

وكانت مواقفه أبان محاكمته من أروع المواقف قوه وإيماناً وشجاعه . وقد وصف بأنه الأسد العجوز وقال المؤرخون . أن أقوى الحجج التى كان يعتمد عليها فى مقاومته الساحقة لبريطانيا هى مرضه الدائم . وعندما زار أمريكا نزل فى المستشفى بدلا من الفندق وكان سلاحه السياسى هو العاطفه ووصف بأنه رجل عام ١٩٥١ومن أقواله : لو أنهم أعدمونى لأحيوا الثورة فى إيران .

مولد الباكستان

تشبه حركة الانفصال بين الهند والباكستان فى بواعثها حركة الانفصال العربى عن القومية التركية التى كانت تعمل على تتريك جميع عناصر الامبراطورية العثمانية، فقد كان من الطبيعى أن تأخذ حركة التحرر الهندى مثلها من « الفيدا » باحياء الروح الهندى القديم والإيمان بالفلسفة البرهمية التى تقدم القرابين والذبائح إلى آلهة الهند وذلك فى سبيل مقاومة كل ما هو غربى .

وواجه المسلمون هذا الاتجاه التعصبى الهندى بحركة مقابلة ترمى إلى إحياء القومية المغولية التى لا ترضى بعبادة الأوثان ومن هنا تكونت الرابطة الاسلامية فى ٣٠ ديسمبر ١٩٠٦ على غرار المؤتمر الوطنى تهدف إلى حماية حقوق المسلمين الهنود السياسية ومصالحهم .

وقد أدى تمزيق الدولة العثمانية وانهيار الخلافة الاسلامية إلى ثورة هزت نفوس المسلمين الهنود على الانجليز وكان على قيادة الفكرة محمد على جناح .

ولم يمنع تفكير المسلمين فى حماية قوميتهم من المضى مع الهنود فى العمل لتحرير قادة الهند والتكاتف فى مقاومة الانجليز ومقاطعة بضائعهم ومدارسهم ومحاكمهم .

وكان جناح يخشى هو وأغلب المسلمين الهنود أنه إذا خرج الانجليز من الهند فان السلطان سيكون فى يد الأغلبية الهندية فتضيع مصالح المسلمين وحقوقهم وقد أدى إلى المضى فى الفكرة والعمل لها إلى اضطراد الخلافات بين الانجليز والهندوس وانعدام الثقة بينهما إذ كان نسبة الهندوس ٦٨ فى المائة والمسلمين ٢٢ فى المائة . (وهى نسبة ١ ـ ٥) . وفى نفس الوقت كان البراهمه يرون أن المسلمين دخلاء

على بلادهم ، بينما يعتقد المسلمون أن البراهمة مخطئون نظراً لأن المسلمين حكموا الهند قرونا طويلة وقد وقعت نتيجة للخلافات بين المسلمين والهندوس أحداث طائفية منها حوادث البنغال ١٩٢٢ و ١٩٢٧ و عباى ١٩٢٩ وكانبور ١٩٣١ و ١٩٣٨ .

ولا ينسى هنا جهاد اقبال فى المطالبه بالباكستان وحثه قومه فى كل مناسبة على انشاء دولة الهند الاسلامية لتحل مشاكل المسلمين .

وفى لاهور عام ١٩٤٠ أعلنت الرابطة المناداة بفكرة اقبال التى أعلنها عام ١٩٣٠ وهى انشاء الدول الاسلامية فى الهند « باكستان » وبذلك رفضت الرابطه الاسلامية مقترحات بريطانيا لأنها لم تشمل الاعتراف بإنشاء دول باكستان .

ومما قاله جناح فى مناقشاته « أن المسلمين والهندوس أمتان فى ضوء التعريف المعترف به للأمة . فنحن أمة مكونة من مائة مليون نسمه . لها ثقافتها الخاصة بها وحضارتها ولغتها وأدبها وأعلامها ومصطلحاتها . وشريعتها ودستورها الاخلاق . وعادتها وتاريخها · وفى أوجز عبارة أن لنا أسلوبنا الواضح فى الحياة ورأينا أيضاً عن الحياة ، فكل هذه الأسباب التى لها سند من القانون الدولى تؤكد حقنا فى أن نكون أمة · . وإن الطريق العملى الوحيد لحل الخلافات بين الهندوس والمسلمين إنما يتمثل فى انقسامها إلى أمتين · على أن تضم إلى الدولة الجديدة مقاطعة الحدود الشماليه الغربية وبلوخستان والسند والبنجاب والبنغال وأسام · وعلى كل من الدولتين أن تعامل الأقليه فيها معاملتها الاكثريه ·

وفى الأيام الأخرة من الحكم البريطانى اصطدم المسلمون والهندوس وبدأت حرب أهلية فى ١٦ أغسطس ١٩٤٦ وقعت معارك فظيعة « كلكتا » راح

ضحيتها ٤ آلاف من الهندوس والمسلمون وفى بهار من نفس العام قضى على ٨ آلاف مسلم ·

وتجددت المذابح فى أبريل ١٩٤٨ فى البنجاب .

وانتهى هذا بتقسيم الهند فى ١٨ يوليو ١٩٤٧ إلى دولتين مستقلين وقامت الباكستان برئاسة القائد الأعظم «جناح» وضمت الباكستان ثمانون مليونا من المسلمين .

غير أن عقبات قامت فى طريق الدولة الجديدة خاصة فيما يتعلق بما سيدفع لها من مال الهند وكذلك تكوين الجيش والاسطول والإدارة .

وقامت مشاكل فى البنجاب وكشمير . وبدأت عمليات الهجرة وتبعتها مجازر متعددة · وتم الاتفاق بين الهند وباكستان على أن يجلو المسلمون إجلاءاً تاماً عن البنجاب الشرقية وغير المسلمين عن البنجاب الغربية وقامت المذابح الوحشية فى دلهى نفسها حتى اضطر مائة ألف مسلم إلى الالتجاء إلى قلعه قديمة مطالبين بترحيلهم إلى باكستان ·

وحدث للمسلمين فى البنجاب الشرقية الكثير من حوادث التقتيل والتشريد وقدرت حكومة باكستان عدد اللاجئين إليها — بما فى ذلك لاجئى كشمير — بما يقرب من ٦ ملايين ونصف وقدر المهاجرين من باكستان الغربيه بما يقرب من خمسة ملايين ونصف من الهندوس والسيخ ·

وما تزال مشكله كشمير من المشاكل المختلف عليها بين الهند والباكستان حيث يوجد بها ٥ ملايين نسمه ثلاثة منهم مسلمون وحاكمها هندوسى وتنبع من كشمير ثلاثة أنهار عظيمه تمر بباكستان .

وقد أطلق اسم باكستان على الدول الاسلامية الهندية تفسيرا لكلمتى (باك) بمعنى طاهر و (ستان) بمعنى أرض واعتبر يوم ١٤ أغسطس ١٩٤٧ عيد قيام الدوله الجديده .

وتتكون باكستان من قسمين : باكستان الشرقيه (البنغال) وباكستان الغربية ويفصل بينهما حوالى ألف ميل من أراضى الهند .

ويبلغ مجموع سكان الباكستان ٧٥،٦٨٧،٠٠٠ نسمه .

* * *

وقد حرص القائد الأعظم محمد على جناح أن يرسم للباكستان سياسه قويمة رشيدة « أننا نؤمن بمبدأ الشرف والانصاف سواء فى المعاملات الخارجية أو الداخلية وسنظل على أتم استعداد لنصر السلام بين الدول . »

واتجهت سياسة باكستان أعوام ٤٨ و ١٩٤٩ إلى العمل للقضايا العربية الاسلامية بروح عالية وكانت فى مقدمه هذه القضايا — قضية فلسطين — كما أيدت استقلال سوريا وعضدت حركة الجهاد فى مراكش وآزرت أندونيسا ضد هولنده كما رفضت منح هولندا تسهيلات النقل البحرى .

وقد امتدت هذه الخطط إلى عام ١٩٥١ ثم حدث بعد ذلك أن تحول موقف حكومة الباكستان حيث قبلت الدخول فى حلف بغداد مع الولايات المتحدة وبريطانيا وأيدت سياسة التكتلات الغربية بحكم وصفها عضوا فى مجموعة « الكومنولث » .

تحرير اندونيسيا

فى مارس سنة ١٩٤٢ عادت الحرية إلى دولة إسلامية كبرى فى الشرق الأقصى ، ظلت مستعمرة هولاندية زهاء ثلاثة قرون ونصف . وتبلغ مساحة أندونيسيا قدرمساحة أوربا بأجمعها . ويبلغ عدد جزر الأرخبيل الأندونيسى أربعـة آلاف جزيرة أهمها سومطرا وجاوه و بورينو وغينا الجديدة ويبلغ سكانها ٧٢ مليونا منهم ٩٥ فى المائة مسلمون .

وقد دخل الاسلام أندونيسيا عام ١٤٠٠ أى منذ خمسمائة عام ، دخل مع التاجر المسلم المتجول الذى كان يتنقـــل فى أنحاء القارة حاملا معه دينه وبضائعه فـكان بعيد الأثر فى نفسيات الوثنيين الذين كانوا يتطلعون إلى المثل الأعلى .

وفى يونيو ١٥٩٦ حطت مراسيها فى منياء «نيتام» الأندونيسى أول سفينه هولنديه حيث دخل الاستعمار الهولندى أرض أندونيسيا فى زى التجار أو مسوح الرهبان وبدأ فى استغلال المواد الهائلة من زيت البترول والمطاط والـكوبرا والبن والشاى والاخشاب والتوابل مدى ثلاثمائة عام .

وقد بدأت حركة التحرير فى أندونيسيا منذ أن وطئت أقدام الغـــزاة الهولنديين بلادهم ، وفى القرن الثامن عشر اشتدت حركة المقاومة واشتد الصراع بين الوطنية والاستعمار حيث قدمت أندونيسيا شهداءها و خضبت الأرض بدماء الأحرار .

وكان الاستعمار الهولندى قد زحف إلى هذه البلاد فى صورة التجارة بعد أن تفككت أوصال امبراطورية « ماجاناهيت » وانقسامها إلى دويلات غير مرتبطة مما سهل للاستعمار التوغل فيها والسيطرة عليها ·

ولكن الاندونيسيين — بما عرف فيهم من صرامة وعزيمة — قاوموا بكل قوة وكتبوا فى سجل الشرف والوطنية اسماء عدد من أبطالهم فى مقدمتهم الامام بنجول الذى ظل يحارب الهولنديين فى سومطرة الغربية عشرين عاما تقريبا حتى عام ١٨٣٨ ولولا نقص أسلحته لاستطاع هزيمتهم هزيمة كاملة ·

ويحفظ التاريخ سجل البطل « ديبو فيجورد » الذى حاربهم حتى عام ١٨٣٠ · وكذلك الأمير « تنكو » الذى أمضى أكثر من ثلاثين عاما يقاوم حتى عام ١٩٠٤ حيث استشهد القائد المغوار وخلفته فى القيادة زوجته الأميرة « نيىء دين » التى مضت تحارب بعده تسع سنين .

وهكذا اتصل كفاح الأندونيسين ولم يتوقف حتى عام ١٩٠٨ حيث بدأت مرحلة جديدة بظهور الأحزاب ، وفى مقدمتها « سركت اسلام » برآسة عمر سعيد، وقد بلغ أوجه أثناء الحرب العظمى الأولى مما حمل الحكومة الهولندية على اشراك الشعب الأندونيسى فى حكم البلاد سنة ١٩١٨ ثم عادت هولندا بعد الحرب فسحبت قرارها مما كان له رد فعل سيىء فى أوساط الحركة الوطنية ، التى بدأت تقاوم المستعمرين وتعلن عدم التعاون معهم .

وقاطع الشعب مجلس الأمة المجالس البلدية ،وأخذت الحركة الوطنية عام ١٩٢٢ وما بعده طابع العنف والحماسة البالغة وصدرت صحف ثائرة تحمل أسماء النار واللهب والعاصفة .

ومضت الحركة الوطنية فى كفاح ضخم متصل حدثت فيه الاضطرابات

المختلفة فى الموانى وطرق المواصلات وتمددت الأشتباكات الدمويه ، وقابلت الحكومة المستعمرة هذه الحركة بالعنف والقسوة فملأت السجون بالوطنيين ، وشردت الزعماء الذين كانوا يقودون المقاومة أمثال سماعون وتان ملاكا ، وغيرهما إلى خارج البلاد .

غير أن هذا زاد الثورة قوة وانفعالا ، فانفجرت فى صورة رائعة بهرت العالم كله عام ١٩٢١ و ١٩٢٧ واستخدمت هولندا وسائل العنف والقسوة البالغة فى سبيل مقاومتها ، وذهب ضحيتها آلاف المجاهدين الذين استشهدوا وسجنوا ونفوا .

وفى محيط هذا الصراع القوى والمقاومة الفعالة وبين أحداث الاستشهاد والنفى ظهر فى صفوف المجاهدين « أحمد سوكارنو » الذى استطاع فى فترة قليلة أن يكسب ثقة الجماهير حيث أعاد تنظيم الصفوف وبث روح الحماسة فى النفوس وناداه الشعب لاول مرة باسم « بونغ كارنو » وكان ذلك آية الحب والولاء بين القائد والشعب ، مما أزعج المستعمر الذى اختلق الأسباب لنفيه وتشريد أتباعه حيث قبض عليه فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ مع طائفة كبيرة من أنصارة فى جميع مراكزهم بأنحاء البلاد ، وحوكم سوكارنو واشترك فى الدفاع عنه كبار المحامين ، والقى خطبة فى دفاعه عن نفسه يومين متواليين ، وكان مما قاله :

« لقد سطع الفجر الجديد . وسيزداد سطوعه شيئا فشيئا وليس هناك قوة للانسان ولا للدول لواجتمعت جميعا : بل ليس هناك أية قوة أياكان نوعها تستطيع أن تمنع طلوع تلك الشمس التى تحيى ما يجب أن يحيا وتميت ما يجب أن يموت ، وستذوب جميع العراقيل والعقبات كما تذوب الثلوج تحت أشعة الشمس الساطعة ، وتتبدد السحب أمام الرياح العاصفة . لقد استعد الشعب الاندونيسى

بقلوب ملؤها الأمل لاستقبال طلوع تلك الشمس»

وفى أثناء وجود سوكارنو فى السجن عاد الدكتور « محمد حتى » من أوربا وتسلم زعامة الحركة وقاد البلاد على نفس الطريقة ، وكان قد سجن من قبل ستة شهور بتهمة اثارة الثورة التى كانت ناشبة عام ١٩٢٦ ولكن فترة قليلة مرت قبل أن يعتقل هو الآخر ومعه أعوانه ، ونفوا جميعا إلى أواسط غابات غينا الجديدة حيث مكثوا بها عشر سنوات إلى حين نشوب الحرب فى الشرق الأقصى .

وفى خلال ذلك لم تخل البلاد من زعماء كانوا يقودون حركة المقاومة فى الوقت الذى بلغت فيه هولندا غاية العسف والاضطهاد تحت ظل الاحكام العرفية ، فالاجتماعات ممنوعة ، والصحف معطلة ، و ذكر الحرية والاستقلال محرم كما أن تفسير ايات القران فى الجهاد جريمة .

ولكن الحركة الوطنية رغم هذا كله مضت قوية مندفعة إلى الامام يوقد جذوتها ابناء الوطن ، فما أن أنتهت الحرب العالمية الثانية حتى هبت البلاد كلها مطالبة الحكومة باعطاء الشعب مسؤلية الحكم كاملة .

ولم تنس هولندا أنها عجزت عن تجنيد أبناء أندونيسيا فى أول الحرب عندما أفتى المجلس الاسلامى الاعلى بأنه ليس شهيدا من مات فى الجيش الهندى فلم يتقدم أحد للجندية .

وفى عام ١٩٤٢ نزلت القوات اليابانية أندونيسيا وأرغمت هولندا على التسليم واستولت على أسلحتها وعتادها . وهدفت اليابان من هذا إلى تحقيق مشروع « اسيا الكبرى » تحت سلطان الميكادو . وهنا وجد الأندونيسيين أن

اليابان تريد استبدال استعمار باستعمار ، هنالك بدأ الشباب الاندونيسى فى التدرب على ضروب الفنون الحربية ، مواصلا الكفاح فى سبيل تحرير البلاد من الجيوش الاجنبية ٠

ولما استسلمت اليابان طلبت إلى الجيوش اليابانية المحتلة فى أندونيسيا تسليم الحكم إلى القوات الحليفة فهب الشباب الاندونيسى بمختلف هيئاته الوطنية وتكتل فى قوة عسكرية كبرى واشتبك مع الجيوش اليابانية حتى تغلب عليها نهائيا فى عام ١٩٤٥ ، حيث أعلن احمد سوكارنو قائد القوات الوطنية أستقلال أندونيسيا

ولم يكن هذا خاتمة الكفاح بل كان بدء مرحلة أخرى خطيرة ، اذ أنزلت بريطانيا جندها فى هذه الفترة إلى جاوه بحجة اطلاق سراح الاسرى ونزع السلاح من الفلول اليابانية الباقية فى البلاد ، مخفية الغرض الحقيقى وهو إعادة الاستعمار الهولندى إلى أندونيسيا ٠

وهنا أصدرت القيادة الوطنية الاندونيسية أمرا إلى رجالها بالصمود أمام كل محاولة لعودة الجنود الاجنبية إلى أرض الوطن فقاوم الاندنيسيون المغتصب بقوة وشجاعة ، وكانوا قريبين من النصر لولا أن ضرب الاسطولان البريطانى والهولندى ميناء (سورابايا) ودخل الهولنديون اندونيسيا من جديد ٠

واتفقت اندونيسيا مع هولندا على تخفيض قوات الاحتلال وقيام دولة أتحادية دمقراطية لجمهورية أندونيسيا عام ١٩٤٩ مكونة من جاوه وسومطرة وما دوره وشرق أندونيسياوبورينو. ولكن هولندا لم تلبث قبل أن توقع الاتفاق أن زادت قوت الاحتلال وحاصرت الجمهورية الجديدة برا وبحرا وأنشأت حكومة فى « كليمنتان » ومضت تعرقل سير المفاوضات .

وتماسكت أندونيسيا واتحد سكان الثلاثة آلاف جزيرة يدا واحدة فى وجه

هولندا . وأعلن العرب تضامنهم مع أندونيسيا ، واتسعت رقعة النضال التحريرى واعترفت مصر والدول العربية بالجمهورية الجديدة .

وهنا — وإزاء المقاومة الضخمة والتأييد المتصل من الدول العربية — اضطرت هولندا إلى عقد اتفاق مع أندونيسيا اعترفت بموجبه باستقلالها .

ثم عادت هولندا فخرقت الاتفاق مرة أخرى وقامت بعمليات حربية واسعة النطاق . فاحتلت قوات الاستعمار العاصمة « جاكارتا » واعتقلت الدكتور « سوكارنو » والدكتور « حتى » ونقلتهما فى ديسمبر سنة ١٩٤٩ إلى جزيرة بانكا . وهنا قام « نهرو » بدور هام فى مقاومة هذا القرار حيث عقد مؤتمر الدول الآسيوية فى دلهى وايد الشعب الاندونيسى فى نضاله وقد اشتركت فى هذا المؤتمر مصر وبعض الدول العربية ، وكانت قرارات هذا المؤتمر مرغمة لهولندا التى اضطرت إلى إطلاق سراح زعماء اندونيسيا وأعادت اليهم سلطانهم ، وتحقق للشعب الاندونيسى سيادته وحريته بعد كفاح مرير .

واليوم تجاهد اندونسيا مرة أخرى فى سبيل تحرير جزء هام من الوطن هو « اريان الغربية » الذى مازال محتلا كما تقاوم مؤامرات غربية لمحاولة تأييد بعض الخونة فى بعض المناطق للقضاء على الحكومة الشرعية المؤيدة من الشعب والتى يرأسها بطل أندونسيا سوكارنو .

القومية العربية اكبر قوة فى العالم الإسلامى

القوة العربية تبرز إلى الميدان

— ١ —

مر العالم الإسلامى بأدوار كثيرة لفكرة التجمع التى كانت رائدة دائما . وقد كان الاستعمار فى صراعه الهائل يزيده اندفاعا نحو الاتحاد . غير أن الاستعمار كان أيضاً يحاول أن يجرى فى تيار الاتحاد لتحقيق غايته وليكون هذا العمل الخطير تحت إشرافه ومعونته وإرشاده ومن ثم تضييع الغاية الكبرى من التجمع والوحدة التى يقصد بها ضرب الاستعمار بقوة وتحطيم سلطانه وانتزاع أنيابه التى يقبض بها على مفاتيح البحار ومقاليد الأمور فى العالم الإسلامى .

وعندما دعا السلطان عبد الحميد فى نهاية القرن الثامن عشر إلى « الجامعة الإسلامية » وحاول أن يجند لها أعلام العالم الإسلامى أمثال جمال الدين الأفغانى الذى كان أسبق إلى نفس الدعوة ولكنه يختلف فى أهدافها ومراميها مع الخليفة العثمانى الذى اندفع إلى حمل لواء الفكرة فى سبيل حماية ملكه ودعم سلطانه الاستبدادى .

وعندما دعا « محمد على » إلى الوحدة العربية إنما كان يهدف إلى تحقيق مطمع شخصى بحت لم تمد له أسباب البقاء والاستمرار الطويل ولذلك سرعان ما انهار . وفى أوائل الحرب العالمية الأولى حمل دعوة الدولة العربية الشريف حسين وكان فى ذلك الوقت متصلا بالانجليز وحلفائهم وكان يطمع فى أن يكون ملك العرب بصرف النظر عن مظاهرته للاستعمار .

ومرة أخرى نادى إيدن بوحدة العرب وأعلن موافقته على قيام جامعة بين الدول العربية . وكان هدفه من الوحدة العربية معروفا .

ودعت إلى الجامعة الاسلامية فى إبان الفترة بين الحربين العالميين وبعدها دول كثيرة . كما دعى للرابطة الشرقية والكتلة الإسلامية والهلال الخصيب وسوريا الكبرى والكتلة الثالثة وغيرها من دعوات كان الاستعمار ورائها . ذلك لأن الدعاة إليها كانوا يطمعون فى تنفيذها بمعونة الدول الكبرى صاحبة المصالح الغالبة فى البترول والخامات .

أما القومية العربية التى انبثقت الدعوة إليها بعد ثورة ١٩٥٣ فإنها تختلف اختلافا واضحا عن هذه الدعوات لسبب واحد هو أنها استهدفت من اليوم الأول تحرير الوطن وعدم الانحياز ورفضت الدخول فى « تكتلات من أى نوع » . وآمنت بأن الدفاع عن المنطقة يجب أن ينبثق من داخلها وبواسطة شعوب المنطقة .

ومعنى هذا أن القومية العربية استهدفت أن تكون منبعثة من أعماق الشعوب بعيدة عن الكتلتين على أساس واضح من الحياد الإيجابى والتعايش السلمى والتحرر الكامل من سلطان المستعمر .

ولقد جرت مباحثات طويلة بين دول الجامعة العربية فى سبيل دعم الضمان الجماعى وتوحيد الخطط السياسية والعسكرية والاقتصادية غير أن المستعمر حاول بكل وسيلة أن يقف فى وجه هذه الوحدة . وكان أول عمل قام به هو إنشاء حلف بغداد الذى انضمت إليه دولة واحدة من الدول العربية هى العراق بالاشتراك مع تركيا والباكستان من الدول الإسلامية .

وقد اتفقت سوريا ومصر على دعم خطط القومية العربية كما تم الاتفاق بين مصر وسوريا والمملكة السعودية والأردن على تنظيم الخطط العسكرية ثم تحول

الموقف فى الأردن فانفصلت عن هذه الخطة بعد أن حدث فيها انقلاب داخلى أطاح بالحكومة الوطنية .

وليس معنى تخلف الأردن والعراق عن القومية العربية هو عدم إيمانها بها وإنما يرجع ذلك إلى أن الحكومات وحدها هى التى تتردد فى الانضمام إلى التيار الضخم الذى بلغ قوته على أثر حرب السويس وأبانها . وتشهد الوقائع المختلفة بأن شعوب هذه الدول العربية تؤمن إيمانا صادقا بالقومية العربية وتناضل من أجلها مناضلة هى مبعث الخلاف بينها وبين الحكومات التى لم تصل بعد إلى قوة الوعى الذى تؤمن به الشعوب .

ويجمع المؤرخون والمعلقون السياسيون على أن جمال عبد الناصر هو رائد القومية العربية بصورتها الحديثة الواضحة . وأن حماسته وإيمانه بهذه الفكرة وعمله المتصل لها كان ولا يزال بعيد الأثر فى نفوس الشباب العربى فى مختلف أنحاء المنطقة الممتدة من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى كما عبر عنها غير مرة .

ولقد أعلنت مصر بعد تحررها من الاستعمار البريطانى أنها تؤيد بقوة وبكل الوسائل حق تقرير المصير وقد ساهمت مساهمة فعالة فى حركات التحرير فى ليبيا وتونس مراكش والسودان .

ولا شك أن تيار القومية العربية الدافق الذى هز جميع أجزاء الوطن العربى إنما كان مصدراً صحيحاً لثورات الأردن والبحرين وعمان والجزائر التى هزت الاستعمار من قواعده وقلبت خططه وجعلته يفكر من جديد فى أساليب جديدة .

ولقد كانت معركة السويس فى حقيقتها تمثلة أراد بها الاستعمار الفرنسى والانجليزى محاولة القضاء على مصر باعتبارها روح القومية العربية مستعيناً باسرائيل التى كانت منذ مولدها تعدّ لمثل هذا الدور الذى قامت وتقوم به، محاولة

الحيلولة دون توحيد الجبهة العربية أو قوتها وتأكيد جيوشها وتجمعها .

ولقد حاول الاستعمار أن يخلق مؤامرات أخرى فى سبيل القضاء على القومية العربية بتزييف خطابات ورسائل وتصاريح . أو التشكيك فى وحدة الصف العربى . أو خلق مشاكل حول قيادة القومية العربية غير أن صدق إيمان الأمة العربية وثقتها الخالصة حالت دون تصديق هذه الشبهات . .

ولقد كانت القومية العربية عاملا فعالا فى معركة تأميم شركة قناة السويس فقد هب العالم العربى بصورة رائعة فى اضراب جامع ومظاهرات هزت الاستعمار وحاول أن يصورها فى صورة أو أخرى ليغض من قيمتها ولكنه فشل فى ذلك واستطاعت الصورة الكاملة الحقيقية أن تصل إلى العالم الغربى والضمير العالمى على حقيقتها دون تزييف مما أكد حق مصر فى تأميم القنال وقوة عارضة القومية العربية ووقوف معظم دول العالم فى صف مصر والعرب .

— ٢ —

لاشك أن « القومية[1] العربية » ميراث قديم قد حاول العرب ابتعاثه لولا أن الاستعمار كان يحول دون ذلك أو يحول تياره إلى مصلحته الخاصة لذلك كان من الضرورى أن تقوم القومية العربية على أساس من الحرية .

وقد كان جمال عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ قد أحس بهذا المعنى الذى عاش فى نفسه طويلا وقد صوره فى مواضع متعددة فى كتابه فلسفة الثورة .

---

(١) كلمة القومية العربية هى عبارة جديدة جرت على لسان جمال عبد الناصر وكان يطلق من قبل على معناها الوحدة العربية أو غيرها من العبارات وبذلك وضح الفارق التاريخى بين العبارات وما تحمل من معانى .

« إن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلا غير مرئي ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في الفالوجة وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا .

ولقد بدأت أومن بكفاح واحد مشترك .. وأقول لنفسي ، مادامت هذه المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحداً ، والعدو واحد فلماذا تتشتت جهودنا ثم زادني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية . ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، إيجاد الخط الذي يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج وبلا عنت لمواجهة الكفاح الواحد .

ولسوف أظل أقول دائماً أننا أقوياء ولكن الكارثة أننا لا ندرك مدى قوتنا . . إننا نخطىء في تعريف القوة . فليست القوة أن نصرخ بصوت عال . وإنما القوة أن نتصرف إيجابيا بكل ما نملك من مقوماتها .

ثم أشار إلى أن عناصر قوتنا العربية ثلاثة :

١ — شعوب متجاورة مترابطة بكل رباط مادي ومعنوي . لها خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاث .

٢ — أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم ذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذي يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ومعبر تجارته وممر جيوشه .

٣ — البترول الذي يعتبر عصب الحضارة وبدونه تستحيل أدواتها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ » ١٠ هـ .

والقومية العربية عنوان على وحدة شامله فى الارض والوطن والاهداف والمبادىء تجمع هذه المنطقه العربيه كلها فى اطار واحد . فيها ذلك الشعور بالتجمع والاحساس بالوحدة والتلاق تنطق العربية وتشارك فى التراث العربى الإسلامى والتاريخ الطويل والميراث المشترك من العادات والتقاليد .

ولقد ظلت هذه المنطقه تتنادى فى نطاق الوحدة منذ عهد بعيد جدا غيرأن الاستعمار حاول دائما منذ قرن ونصف قرن ، تحطيم هذه الوحدة وتمزيق هذه الجبهة الطبيعية والجغرافية المتحدة فى كل شىء وإثارة بعضها على البعض الأخر. وافساد ما بينها من اخاء وود بالدس والوقيعه والمطامع وتزييف الدعايات الباطله وذلك حتى لاتلتقى فى وحدة جامعه . وبعدالحرب العالميه الأولى اقيمت الحواجز بين اجزاء الوطن العربى واثيرت المشاكل الداخليه المتعدده حتى لايتجه طرف من أطراف هذا الوطن إلى الطرف الأخر . واثيرت دعوات الفرعونيه والفينيقية والأشوريةلعزل هذهالأقطار عن حاضرها العربى وردها إلى ماضيها القديم وبالرغم من هذا كله فقد عجزت كل القوى عن تحطيم المعنى العربى القومى الذى ظل رابضا فى اعماق هذه الامه بعد محاولات متعدده ضد الوحدة والتجمع كانت تقوم عن طريق الحكومات .

غير أن اليقظة الجديده بدات من أعماق الشعوب ومن بين طبقات الأمه نفسها . كانت تدفعها كلمة الحرية أولا واستطاعت أن تحقق الكثير من الأنتصارات ثم بدأت تتلاق فى تجمع ووحدة شاملة قوامها والثقافة والاقتصاد والجيش .

وقد وقعت مواثيق لهذا الغرض بدات تاخذ طريقها إلى التنفيذ وكان ابرز مظاهر القومية العربيه (١) الايمان بالحياد والابتعاد عن الاحلاف (٢) تقوية الجيش والتسليح الكامل لمقاومة الاستعمار (٣) التقارب بين أهل الاقطار والتقائهم

فى اخوه واسعة النطاق (٤) معاونه اجراء الوطن العربى الأخر فى احراز حق تقرير المصير .

وقد استطاعت القوميه العربية فى هذ الفتره القصيرة أن تثبت وجودها فقد اقتلعت اعوان الاستعمار فى بعض الأقطار العربيه . كما نجحت فى موقفين عظيمين واثبتت وجودها : معركة السويس والمؤامرة على سوريا .

وظهرت قوة القومية العربية فى كفاح الجزائر المستميت ٠ فى كفاح عمان واليمن والبحرين وفى اعاده سلطان مراكش من منفاه . وتحرير تونس ومراكش

وقد أصبح الاستعمار ينظر فى حذر إلى هده القوة الضخمة إلى أخذت طريقها إلى المجال الدولى فى هيئة الامم المتحده وخارجها ٠ وقد اصبح لرأيها قوته التى لا يمكن تجاهلها فى توجيه سياسة الامة العربية التحريرية .

كما أصبح من المستحيل أن تؤثر الدعايات واساليب الدس والتآمر التى تقوم بها بعض الدول العربية بين الدول العربية .

وبذلك استطاعت هذه القوة أن تسبق جامعة الدول العربيه بمراحل ، ولاشك أن القوميه العربية فى دورها الجديد تأخذ طريقا إيجابيا عمليا قائما على اسس من ترابط المصالح وتحقيق التبادل فى مختلف ميادينه على أساس الروابط العاطفيه والروحيه التى كنا نقف عندها فى الماضى ٠

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢[1]

جاءت ثورة ١٩٥٢ الظافرة بعد أربعين عاما من ثورة ١٩١٩ التى فشلت فى تحقيق رسالتها بعد سنوات قليلة من قيامها حين تحولت إلى الحزبية وخدعت بالبرلمان والدستور عن أهدافها العليا .

وتبين بعد سنوات أن الفساد يستشرى ويزداد عنفا معتمدا على مصادر متعددة :

- الاحتلال البريطانى وأعوانه وسلطانه المبسوط على البلاد بقوة الجيش البريطانى والأسطول البريطانى ٠
- القصر والملكيه وسلطان الملك وأعوانه وأذنابه .
- الاقطاع وسلطانه الضخم فى الريف واستعباده لطبقة ضخمة تبلغ ٨٠ فى المائة من سكان البلاد .
- الحزبية ممثلة فى المستوزرين والحكام الذين يتعاورون الحكم ويتصارعون عليه ٠

وقد استطاعت الثورة المصرية العربية فى خلال فترة ستة سنوات (٢٣ يوليو ١٩٥٣ — ٢٣ يوليو ١٩٥٨) وهى فترة قصيرة من عمر الشعوب والثورات أن تحقق انتصارات باهرة كانت أحلاما فى نفوس المصلحين خلال قرن ونصف قرن من الزمان .

---

(١) أحيل القارىء على التفصيلات فى كتابى : جمال عبد الناصر والثورة . وجمال عبد الناصر وكفاح الشعب .

ولم يكن حادثي طرد فاروق وإلغاء الملكية على ما بهما من خطر من أكبر أعمال الثورة بل كانا بداية لإلغاء الإقطاع والحزبية .

وهنا بدأ الاستعمار يترنح فان قواعده الثلاث التي كان يعتمد عليها كانت قد تهاوت .

كان الاستعمار يعيش على (الاقطاع . القصر . الأحزاب) وقد تحطمت جميعا

٩ سبتمبر ١٩٥٢	إلغاء الإقطاع
١٧ يناير ١٩٥٣	إلغاء الأحزاب
١٦ يونيه ١٩٥٣	إنهيار الملكية وإعلان الجمهورية

ولم تلبث الثورة أن ضربت ضربتها القوية وحققت هدفها الأكبر وهو تحرير مصر وذلك حين قضت على الاحتلال في ٢٨ يولية ١٩٥٤ بعد أن كم البلاد خلال ٧٨ عاما (١٨٨٢ — ١٩٥٤) ولم نصل إلى ١٨ يونية ١٩٥٦ حتى كان آخر جندي بريطاني قد خرج من مصر وتطهرت مصر تماما من الاحتلال الذي توالى عليها بالأتراك والفرنسيين والانجليز في مدى قرون طويلة . ولا يمكن القول أن الجلاء تم في سهولة ويسر . وإنما جاء نتيجة لعمل عسكري ضخم في داخل المعسكرات البريطانية نفسها ، فضلا عن القضاء على أذناب الاستعمار وأعوانه في الخارج بصورة أقنعت المستعمر بأنه لا بقاء له من بعد وأن بقي فسيظل مهدداً بجو خطير لا قبل له باحتماله ولم يكن الاستعمار ليستطيع أن يبقى إلا في جو من الأمن واستطاعت الثورة أن تنشىء لمصر جيشاً قوياً وتفتح مصانع الأسلحة وتعزز ذلك بعمل خطير هو الاتجاه إلى الكتلة الشرقية لشراء الأسلحة بعد أن حيل بينها وبين الحصول عليها من الغرب وبذلك فتحت ثورة مصر أمام الأمة العربية باب التحرر من الغرب . وكان لمؤتمر باندونج أثره الواضح في ظهور كتلة الأمم الآسيوية والأفريقية . هذه الكتلة التي أثبتت وجودها وفتحت أمام مصر ميادين واسعة

للتبادل الاقتصادى فى الصين والهند مما أدى إلى تحطيم الحصار الاقتصادى الذى حاول الاستعمار فرضه على البلاد، واتجهت الثورة إلى الميدان العربى فخطت فيه خطوات إيجابية صادقة فبدأت القومية العربية تأخذ طابعا حقيقياً بعد أن كانت قبل الثورة مجموعة من الكلمات البراقة . وأخذت الأمة العربية تتقارب وتتفاهم وتيقظت شعوبها لمقاومة الاستعمار وحربه والجهاد فى سبيل تحقيق حرية كاملة لأوطانها . وبدأ أثر مصر واضحاً فى كفاح كثير من دول العرب فارتبطت مصر وسوريا ثم عاونت بقوة على تحرير تونس ومراكش والسودان والجزائر . وكان لاندلاع القومية العربية أثره فى انتفاضة الأردن . وحركات المقاومة فى عمان والبحرين .

ثم لم تلبث الثورة أن وجهت ضربة أخرى للاستعمار هى تأميم شركة قنال السويس (٢٦ يوليو ١٩٥٦) هذه الضربة التى هزت الغرب وأثارت اثاراً ضخمة فى فرنسا وانجلترا وهما الدولتان اللتان لهما أكبر نصيب فى أسهم القناة . مما أدى إلى حملة السويس التى هاجمت بها بريطانيا وفرنسا واسرائيل مصر فى ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ وهاجمت بورسعيد فى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ وقد انتهت هذه الحملة بالهزيمة الساحقة للدول الثلاث واستطاعت مصر أن تقاوم هذا الغزو وأن تحرر بلادها بقوة السلاح . وعادت الملاحة إلى القناة فى أبريل ١٩٥٧ وبدأت تخطو خطوات إيجابية فى الإصلاح الإجتماعى ورفع مستوى الشعب .

* * *

وقد سجل الرئيس جمال عبد الناصر قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بأن أهداف الثورة هى (١) القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين (٢) القضاء على الاقطاع (٣) القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم (٤) إقامة جيش وطنى قوى (٥) إقامة عدالة اجتماعية (٦) إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

ولأول مرة وقفت مصر موقف الحياد الإيجابي في النزاع بين الشرق والغرب فلم تنضم إلى كتلة من الكتل أو حلف من الأحلاف . وأعلنت سياستها صريحة واضحة في معاونة الدول على التحرر . وضرورة انبثاق الدفاع عن المنطقة العربية من قلب المنطقة حيث تعتمد الدول في المنطقة العربية على نفسها .

وقال جمال عبد الناصر : أننا في تنظيم الدفاع ضد أي خطر خارجي يجب ألا ننسى الأخطار التي تنجم عن إقامة سيطرة أجنبية بشكل أو بآخر قد ينجم عنها التقييد الكامل بالنسبة للسياسة الخارجية والسياسة الداخلية وهو تقييد يتنافى تنافيا كاملا مع سياسة التحرر الكامل التي قامت عليها أهداف الثورة .

وكما اتجهت مصر إلى عدم الانحياز آمنت بمبدأ التعايش السلمي .

وقد أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونج : أن الاستعمار أصبح شيئاً من مخلفات القرون الماضية وأنه لا يتفق مع العهد الجديد للعالم لأنه يتجاهل التقدم الإنساني ويقاوم قوانين التطور . وأعلن أن مصر تقف موقف المدافع عن حرية ورفاهية الشعوب تأييداً لمبدأ تقرير المصير . كما أنها تؤيد الأمم المتحدة بوصفها منظمة دولية تعمل لصيانة الأمن والسلام .

وقال أن السبيل إلى تحقيق السلم العالمي لابد له من خمسة شروط (١) نجاح جهود الأمم المتحدة لتنظيم وتحديد وتخفيض القوة المسلحة والتسليح والقضاء على الأسلحة ذات التدمير الشامل. (٢) تمسك هيئة الأمم بالميثاق ومبادئه لتحقيق السلم العالمي. (٣) وجوب احترام الالتزامات الدولية . (٤) وجوب وقف الضغط السياسي من الدول الكبيرة على الدول الصغيرة . (٥) تصفية الاستعمار الذي كان سببا في الاحتلال بين الدول .

وقد أعلن جمال عبد الناصر في ١٦ يناير ١٩٥٦ دستور الشعب وقدمه بخطاب

تاريخى سجل فيه مراحل الكفاح التى مرت بمصر . وقد استهل الدستور بالاعتراف بمصر دولة عربية مستقلة وهى جمهورية ديمقراطية والشعب المصرى جزء من الأمة العربية والإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية .

وسجل جمال عبد الناصر عندما أعلن صفقة الأسلحة التشيكية أن الغرب حال بين مصر وبين بناء جيش قوى .

وتوالت الانتصارات بأعلان الجلاء وسفر الرئيس فى ١٢ يوليه ١٩٥٦ إلى يوغسلافيا وانعقاد مؤتمر بريونى بالبحر الأدرياتيكى مع نهرو رئيس وزراء الهند وتيتو رئيس جمهورية يوغسلافيا .

وقد وضع المؤتمر قرارات هامة تهدف إلى تحقيق التعايش والسلم العالمى وتقوية الروابط مع الدول التى ترفض الانحياز وتحريم أسلحة الدمار وحل مشكلات فلسطين والجزائر وألمانيا .

وقد جاء اعلان تأميم شركة القنال على أثر رفض أمريكا لتمويل السد العالى . وسجل الرئيس أن مصر ستبنى السد العالى معتمدة على سواعد أبنائها وعلى اتحـــادهم وقد نقل قرار التأميم إلى مصر حقوق هذه الهيئة والتزاماتها وفى الوقت الذى كان الرئيس جمال عبد الناصر يذيع خطابه كان رجال الهيئة المصرية التى شكلت لإدارة الشركة يتسلمون بالفعل منشئات الشركة ومواقعها المختلفة .

* * *

وقد نقلت ثورة ١٩٥٢ مصر من حياة قوامها الملكية والأحزاب والاقطاع والاستعمار إلى حياة جديدة تحقق فيها لأول مصر حكم مصر بواسطة أبناء مصر وفق النظام الجمهورى القائم على الديمقراطية الصحيحة .

وقد تحقق بعد إعلان «دستور الشعب» قيام الحياة النيابية بانتخاب مجلس الأمة المصرى وبذلك استكملت مصر حياتها الدستورية .

وإلى جوار ما حققته مصر من انتصارات خارجية ضخمة حققت فى الداخل أعمالا خطيرة أهمها تمصير الاقتصاد وتوحيد القضاء وإعطاء المرأة حقها السياسى وتصنيع البلاد وقيام صناعة الحديد والصلب والبدء فى مشروعات كهرباء خزان إسوان والسد العالى ومديرية التحرير وبناء مدينة قنا ومدينة بور سعيد وإلغاء الرتب والالقاب وصدور قوانين العمال وبناء المساكن الشعبية والوحدات المجمعة والمدارس الجديدة وتعميم مياه الشرب وشبكات الطرق .

تاميم القنال

بدأ حفر قناة السويس فى ٢٥ ابريل ١٨٥٩ عندما اتفق فردناند دى ليسبس مع صديقه سعيد والى مصر على شق قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر وكان قد حصل على امتياز بتأسيس شركة عامة لحفر قناة السويس فى ٣٠ نوفبر ١٨٥٤ واستثمارها لمدة ٩٩ سنة من بدء القناة للملاحه . وقد جعل رأس مالها ٨ ملايين من الجنيهات موزعة على ٤٠٠ ألف سهم اكتتبت مصر فيها بما يســـاوى ٠٠٠ / ٤٣٦ / ٣ جنيهاوهو ما يقرب من نصف مجموع الاسهم .

وقد توفى سعيد فى ١٨ يناير ١٨٦٣ وتولى حــكم مصر اسماعيل الذى سار فى أنشاء القناة واقترض بالاضافه إلى قروض سعيد . وفى عهده افتتحت القناة فى ١٧ نوفبر ١٨٦٩ وفى ٢٦ نوفبر ١٨٧٥ اشترت الحـكومة البريطانية اسهم مصر وعددها ٦٠٢ ر ١٧٦ سهما بمبلغ ٥٨٠و ٩٧٦ و ٣ جنيها وقد عقد هذه الصفقة رئيس وزرائها دزرائيلى .

وفى إبان ثورة عرابى كان للقنال دور بالغ الاهمية والخطر فقد خدع دليسبس القائد عرابى حتى لا يردم القناة واستطاع الانجليز أن يعبروها ويحاصروا عرابى فى موقعة التل الــكبير ويحيقون به الهزيمة .

وكانت القنال طول فترة الاحتلال قاعدة للعمليات الحربية . وعندما عقدت مصر مع بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ استغلت القناة ولم تعبأ بريطانيا بقيود المعاهدة فزادت قواتها حتى بلغت ٨٠ الفا حول القناة .

كما أن بريطانيا استغلت القناة فى خلال الحربين العالميتين بالنسبه لحلفائها كما حالت دون مرور سفن خصومها .

وفى ١٦ يونيو ١٩٥٦ أجلى آخر جندى بريطانى من مصر . وكان من الطبيعى أن تتحرر مصر من سلطان شركة القناة التى كانت دولة داخل الدولة .

وكان عجيبا أن تقدم القناة إلى الاجانب المساهمين بها اكثر من ٣٦ مليونا من الجنيهات سنويا بينما لا تحصل مصر صاحبة القناة على أكثر من مليون جنيه .

وكانت القناه مرتبطه بتاريخ مصر وماضيها وتراثها التاريخى بصورة قوية عميقة فقد قدمت مصر ١٢٠ الف عامل من خيرة ابنائها ماتوا فى حفر القناة وكان المفروض أن تأخذ مصر ٤٤ فى المائه من الاسهم فضلا عن ١٥ فى المائه من الارباح . وقد باع اسماعيل هذا كله . وفى خلال ٨٧ سنه (١٨٦٩ - ١٩٥٦) كانت شركة القناة عبئا ثقيلا على المصريين وجزءا من جيش الاحتلال ومؤامرته ودسائسه ، بل أنها وهى العامل الاول الذى دفع اسماعيل إلى الاستدانه كانت العامل الاساسى للاحتلال .

وقد حاولت بريطانيا مد امتياز قناة السويس قبل الحرب العالمية الأولى (١٩٠٩) وكان سعد زغلول هو أداتهم فى بسط هذا المشروع فى مجلس شورى القوانين غير أن المجلس رفض المشروع وسقطت الحجة وفشلت الحيلة .

ولما كان قد بقى على نهايه إمتياز القناة ثلاثه عشر عاما (١٩٦٩) فقد بدات الجهات الاستعماريه تستعد لمفاجئة مصر بالموقف الذى يمكنهم من السيطرة على القناة فترة أخرى لولا أن أمسك جمال عبد الناصر بسلاح المبادئه فى يده .

وقد كان لابد لثوره ١٩٥٢ من أن تتخذ فى شأن القناة خطوة حاسمة . فقد اعلن جمال عبد الناصر فى ١٧ نوفمبر ١٩٥٤ أن مصر كانت للقناة فى الماضى وأن ذلك عهد سجل نهايته اتفاق الجلاء

ولم تعد مصر للقناه ذلك هو الحاضر وسوف تكون القناه لمصر ذلك هو المستقبل • وفى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلن جمال عبد الناصر القرار التاريخى بتأميم شركة قناة السويس فاحدث النبأ هزة ضخمه فى مختلف انحاء العالم . وإن كان التأميم فى ذاته وسيله مشروعة لحماية الثروة القومية نفذته الدول الأوربيه منذ عام ١٩٢٠ عندما بدأت فرنسا فى تأميم مناجم الفحم .

وقد صور جمال عبد الناصر اتجاه مصر إلى بناء السد العالى وشروط أمريكا والبنك الدولى المجحفة لاقراض مصرفقال : « كنت انظر إلى مستر بلاك وأتصور أن الذى يجلس أمامى هو فردنياند دى لسبس وعادت بى الذاكرة إلى الكلام الذى كنا نقرأه من عام ١٨٥٤ حينما وصل إلى مصر وذهب إلى الخديو وقال له نريد حفر قنال السويس الذى سيفيدك • وهو مشروع سيعود على مصر بالكثير وكان كلما مضى بلاك يتكلم أحس بالعقد فى كلامه • ويعود بى التفكير إلى دى لسبس . وأخيراً قلت له اننا لانريد أن نعيد كرومر آخر الى مصر • ولدينا عقدة من دى لسبس » .

وقال جمال عبد الناصر فى خطابه اننا سنبنى السد العالى من ايراد قناة السويس ولم تلبث فرنسا وانجلترا أن رفضتا الاعتراف تأميم القناة . وهبطت اسعار الأوراق الماليه البتروليه واسهم قناة السويس .

وبدأت بريطانيا فجمدت رصيد مصر من الاسترليني وأصدرت وزارة الحرب البريطانيه أوامرها إلى حاملات الطائرات بالتوجه إلى البحر الأبيض • واستمرت بريطانيا وفرنسا فى تهديد مصر باستعمال القوة ودعى جنود الاحتياط الأنجليز واحتشد الأسطول الفرنسى فى طولون وهبت القومية العربيه تؤيد مصر تأييداً ضخماً جياشاً واعلن جمال عبد الناصر وجهة نظر مصر رداً على تحدى الغرب وعقد مؤتمر لندن ووافقت ١٨ دوله على الاشتراك فيه ورفضته مصر وقدم مشروع يرمى

إلى تدويل القناة . وأرسل إلى مصر وفد لعرض المشروع الذى رفضته مصر وأعلنت رداً عليه الدعوة إلى عقد مؤتمر دولى لبحث مسألة القناة ثم لم تلبث بريطانيا أن أعلنت تأليف جمعيه المنتفعين بقناة السويس !

ودبرت مؤامرة بين مرشدى القناة للتوقف على العمل. وقد استطاع المرشدون المصريين واليونانيون حمل العبء كله وتسيير العمل فى القناة بـكفاءه ونظام .

ورفع امر القناة إلى مجلس الامن وطلبت مصر نظر تهديدات بريطانيا وفرنسا ووافق المجلس بالاجماع على المبادىء السته التى تقررت اساساً للمفاوضات بين مصر وبريطانيا .

وفى نفس اليوم الذى تحدد لالتقاء بين الجانب المصرى من ناحيه والفرنسى والبريطانى من ناحية اخرى وهو — ٢٩ اكتوبر — وصل الأنذار بالهجوم على مصر حيث قامت القوات الاسرائيلية بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا بالزحف على صحراء سينا وبذلك بدأت حرب السويس .

— ٢ —

لم يكن تأميم قناة السويس كما يقول بعض المملقين نتيجة لسحب امريكا تمويل السد العالى وانما كان فى الواقع جزءا هاما من برنامج ثورة ١٩٥٢ التحريريه غير أن الفرصه لتحقيق هذا العمل الكبير إنما جاءت على أثر أعلان أمريكا سحبها لقرارها .

والحق أن الغرب الاستعمارى كان قد بدأ يغامر فى معركه ضخمه لتحطيم قوة مصر بعد أن تبين له عجزه عن تحويلها عن اتجاهها الواضح إلى سياسه الحياد

وحصولها على صفقة الاسلحه التشكيه التى قال جمال عبد الناصر عنها « أن السلاح هنا سلاح مصرى » وقد كان عقد هذه الصفقه قضاءاً على قيد من أضخم القيود التى فرضت على الدول الراغبة فى التحرر وهو « احتكار السلاح » فلما تحطم هذا القيد انهارت كل خطط الغرب .

وكان مؤتمر « باندونج » وبريونى خطوة اخرى أزعجت الغرب الذى أزعجه ازدياد الدول المؤمنة بسياسة الحياد وعدم الانحياز ؛ لذلك رأى أن يرد على هذا كله بسحب تمويل السد العالى .

فكانت ضربه مصر ساحقة عميته عندما اعلنت تأميم شركة قناة السويس التى ستكون فى تاريخ التحرر العربى والاستعمار الغربى بمثابه بداية النهاية وعلامة من أخطر علامات تصفية الاستعمار وانهياره .

ولم تلبث الدول الاستعماريه أن اعدت خطه رهيبه لتجويع مصر وحصارها اقتصاديا وذلك بتجميد الأموال المصريه فى بنوك لندن ووشنطون وباريس واستخدام الضغط الاقتصادى ضد مصر .

وأبدت مصر حسن نيتها وسلامه موقفها فاعان جمال عبد الناصر : أن مصر عملا منها بالمحافظة على السلام العالمى ، وتمسكا بتعهداتها فى مثياق الأمم المتحدة وقرارات باندونج مستعدة للقيام مع حكومات الدول الأخرى الموقعه على اتفاقيه القسطنطينيه سنة ١٨٨٨ بالعمل على عقد مؤتمر منها ومن بقيه حكومات الدول التى تمر سفنها بقناة السويس وذلك لاعادة النظر فى اتفاقية القسطنطينية للبحث عن عقد اتفاق بين تلك الحكومات جميعا يؤكد من جديد ويضمن حرية الملاحة فى قناة السويس . ويسجل ذلك الاتفاق لدى أمانة الامم المتحده »

فلما عقد مؤتمر لندن الاستعمارى أضرب ٨٠ مايونا من العرب والمسلمين

يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٦ وايدت مصر فى المؤتمر روسيا وسيلان واندونيسيا والهند.

كما أعلنت مصر فى مذكرة وجهتها إلى دول العالم إنها أعلنت منذ ١٢ أغسطس ١٩٥٦ عن استعدادها لأن تقوم بالاشتراك مع الحكومات الموقعة على اتفاقية القسطنطينية لسنة ١٨٨٨ بالدعوة إلى مؤتمر لإعادة النظر فى هذه الاتفاقية والبحث عن عقد اتفاق لضمان وتأكيد حرية الملاحة وهى تعلن أنها تعتقد بإمكان إيجاد حلول دون مساس بسيادة مصر أو كرامتها المسائل الآتية (١) حرية وسلامة الملاحة فى القناة (٢) تنمية القناة لمواجهة مقتضيات الملاحة فى المستقبل (٣) وضع رسوم عادلة.

ثم بدأت على أثر ذلك تهديدات انجلترا وبريطانيا بالحرب وإرسال البوارج إلى قبرص. وانبرى جمال عبد الناصر للتهديد بشجاعة وقال: سنضرب للعالم مثلا فى قدرة دولة صغيرة على الوقوف أمام دول كبرى تهددها بالقوة. إن كل فرد من أبناء الوطن سيكون جنديا والأمة العربية والشعوب الحرة ستقف إلى جانبنا.

وفى مجلس الأمن عقدت جلسات طويلة لمناقشة هذه المسألة وانتهت بالاتفاق على أن تجرى المفاوضات على أسس ستة تتضمن:

- ضمان حرية الملاحة بالقناة لسفن جميع الدول دون تمييز.
- عزل القناة عن الشئون السياسية لاية دولة.
- تحدد الرسوم بين مصر ومستخدمى القناة بطريقة يتفق عليها.
- يستقطع جزء لا بأس به لإنماء القناة والنهوض بها.
- فى حالة حدوث أى نزاع بين الشركة القديمة والحكومة المصرية يحل بطريق التحكيم.

وقد دارت فى هذه الشأن أبحاث مطولة بشأن التأميم وحق مصر فيه باعتبار أن شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية تزاول نشاطها فى مصر وصدر بتكوينها ومنحها حق إدارة مرفق المرور بالقناة فرمان سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٦ وهى تخضع للقوانين المصرية بالرغم من أن أسهمها كانت فى يد الأجانب . وقد ادعى الغرب فى صحفه وكتاباته وأحاديثه أن الشركة دولية وأن إنهاء التزاماتها قبل ميعاده باثنى عشر عاما هو نقض للاتفاق الدولى من جانب واحد .

وقد أبانت مصر أن التأميم حق لكل أمة حرة وليس فيه أى نوع من الانتهاك لحرية المرور فى القناة وأن الدول جميعها قد أممت الكثير من مرافقها وإن الشركة كانت تباشر عملها مستمدة شرعيتها من الحكومة نفسها إذ أن الدولة تقوم فعلا بحراسة حرية الملاحة فى القناة .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن شركة القناة تدخلت فى كثير من الأمور الوطنية المصرية (١) سمحت للاسطول البريطانى بالعبور وإنزال جنود الاحتلال سنة ١٨٨٢ وحاصرت الجيش المصرى فى تحركاته للدفاع عن فلسطين (٣) تعاونت مع الجيش البريطانى أثناء حركة الكفاح المسلح سنة ١٩٥١ (٤) انتهكت بريطانيا حرية الملاحة واتفاقية سنة ١٨٨٨ فى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية فلم تسمح بالمرور إلا للدول المحالفة لها (٥) رفضت بريطانيا المرافعة الدولية لحرية الملاحة طول مدة احتلالها لمصر وقد كشفت أوراق شركة القناة عن أنها كانت متصلة مباشرة بوزارة الخارجية البريطانيه وفى خلال هذا التاريخ الطويل عمدت الشركة إلى إفساد الحياة السياسية وشراء الذمم ومحاربة مصر فى مختلف الميادين وعرقلة نشاطها العمرانى والاقتصادى .

هذا وقد أشار قرار التأميم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ بأن تتولى إدارة مرفق المرور بالقناة هيئة مستقلة . وأن يعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكون من أسهم وحصص بقيمتها مقدرة بحسب سعر الاقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الأوراق المالية بباريس .

كما سجلت المذكرة الإيضاحية أن الشركة أهملت إعداد الميناء العالمى بور سعيد لمسايرة احتياجات التجارة العابرة كما تخلفت عن الوفاء بالتزاماتها بتحويل بحيرة التمساح إلى ميناء داخلى صالح لاستقبال أكبر السفن حمولة، وصدر تصريح ثلاثى من وزراء خارجية فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة بحق مصر فى التأميم للممتلكات غير ذات الصفة الدولية وقد أبانت مصر بالدليل القاطع أن شركة قناة السويس شركة مصرية وأنها منحت التزاما منصبا على أملاك عامة مصرية كما أن مصر فى اتفاقها مع بريطانيا سنة ١٩٥٤ اعترفت بأن قناة السويس ممر مائى له أهمية دولية وأن القناة جزء من مصر .

وأنه لا سبيل إلى الربط بين شركة قناة السويس وحرية الملاحة فى القناة وأن الشركة لم تكن مسئولة فى أى وقت من الاوقات عن حرية الملاحة وانفاقية سنة ١٨٨٨ وحدها هى التى تنظم حرية الملاحة والحكومة المصرية هى التى تصون هذه الحرية بمقتضى سلطانها على أرضها التى تمر بها القناة وتعتبر جزءاً لا يتجزأ منها .

وأشارت أيضا إلى أن الخلط بين شركة قناة السويس وبين حرية الملاحة ليس إلا صورة لمحاولة جديدة لخلق المبررات للتدخل فى الشئون الداخلية لمصر والتى تعتبر من صميم سيادتها. وأشار التصريح إلى إنشاء إدارة دولية للقناة وقد رفضت مصر هذا الاقتراح وقالت أن اقتراح إقامة لجنة دولية ليس إلا تعبيرا مهذبا عما ينبغى تسميته بالاستعمار الدولى وأن هذا الاقتراح اغتصاب حق من صميم حقوق مصر ومن صميم سيادتها .

حرب السويس

كان اليوم المحدد لمفاوضات جنيف بين مصر من ناحيه وبريطانيا وفرنسا من ناحية أخرى هو نفس اليوم الذى حدد للهجوم الغادر على مصر وبداية المعركة الخاسرة . أنه يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ الذى بدأت قوات اسرائيل فيه هجومها على صحراء سيناء من موقع « الكونتلا » وكان الهجوم ذا ثلاث شعب .

(١) من العوجة إلى أبى عجيله (٢) عزل غزة ورفح (٣) من الكونتلا إلى السويس .

وما أن وقع العدوان وواجهته مصر بقوة حتى صدر انذار بريطانى فرنسى مشترك فى ٣٠ أكتوبر يقول « على مصر واسرائيل وقف العمليات الحربية وسحب قواتهما مسافة تبلغ ١٠ أميال على جانبى القناة خلال ١٢ ساعة تنتهى فى الساعة ٣٠و٦ من صباح الأربعاء ٣١ أكتوبر فإذا لم توقف الدولتان المعتديتان أو إحداها القتال فإن بريطانيا وفرنسا ستطلبان من مصر السماح لهما باتخاذ مراكز لهما فى بورسعيد والاسماعيليه والسويس على أن يكون ذلك بصفة مؤقتة .

وقال الرئيس جمال عبد الناصر لسفيرى الدولتين : « أن مصر ترفض الإنذار » وأتجه إلى الشعب وقال « سنقاتل » .

« سنقاتل قتالا مريراً ولن نسلم — دفاعا عن شرف مصر ودفاعا عن حرية مصر ودفاعا عن كرامة مصر . كل فرد منكم أيها الأخوة جندى فى جيش التحرير الوطنى .

سنقاتل فى معركة مريرة من قرية إلى قرية . وأعاهدكم على أن أقاتل معكم .

وسرعان ما أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قراراً حاسما يقضى بالانسحاب من سينا فقد كان هدف العدو هو عزل قواتنا فى سينا لابادتها ثم الهجوم على القناة « كان لابد لنا من أن نتخذ قرار سريعا حاسما لاحباط محاولة العدو. وكان الغرض من وجود القوات المسلحة المصرية فى سيناء هو أن تصل القوات البريطانية الفرنسية إلى القنال، فكان لا بد من اتخاذ القرار الخطير وهو توحيد جبهتنا وقد تم انسحاب قواتنا المسلحة من منطقة سينا وتركت قوات انتحارية ورجعت جميع قواتنا إلى القنال والدلتا حتى تكون بجانب الشعب لملاقاة قوات الاستعمار» .

وأصبح أول نوفمبر سنة ١٩٥٦ لتواجه القاهرة الغارات الجوية المتوالية التى قامت بها الطائرات النفاثة البريطانية على المطارات المصرية كما اشتركت اسراب عديدة فرنسية جنبا إلى جنب مع الطائرات الاسرائيلية فى مهاجمة قواتنا المصرية فى شبه جزيرة سينا .

وقامت الطائرات الحربية البريطانية والفرنسية بنسف كوبرى الفردان كما قامت بضرب بعض سفن الأسطول المصرى أثناء عبورها قناة السويس وتوالت الغارات يوم ٢ و ٣ و ٤ نوفمبر فأغرقت الغارات سفينة مصرية فى بوغاز القناة ، كما أغارت على محطة الإذاعة وشرم الشيخ . وحدثت حرائق فى الماظة ومديرية الشرقية ومنطقة القناة .

وتوالت الغارات على القناة والاسكندرية والقاهرة وبور سعيد والاسماعيلية والسويس .

واستطاعت مصر فى هذه المرحلة من المعركة أن تواجه الخصوم بقوة وأن تتحدى جيوش وطائرات فرنسا وانجلترا واسرائيل .

وقد أسقطت نيران المدفعية المصرية عدداً كبيرا من طائرات العدو بلغت ربع

ما تملكه اسرائيل من طائرات وخربت قواتنا تل أبيب ومطاراته .

كما دمرت عدداً من هذه المطارات . كما استطاعت أن تسقط ٧٨ طائرة من طائرات بريطانيا وفرنسا وحققت قواتنا بين الموجه وأبوعجيلة انتصارات رائعة .

كما أغرقت البحرية المصرية طراداً فرنسيا تبلغ حمولته ٧ آلاف طن ومدمرة بريطانيه فى شرم الشيخ

* * *

وجاء اليوم الذى لا ينسى «يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٦» حيث بدأ الهجوم البريطانى الفرنسى على «بور سعيد» حيث نزلت قوات ضخمة من جنود المظلات ، ذلك أن الغارات الجوية كانت قد بدأت تعنف على بورسعيد منذ مساء ٤ نوفمبر واستطاع الأعداء تدمير كوبرى الجميـــل وركزوا هجمات كثيرة على المطارات فى الجميل وبور فؤاد والميناء وعلى مدخل القناة .

فقد بدأت تنزيل قوات من جنود المظلات فى بورسعيد فى ثلاثة مواقع : الجبانة وبورسعيد ومطار الجميل . وقد نزلت القوات الفرنسية فى بور فؤاد والقوات الانجليزية فى بورسعيد .

وأبيدت القوات الأولى وأنزل العدو قوات أخرى أبيدت أيضا . وقد اشترك فى المقاومة الجيش والشعب معا وأقبل فوج ثالث مع الظلام والمعركة مستمرة وظل اطلاق النار لا ينقطع . وكانت الطائرات طوال اليوم تلقى القنابل وتهبط حتى تكاد تلامس الأرض وتطلق مدافعها على الناس فى الطرقات .

وفى صباح ٦ نوفمبر قام العدو بانزال قوات جديدة من الجو فى «بور سعيد» كما حاول القيام بعمليات بحرية لانزال قوات من البحر . وقام بضرب المدينة بالأسطول والطائرات واستمر قذف المدينة بقنابل الطائرات والأسطول طوال اليوم وتحصنت قوات المقاومة الشعبية والقوات المسلحة بالمنازل واستمرت تقاتل

فى أغلب الشوارع من منزل إلى منزل وقد صدر قرار وقف اطلاق النار فى الساعة الثانية صباحا واصبح يوم ٧ نوفمبر وقد طوقت القوات البريطانية والفرنسية مدينة بور سعيد واستمر عدوان هذه القوات ضد قواتنا والمدنيين فى مدينة فى بور سعيد ٠

– ٢ –

كانت معركة بور سعيد مرحلة تاريخية ضخمة فى حياة مصر بعد الثورة ٠ فقد تألب عليها الاستعمار واستجمع قواه ليحطم قوتها الجديدة ويردها مرة أخرى إلى فلكه ولكنها استطاعت أن تقف فى وجهه بقوة ٠ واثبت الشعب قدرته على مواجهة عشرة أيام خطيرة من الغارات الجوية المتوالية ٠

واثبت أهل بور سعيد بطولة لا حد لها ٠ فقد قاوموا كل هذه القوى التى صارعتهم ، وثبتوا للقتال واستطاعوا أن يعلموا العدو درساً لا ينساه ٠ أما الجيش بمختلف عناصره ووحداته فى الجو والبر والبحر فقد قام بواجبه المقدس وكانت فى معركة أبو عجيلة بطولات ٠

وسجل الرئيس جمال عبد الناصر لبور سعيد « أنها حمت مصر كلها . وفدت مصر العروبة واستطاعت أن تحبط خطط الاستعمار وقال أن مقاومة بورسعيد لأنجلترا وفرنسا كانت من عوامل هزيمة الأستعمار فقد أعطت للعالم درساً بأن مصر كلها ستقاوم مقاومة مستمرة ٠

وقال: كانت الخطة الموضوعة السرية بين اسرائيل وبريطانيا وفرنسا هى أن يهجم الجيش فى منطقة خالية لا يجد فيها مقاومة ويتقدم بسرعة نحو القناة ؛ هنالك تقذف مصر بقوتها الرئيسية لملاقاة جيش اسرائيل عند الحدود الشرقية ٠ فترسل الدولتان فرنسا وبريطانيا انذاراً إلى مصر لتوقف القتال ولترك قوات دولتيهما

تحتل بور سعيد والاسماعيلية والسويس بدعوى المحافظة على القناة من خطر الغزو الإسرائيلي .

ويتم بهذا الغزو عزل قوات مصر الرئيسية الضاربة نحو الشرق فيسهل إبادتها إبادة كاملة فى الأرض الجرداء ثم تلتقى الجيوش الثلاثة فى السويس فى ميعاد أقصاه ٧ نوفمبر .

وقد باءت هذه الخطة بالفشل . بعد أن رفضت مصر الإنذار . أما فى صحراء سينا وفى خلال اليومين السابقين للانذار ، فأن جيش مصر علّم اسرائيل درساً فقد تقدمت قاذفات القنابل تدك مطارات اسرائيل فى ٢٠ غارة احرقت قـــواعدها العسكرية وامتدت ألسنة اللهيب إلى السماء كما سحقت قوات العدو فى سيناء . وصمدت قوات أبو عجيله صموداً باسلا .

ووقفت الدول المحبة السلام جميعها فى صف مصر . وافقت ٦٥ دولة من بين ٧٦ دولة على وقف أطلاق النار وسحب القوات المعتدية .

أما الدول العربية فقد اظهرت اجماعها الرائع على الوقوف فى صف مصر ، ولم تلبث أن اتخذت قراراً اجماعيا بذلك . ونسفت سوريا أنابيب البترول فى نابلس ونسفت ليبيا معسكرات الانجليز وقطعت سوريا علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا وقيد المتطوعون اسمائهم فى مختلف أنحاء الأمة العربية كما نسفت آبار البترول فى ليبيا والبحرين والأردن .

وأغار الفدائيون المصريون على المناطق الواقعة جنوبى تل أبيب . ونسفوا أنابيب المياه .

أما فى لنـــدن فقد تعددت المظاهرات تطالب باسقاط ايدن وصدرت الاحتجاجات من الأمهات والزوجات فى باريس على قذف أبنائهن وأزواجهن

فى حرب طائلة ووجهت روسيا انذارا إلى لندن وباريس وتل أبيب « أننا قد عقدنا العزم التام للقضاء على العدوان ووضع حد للحرب فى مصر عن طريق استخدام القوة : أن بريطانيا يجب أن نفكر فى أنها قد تكون عرضة لهجوم دول أكثر منها قوة. ويمكنها ألا تستخدم السفن والطائرات وحدها بل تستخدم أحدث أسلحة الدمار وترسلها عن طريق حرب الصواريخ » .

وأكد العالم كله بربرية بريطانيا وفرنسا فى الهجوم على دولة مسالمة اثبتت حسن نيتها فى إدارة القناة وفى التفاهم مع جميع الدول التى تستعمل القناة .

وقدشنت بريطانيا وفرنسا على بورسعيد ٤٧٣ غارة جوية وقاتل البور سعيدون من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت . تحصنوا فى البيوت وتسلقوا الأسطح يحصدون منها العدو . وقاتلت المرأة لأول مرة قتالا شاملا فاشتركت فى المعركة اشتراكا فعليا .

وكتب بيتر وودز مراسل الديلى ميرور وكان مع الجنود الهابطين يقول « أن المدافعين المصريين قابلونا بنيران حامية تشبه الجحيم . أنهم لا يستسلمون ولا يكفون عن أطلاق الرصاص . وأنا أكتب هذا الآن من صالة عمليات تغطى الدماء أرضها وحوائطها ونوافذها وتتجاوب حولها طلقات كالمطر من كل اتجاه .

وقال بن جوريون فى الكنيست «أن قواتنا لم تحرز أى أنتصار أمام الجيش المصرى. وأنا أعتبر تدخل بريطانيا وفرنسا فى القتال يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر هو العامل الرئيسى فى تمكيننا من الاستمرار فى العمليات الحربية .واحب أن أقول أن القوات المصرية كانت هائلة ومزودة بأحدث الأسلحة . وقد ظهر لنا أن الجيش المصرى قوى جداً واسلحته كثيرة وعملياته الحربية ممتازة »

وفشلت فرنسا وبريطانيا فيما هدفت إليه وهو وضع نهاية للقومية العربية التى ازدادت قوة بمعركة بور سعيد .

وفى المرحلة من ٨ نوفمبر — وهو يوم توقف الغزو إلى يوم ٢٢ ديسمبر حيث سلمت القوات البريطانية والفرنسية المعتدية بور سعيد — كانت هناك عمليات مقاومة شعبية ضخمة . قام الفدائيون خلالها بأعمال خطيرة أدهشت المحتلين وازعجتهم وخطف ضابط بريطانى وقتل جنود وضباط . وتسلل الفدائيون إلى نقط الحراسة وقتلوا عدداً آخر . وألقوا القنابل على سيارات الضباط والأنجليز وقامت مظاهرات ضخمة تحمل صورة جمال عبد الناصر .

وقد سجل جمال عبد الناصر صورة من حقد بريطانيا فقال : كانت انجلترا دائما تقف لمصر بالمرصاد . وقفت لها فى أيام محمد على حينما وجدت أن قواتها المسلحة أصبحت قوية ، وأن قواتها المسلحة أصبحت عاملا فى القضاء على النفوذ البريطانى . وتآمرت بريطانيا على مصر . واستطاعت فى هذا الوقت أن تنزل بمصر ضربة قوية حينما قضت على اسطولها فى المركة « نفارين » وبعد هذا : فى سنة ١٨٨٢ لم تقبل انجلترا أن تنهض مصر وأن تخلق لنفسها شخصية قوية . فتآمرت عليها ، واستطاعت بالخديعة أن تثبت أقدامها .

واليوم بعد أن أصبحت مصر كتلة واحدة متحدة متماسكة متساندة ؛ هل سيعيد التاريخ نفسه .

لقد بدأت هذه المؤامرات ، بمؤامرة انجلترا وفرنسا واسرائيل . بهجوم اسرائيل الفجائى يوم الأثنين ٢٩ أكتوبر ، بدون أى سبب إلا التآمر والحقد وقامت قواتنا المسلحة بتأدية واجبها ببسالة كبيرة . وحينما هجمت اسرائيل أعلنت بريطانيا أنها لن تستغل الفرصة ولكن حينما ظهر أن مصر

استطاعت أن تسيطر على أرض المعركة . وحينما تبين لانجلترا أن السلاح الجوى المصرى استطاع أن يسيطر على سماء المعركة ، بدأت فى اظهار نواياها ،

وفى ٣٠ أكتوبر قدم ألينا إنذار بريطانى فرنسى بطلب وقف القتال ... والانسحاب عشرة أميال من قناة السويس .

هل نقبل احتلال بريطانيا وفرنسا لقطعة من أرض مصر أو نقاتل فى سبيل حرية وطننا وسلامة أراضينا وفى سبيل الشرف والكرامة . وبدأت بريطانيا فى الساعة السابعة من مساء[1] امس بغاراتهما الجوية على القاهرة ومنطقة القناة والأسكندرية . كان الغرض من هذا واضحا وهو تدمير السلاح الجوى المصرى الذى أظهر تفوقا ساحقا .

وبهذا اتضحت خطة العدو وتبين أنهم كانوا يقصدون تدمير طائراتنا وسحب قواتنا إلى داخل سيناء وعزلها وتدميرها ثم احتلال مصر بدون مقاومة وكان لا بد من اتخاذ قرار خطير حاسم حتى يمكن احباط خطط بريطانيا واسرائيل وكلف القائد العام للقوات المسلحة بحماية قواته المسلحة والعمل على أن ينضم أكبر جزء منها إلى الشعب واحباط محاولات بريطانيا وفرنسا واسرائيل من عزل وتدمير قواتنا الرئيسية فى صحراء سينا » .

ومما سجلته مجلة تايم بتاريخ ١٧ نوفمبر أن قوات بريطانيا وفرنسية كانت قد نزلت فى ميناء حيفا الاسرائيلى قبل العدوان كما اشتركت قوات بريطانيا فى الهجوم على مدينة رفح المصرية وقدهاجم الأسطول الإنجليزى مدينة غزه واحتلها الفرنسيون والانجليز بالقنابل من الجو أولا ثم سلموها للاسرائيليين . وأن ضرب الميادين المصرية بالقنابل من الجو كانت تهدف إلى تمزيق وحدة الشعب .

---

(١) خطاب الازهر التاريخى فى ٣٠ أكتوبر .

وقد جاءت نتيجتها عكسية إذ أنها زادت الوحدة والصمود والمقاومة فقد هب الشعب كله كتلة واحدة زياداً عن الوطن المقدس وبذلك فشلت المؤامرة التى ارادت أن تحطم قوة مصر العسكرية باعتبارها أعظم قوى العرب ولم يعد فى الاستطاعة أن تجتمع أطراف المثلث فى مدينة السويس يوم ٧ نوفمبر كما تخيل المتآمرون وسطرت مدينة واحدة من مدن مصر فى التاريخ ملحمة من أعظم الملاحم الإنسانية : هى بور سعيد » ...

هذا وقد كان من نتائج معركة بور سعيد انقطاع البترول عن أوربا بتوقف القناة ونسف الأنابيب مما أدى إلى متاعب ضخمة فضلا عن استدارة السفن والناقلات إلى « طريق رأس الرجاء » الشاق .

وأدت معركة القناة إلى سقوط بريطانيا كدولة كبرى وانهيار اسمها نهائيا بعد أن وصلت إلى حافة الإفلاس بعد فشل معركة السويس . كما أن حرب السويس أكد وجود القومية العربية فى صورة إيجابية كما عبر عنها جمال عبد الناصر حين قال : دخلنا المعركة وكانت القومية العربية كلاما وخرجنا وقد اصبحت عملا حقيقيا . واثبت العرب أن فى يدهم سلاح جبار هو البترول وأنابيبه وأنهم يستطيعون بقوتهم أن يحرزوا به انتصارات ضخمة . وكما خسر الغرب ثقة الدول العربية فيه كسبت مصر ثقة العالم كله ، كذلك اقتنع العالم بأن المعركة كانت قائمة على الخديعة والغدر .

وكان من أهم نتائج معركة السويس أن تأكدت سيادة مصر على القناة فأصبحت تدار بواسطة الأيدى المصرية بكفاءة ممتازة .

الأمة العربية المتحدة

خطواتها وتطوراتها

ظلت فكرة « التجمع » بين العرب تملأ نفوس العرب بعد فشل مشروع الدولة العربية الذى قامت من أجله الثورة العربية عام ١٩١٦ . ولكن انشغال كل دولة عربية بمشاكلها الداخلية حال دون القيام بعمل ايجابى فى هذا الصدد . فقد كان الاستعمار الفرنسى والبريطانى فى المنطقة يحاول خلق عوامل التفرقه والخصومة بين حكام هذه الأقطار . مع ابعاد الوطنيين المخلصين ، وفرض انصارهم وأعوانهم على الحكم زيادة فى الحيلوله دون قيام الوحده .

غير أن الدعوة إلى الوحدة استمرت غير متجاوزة الميدان الفكرى بأقلام أمثال شكيب أرسلان وعبد الرحمن شهبندر وساطع الحصرى وطائفة أخرى من المفكرين . وقد زادها قوة تغلغل النفوذ الصهيونى فى فلسطين واتساع نطاق العمل للوطن القومى اليهودى بتدفق الهجرة اليهودية وشراء الأراضى وبناء القلاع والحصون فى أنحاء فلسطين وزيادة ضغط الحكومة المنتدبة على العرب وسحق كل مقاومة لهم ومعاونة اليهود معاونة فعالة على تحقيق هدفهم فى احتلال فلسطين واخراج أهلها العرب منها .

ولقد كانت فلسطين هى « بؤرة » التيار القوى الذى هب للدعوة إلى الوحدة العربية غير أن الاستعمار أراد أن يجعل بيده عنصر المبادأة فنزل الميدان برجاله وأعوانه للدعوة إلى الوحدة العربية وذلك لتسميم الأفكار بالنسبة لإمكانيات قيام

هذه الوحدة والحيلولة دون إمكان تجميع العرب فى وحدة واحدة .

فقد دعا نورى السعيد والملك عبدالله وشكرى غانم وأنطون سعاده إلى الوحدة وعاونتهم فى مصر جريدة المقطم ودعاة الفرعونية ولم يلبث نورى السعيد أن وجه إلى وزير الدولة البريطانى « كيسى » مذكرته المعروفة باسم « الكتاب الأزرق » عام ١٩٤٣ وهو المشروع الذى يرمى إلى إنشاء الهلال الخصيب وقيام عصبة أمم عربية لها مجلس ينظم الدفاع والشئون الخارجية والعملة ، ويرمى إلى منح اليهود فى فلسطين حق الحكم كما يهدف إلى فصل لبنان .

وقد كانت كل هذه المحاولات مقدمة لتصريح انتونى إيدن الذى أعلنه خلال الحرب العالمية الثانية والذى يهدف إلى إقامة اتحاد عربى يكون فيما بعد نواة مشروع الجامعة العربية .

وقد جاء هذا الاتجاه البريطانى لجمع الدول العربية فى وحدة هادفا إلى تصفية النفوذ الفرنسى العربى لصالح الاستعمار البريطانى بعد انهيار فرنسا فى الحرب العالمية الثانية وكذلك لجمع القوى الرجعية الموجودة لصالح الاستعمار فى العالم العربى ولتركيز نفوذ بريطانيا فى المنطقة . كما استهدف الرد على تجاوب النازى مع العرب ومحو آثار ثورة رشيد الكيلانى . ولكن الجامعة العربية بالرغم من عجزها عن حل أى مشكلة فقد كانت خطوة طبيعية فى سبيل الوحدة الحقيقية .

وقد صدر بروتوكول الأسكندرية فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ ينص على أن هذا العمل إنما جاء « اثباتا للصلات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين العرب جميعا . وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها إلى ما فيه خير العرب قاطبة وتأمين مستقبلها وتحقيق آمالها واستجابة للرأى العربى العام فى جميع الأقطار العربية » .

ونص البروتوكول على أن تؤلف جامعة من الدول المستقلة وأن تتعاون هذه

الدول فى الشئون الثقافية والاجتماعية . كما أشار إلى منع أى دولة عربية من اتباع سياسة مخالفة للاتجاه العام للجامعة . كما نص البروتوكول على أن الدول العربية تتطلع إلى تقوية الروابط فيما بينها ، هادفه إلى وحدة أقوى .

غير أن هذا البروتوكول عندما تحول إلى « ميثاق » فى مارس ١٩٤٥ حذفت منه هاتين الفقرتين الهامتين . وكان من نتيجة ذلك أن بدأت الجامعة عملها وهى لا تستهدف غاية واضحة صريحة فضلا عن أن جميع الحكومات المنضمة إليها كانت ماتزال محتلة بجيوش الاستعمار — ما عدا الحجاز الذى كان مرتبطا بمعاهدة مع بريطانيا — وكان معنى هذا أن ممثلى هذه الدول فى الجامعة لم يكونوا من الحرية بحيث يستطيعون تحويل التيار إلى عمل إيجابى واضح . ثم لم تلبث أن قامت فى الجامعة تيارات متضاربة ومحاور مختلفة كانت بعض البيوت العربية القديمة فى صراعها تمثل اطرافا هذه المحاور . وكان النفوذ البريطانى يكمن وراء هذه البيوت وحكوماتها .

وأن كانت الجامعة العربية قد أحرزت بعض النجاح فى قضيتى سوريا وليبيا إذ ساعدت سوريا ابان العدوان الفرنسى عليها عام ١٩٤٥ كما ساعدت ليبيا أبان نظر مشكلتها أمام الأمم المتحدة فانها فشلت فشلا واضحا فى معالجة مشكلة فلسطين . بل لعل الموقف الجماعى للدول العربية فى دخول الحرب فى مايو عام ١٩٤٨ كان من ابرز عوامل هذا الفشل .

كما كان للجامعة موقفا سلبيا تجاه تيارات الاتحادات العربية والتكتلات داخل اطارها حيث ظهر مشروعى الهلال الخصب وسوريا الكبرى وكان نورى السعيد والملك عبد الله هما العاملان المشروعين اللذين كانا يستهدفان

تحطيم استقلال سوريا الذى تم عام ١٩٤٦ وكان مظهره دعوى حماية سوريا التى أصبحت معرضة لخطر الغزو الصهيونى .

ولم يمنع هذا دعاة الوحدة العربية من العمل خارج نطاق الجامعة وأن ظل الاستعمار يحرض أعوانه على مقاومة الأتجاه الرسمى باعتبار أن الحكومات القائمة فى كل وطن ستكون عرضة للزوال فى حالة الأتحاد . وقد أتخذ لبنان ذريعه فى بعض الحالات لمقاومة الوحدة كما كانت الحكومات الحزبية فى مختلف دول الجامعة تحرص على بقائها فى الحكم بالاستجابة للاستعمار وترى أن التوحيد الكامل للأمة العربية خطر عليها .

وقد كانت أشد الدول العربية رغبة فى العمل فى سبيل الوحدة هى سوريا التى كانت إحدى الدولتين المتحررين اللتين لا ترتبطان بمعاهدات مع دول الاستعمار – والأخرى هى لبنان – وقد أعلنت سوريا عن رغبتها فى أن تتقبل كل قيد وتضحية فى سبيل تحقيق الوحدة العربية وقال أحد دعاتها (سعد الجابرى – أكتوبر ١٩٤٤) أن الأتحاد إذا كان مصدر قوة لغيرنا فهو لنا مصدر حياة . وقدم « ناظم القدسى » رئيس وزارة سوريا عام ١٩٥١ مشروعه المعروف لتحقيق الوحدة العربية .

كما عقدت معاهدة التضامن الجماعى العربى عام ١٩٥١ أيضا وأن ظلت نصوصا لم تنفذ .

وهكذا ظل موقف الوحدة مجمداً حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فتحول الموقف تحولا كليا إذ بدأت الوحدة تأخذ طابع العمل الإيجابى الواضح القائم على إيمان الرئيس جمال عبد الناصر بمقاومة الأخلاف والاعتقاد الراسخ بأن الدفاع عن المنطقة يجب أن ينبثق من داخلها . وقد جرت محاولات لتنفيذ معاهدة التضامن الجماعى

العربي غير أن الاستعمار الذى كان ولا يزال مسيطرا على بعض البلاد العربية الداخلة فى نطاق الجامعة حال دائما دون الوصول إلى وحدة حقيقية وتعاون فعلى .

ولكن ثورة ١٩٥٢ وضعت كل إمكانياتها فى خدمة النهضه العربية والتجمع لمقاومة الخطر الصهيونى ومساعدة كل قطر عربى مكافح فى سبيل التحرر من الأستعمار مما حقق فى مستهل عام ١٩٥٨ أكبر حدث فى تاريخ الوحدة العربيه وهو قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا .

الجمهورية العربية المتحدة

كان من أبرز النتائج التى حققها الجهاد المتصل الذى قام فى العالم الأسلامى ضد الاستعمار فى خلال قرنين كاملين هو قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا كأول خطوة إيجابية لقيام الأمة العربية المتحدة وكان ذلك فى أول فبراير ١٩٥٨ .

وكانت القومية العربية قد أجرت محاولات متعددة للتجميع بين أهل العالم العربى الذى يعد أقوى وحدة فى العالم الإسلامى كله إذ يتكون من ٧٠ مليونا من العرب فى العراق وسوريا والسعودية والكويت والأردن واليمن ولبنان ومصر والسودان وليبيا وتونس ومراكش والجزائر ومسقط وعمان. ولكن هذه المحاولات تحطمت لأن الاستعمار كان حريصا على أن يستولى على هذه المنطقة وأن يضمن بقاءها مفككة ، مشغولة بأحداثها الداخلية الخاصة .

وقد جرت أولى هذه المحاولات فى العصر الحديث فى عام ١٨٨١ فلما تحطمت جرت المحاولة الأخرى ١٩١٦ بقيام الثورة العربية الأولى . وقد فشلت أيضا هذه المحاولة ، ثم كانت الجامعة العربية التى قامت عام ١٩٤٦ مقدمة للترابط بين الدول العربية غير أن عناصر الفرقة والانقسام لم تلبث أن عبثت بالدول التى كان الأحتلال مسيطراً عليها ، ففرض عليها حكومات يرضاها المستعمر وتسير فى ركابه .

وكانت أولى الدول التى تحررت من الأستعمار هى سوريا ولبنان عام ١٩٤٦ . ثم مصر عام ١٩٥٦ إما باقى الدول العربية فهى إما دول تقوم فيها حكومات وبرلمانات ومع ذلك فهى مرتبطة بمعاهدات واتفاقيات وأحلاف كالعراق والأردن

وليبيا وتونس ومراكش والحجاز والسودان، وأما دول ما تزال تكافح في سبيل التحرر كالجزائر والأمارات العربية في الخليج الفارسي وفلسطين المحتلة •

وقد كانت سوريا هي بؤرة القومية العربية • وهي التي خطت الخطوة الدستورية الأولى للاتحاد مع مصر عام ١٩٥٦ . فقد آمنت سوريا منذ عام ١٩١٦ بضرورة قيام الأمة العربية المتحدة التي كانت حلم العرب إذا ذاك بعد انفصالهم عن الترك وتقديم ضحاياها وشهدائها في الثورة العربية غير أن بريطانيا وفرنسا غدرتا بالعرب وقسمتا بلادهم وفرض على سورية حكما فرنسيا قاسيا لم يرضه أهلها يوما ومضت تقاومه بعنف وبدون هواده فثارت في ميسلون ١٩٢٠ وفي معركة سوريا الكبرى في سنة ١٩٢٥ ومعركة المجلس النيابي عام ١٩٤٥ .

وقد أعلنت سوريا على لسان عدد من زعمائها الدعوة إلى مشروع الدولة العربية المتحدة عام ١٩٤٦ وقد كان مشروع « ناظم القدسي » في هذا الصدد من أشمل هذه المشاريع .

● مشروع ناظم القدسي للدولة العربيه الموحدة •

١ – إيجاد دولة عربية موحدة تجمع شتات الأقطار العربية في صعيد واحد. فاذا تعذر ذلك فلا أقل من قيام دولة اتحادية .

٢ – يدفع إلى هذا الاتجاه خطورة الأحوال الدولية فأن الدول العربية يجب أن تتحد في سبيل مقاومة الاستعمار . فضلا عن العدو اليهودي المقيم في قلب البلاد العربية مما يستدعي مواجهة هذا الخطر الصهيوني •

٣ – يجب أن يبدأ الأتحاد بين الدول المستعدة على شكل اتحاد دولي يوحد مصالح الجيش والأقتصاد والمعارف والمشاريع الأنتاجية المشتركة . ثم يعمل على ضم الدول الأخرى الراغبة في دخول هذا الاتحاد • حتى إذا أستكملت جميع

الأقطار العربية حريتها واشتركت فيه ، بحث عندئذ أمر تحويله من اتحاد «فيدرالى» إلى دولة عربية متحدة .

٤ — يكفل المشروع التوحيد فى السياسة الخارجية . وقوى الدفاع القومى والإقتصادى والمرافق الرئيسية . ويكون بنظر الرأى العام العربى والكتل العالمية موضع اهتمام .

* * *

ولعل من أبرز العوامل التى دفعت العرب إلى الاتجاه نحو الوحدة هو تألب الاستعمار ومحاولاته المتعددة لابقائه مخزنا للخامات والبترول . ومنعه من التحرر والتوحد والتسلح والوصول إلى مكانته الحقه حتى يظل مستعبدا . وكانت اسرائيل هى أخطر عمل قام به الاستعمار لسحق القومية العربية ولكنها كانت أيضا عامل يقظة للعالم العربى كله الذى بدأ ينسى مطامعه الخاصة ومصالحه الفردية ليواجه هذا الخطر الزاحف الذى يطمع فى التمدد من النيل إلى الفرات .

ولقد كان قيام اسرائيل فى فلسطين واحتلالها لهذه المنطقة فى عام ١٩٤٨ بعد هزيمة الجيوش العربية السبعة عاملا خطيرا فى المنطقة العربية كلها فقد كشف عن حقيقة الحكم فى هذه البلاد . وعن مدى تسلط الاستعمار على الملوك والحكام وقادة الجيوش فى الدول العربية التى اشتركت فى معركة فلسطين ثم هزمتها الأسلحة الفاسدة والمؤامرات ومناورات الهدنة . وتوقف الجيوش وهى فى أوج انتصارها . وتمكين اليهود من الحصول على إمدادات جديدة بينما عجز العرب عن الحصول على الأسلحة .

كانت معركة فلسطين انفجاراً فى المنطقة فقد تغير الحكم فى سوريا ومصر والأردن ولبنان . ولم تلبث أن ظهرت معالم وخطط جديدة فى الأفق . كان أبرزها ثورة ١٩٥٢ فى مصر التى كانت بؤره عملها فى خنادق فلسطين نفسها . وهى

الحلقة المفقودة التى دعت إلى التجمع والوحدة . وكانت عونا للتحرر فى كل المنطقة . ومن هنا كانت القومية العربية التى هزت القلوب وملأت النفوس من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى حركة دافعة قوية ذات فعاليه أكيدة تقوم على أسس واضحة وتستجيب للمشاعر والآمال التى تملأ النفس العربية . وقد كان أبرز معالمها عدم الأنحياز والحياد الإيجابى ومناهضة الأحلاف العسكرية .

وقد كان قيام الجمهورية العربية المتحدة ثمرة أسس ومبادى أبرزها وحدة التاريخ بين سوريا ومصر ، فمنذ الفتح الإسلامى إلى اليوم توحد تاريخهما واشتركا معا فى معارك الكفاح . فضلا عن المشاركة الفكرية ووحدة اللغة التى تمد الرباط الوثيق بين أبناء المنطقه كلها .

وقد جاءت هذه الوحدة بعد مرحلة طويلة من التهيؤ لها والاستعداد بعد أن امتلأت نفس الشعب فى مصر وسوريا بالرغبة الصادقة فى الالتقاء على وحدة واحدة وحكومة واحدة ورئيس واحد . وقد سجل ذلك الرئيس جمال عبدالناصر « لقد كان خيرا على كل حال اننا تركنا الأمور تصل إلى هذا المدى ، فلقد كان ينبغى للشعوب أن تأخذ فرصتها كاملة حتى تتثبت من يقينها وحتى يترسب إيمانها مع الايام إلى أعماق الأعماق . وحتى تؤكد لها الحوادث والتطورات أن طريق الوحدة هو طريق القوة . طريق الحياة . »

ولقد كان على مصر وسوريا أن تختار بين نظامين : أحدهما الاتحاد الفيدرالى والثانى هو الوحدة الكاملة . والأندماج التام . وقد تحقق نظام الوحدة تحت ضغط مشاعر الشعبين اللذين كانا قد وصلا إلى ذروة الثقة والحب والألتقاء فى مختلف المعانى العليا التى تدفع بهما إلى أتجاه موحد صادق لتحقيق هدف أعظم هو قيام الأمة العربية المتحدة . فقد كانت سوريا ومصر منذ طويل بؤرة النضال الوطنى فى سبيل الحرية وقد قاومت كل منها دولة استعمارية كبرى على نحو رائع من النضال واحتملت كل منهما العنف والظلم وإثام الأستعمار . وقد كان الأستعمار الفرنسى

فى سوريا مريرا وقد تركت أثاراً دامية. ولكن سوريا ظلت تقاومه منذ اليوم الأول إلى اليوم الأخير (١٩٢٠ - ١٩٤٧) بروح الحر الذى يفتدى حريته بكل شىء ويقدم الضحايا فى كل خطوة . وكذلك قاومت مصر الأستعمار البريطانى فترة أطول (١٨٨٢ — ١٩٥٦) وقدمت الشهداء . وصمدت فى معارك متعددة كان أبرزها التل الكبير وكفر الدوار ودنشواى وبور سعيد . وكان من الطبيعى وقد أضرمت ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية جذوة القومية العربية ومضت بها إلى مرحلة عملية واضحة بعد أن ظلت آمالا وأحلاما تعيش فى قلوب أبناء الأمة العربية زمنا ، كان من الطبيعى أن يلتقى قطران ربطت بينهما عوامل التاريخ المتعددة . وعوامل المستوى المتشابه . فضلا عن أنهما كانا قد تحررا من كل القيود الأستعمارية والاحتلال والأحلاف .

ولقد مضت فترة حضانة طويلة لهذه الوحدة . امتدت حوالى أربع سنوات كاملة . كانت دمشق والقاهرة تعيش على أمل اللقاء فى هذه الوحدة كخطوة أولى لأندماج الأمة العربية كلها من الخليج إلى المحيط فى وحدة شاملة تضم ٧٠ مليونا وتعيد وضعا كان قائما بالفعل ثم مزقه الاستعمار . فهى لم تكن تستهدف شيئا غير طبيعى أو غير موجود أو عملا مفتعلا وإنما كانت تصحح وضعا كان قائما بالفعل من قبل .

وقد زاد فى تأكيد الوحدة بين مصر وسوريا انهما التقتا مرات قبل الآن . وكان التقاؤهما مقدمة قيام وحدة عربية كاملة. وأن الخطر الذى يتمثل فى تكتل الأستعمار مع اسرائيل . وقيام اسرائيل فى قلب الوطن العربى لهو تكرار لعمل استعمارى قديم هو الحروب الصليبية التى أقامت المملكة اللاتينية فى فلسطين قبل ٨٨٠ عاماً وكانت نذيرا للعرب بالوحدة لمقاومتها . وقد أمكن بعد اتحاد سوريا ومصر على يد صلاح الدين أن يتم سحق هذه الدولة الدخيلة .

لبنان بين الاحتلال والحرية

كل ما يقال عن سوريا وتاريخ جهادها فى سبيل الحرية ومقاومة الأستعمار وصلابتها فى مواقفها يقال عن لبنان . ولقد عمد أحمد جمال باشا إلى نصب المشانق فى دمشق وبيروت على السواء وعلق الأحرار هنا وهناك فى وقت واحد . وقد واجه شباب دمشق وأهل بيروت هذا الموقف فى رجوله وصبر وصمود .

كما ألغى « قائد الجيش الرابع إلى سوريا ولبنان وفلسطين » منصب الحاكم الوطنى فى لبنان . كما أرسل كتيبة من ضباط لبنان إلى خطوط النار فى الدردنيل والقفقاس لم ينج منها إلا نفر قليل .

وقد كانت لبنان مشتركة مع سوريا فى مؤتمر باريس الذى عقد برئاسة الشهيد عبد الحميد الزهراوى .

وكان من الشهداء الذين اعدموا فى بيروت يوم ١١ أغسطس (اب) ١٩١٥ اثنى عشر شهيداً منهم طباره وباتر باولى والعريسى والمحصاينان وعقل وعمر حمد كما ضرب جمال باشا على لبنان الحصار الأقتصادى فاوقعه فى مجاعة مما دعا الكثيرين إلى الهجرة كما هلك الكثيرون جوعا .

وتحمل أهل لبنان عسف تركيا وحاكمها حتى انتهت الحرب وقامت حكومة فيصل فى دمشق وتبعتها حكومة مؤقته فى بيروت .

ثم لم تلبث فرنسا أن أعلنت تنفيذها لمعاهدة سايكس بيكو التى عهدت إليها بادارة الساحل اللبنانى والمناطق الداخلية .

وبذلك وقع لبنان تحت الاحتلال الفرنسى فى ٨ أكتوبر ١٩٥٨ عندما أنزل

الفرنسيون العلم العربى وأقاموا حاكما فرنسيا فى بيروت .

وقد هب اللبنانيون مناهضين الحلفاء مطالبين باستقلال لبنان : القطر الذى أسهم مع الحلفاء فى الحرب كما أسهم أبنائه فى المهاجر الأمريكية . وتوجه بطريرك لبنان مطالبا باستقلال لبنان مدافعا عن قضيتها . وقد لقى مالقى فيصل من إنكار مؤتمر الصلح لقضايا الحرية وتجاهل لحقوق العرب .

وقد سجل التاريخ بطولات لكثير من شباب لبنان الذين قاوموا الاستعمار .

أمثال محمود الفاغور الذى ناضل الفرنسيون بجموع الأعراب فى راشيا ومرجعيون وكان جبل عامل مصدراً لمقاومة ونضال كبيرين ولهذه المنطقة مكان ضخم فى الكفاح الوطنى . وقد قاوم الدروز استعمار الفرنسيون كما كان لاخوانهم دروز الشام دور ضخم فى ثورة ١٩٢٥ كما جاهد الشيعة فى جنوب لبنان وقدموا الضحايا .

كما قامت ثورات مختلفة فى انحاء لبنان وفى سهل البقاع لمناوأة الفرنسيين وقد حاول الاستعمار تمزيق لبنان فأوجد الفوارق بين الطوائف ليظل الخلاف القبلى قائما بين أبناء الوطن الواحد .

وتم أنشاء الجمهورية اللبنانية فى عام ١٩٢٥

واستمر النضال طويلا لمقاومة أهداف الأستعمار فى الفصل بين الطوائف ومحاولة التفريق بينها حتى لا تتجمع على محاربته . كما برزت فى خلال السنوات الطويلة رغبة تأكدت وتكررت من مختلف الطوائف تهدف إلى الوحدة بين سوريا ولبنان ولكنها كانت تجد المقاومة من المستعمر إلى أن بلغت غايتها حين حمل زعيم طرابلس عبد الحميد كرامة هذه الرغبة إلى دمشق .

وقد لقى لبنان كما لقيت اجزاء الوطن العربى صراعا بين الحكام الذين يناصرون المستعمر وبين الشعب نفسه · كما وجدت ابطالا عجز الاستعمار فى ضمهم إلى صفه · وقد ناضل لبنان — كما ناضلت الأمة العربية الطغاة والمستبدين والاستعمار نفسه بروح قوية حية ·

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية (سبتمبر ١٩٣٩) الغى الفرنسيون مجلس النواب وقضوا على الوزارة · فلما سقطت فرنسا تحت اقدام المانيا ، لم تلبث حكومة فيشى أن أرسلت الجنرال دانتز لحماية سياستها فى المشرق فأرسل إلى السجن بعض الوطنيين وكمم الأفواه وقد صدرت تصريحات من الجنرال كاترو فى ٨ يونيو سنة ١٩٤١ بالغاء الأنتداب على لبنان ولم تخدع هذه التصريحات اللبنانيون الذين مضوا فى مقاومة الانجليز والفرنسيين على السواء.

وقد انتهى هذا الموقف بأن اقتحم ضابط فرنسى ليلة ١١ نوفمبر ١٩٤٣ قصر رئيس الجمهورية ومعه بعض الجنود السنغاليه مسلحين بالبنادق والمسدسات فنزعوا سلاح رئيس الجمهورية وحطموا الباب الخارجى وانتزعوا الرئيس من فراشه ودفعوه إلى الخارج ثم وضعوه فى سيارة حيث اعتقلوه فى قلعة راشيا وتم مثل ذلك بالنسبة لرئيس الورزاء وبعض الوطنيين أمثال عبد الحميد كرامه ·

ولم تكد تصل الأنباء إلى الشعب حتى قامت المظاهرات واحرقت السيارات الفرنسية وهب الشعب الفرنسى وقد ائتلف وعقد مؤتمراً وطنياً لإنقاذ البلاد وشاركت المرأة فى هذه الثورة وساندت الصحافة هذه الخطوة .

وتنادت البلاد العربية إلى تحرير لبنان ووقفت مصر وسوريا موقفا طيباً

وتراجع الفرنسيون إزاء هذه المقاومة الضخمة — وعادوا فاعترفوا بالوضع اللبنانى وسلموا إلى حكام لبنان صلاحياتهم الشرعية · وتم جلاء قواتهم عن لبنان

كما تم ذلك عن سوريا (أول ابريل ١٩٤٧) وبذلك دخلت لبنان فى عهد الحرية والاستقلال .

ومضى لبنان فى خط الحرية غير أنه لم يلبث أن اندلعت ثورته فى أوائل شهر مايو ١٩٥٨ مقاوما التسلط السياسى والأستبداد الذى يقوم به كميل شمعون وحكومته فى سبيل تجديد مدة انتخابه رئيسا للجمهورية ستة سنوات أخرى مقاوما بذلك حكم الدستور الذى ينص على أن لاتزيد مدة الرئاسة عن ست سنوات وقد قاوم الشعب هذا الأتجاه وأعلن بصراحة موقفه الحاسم الذى ينطوى على اسقاط الحكومة التى قبلت مشروع ايزنهاور وحطمت تقاليد لبنان فى عدم الانحياز إلى الشرق أو الغرب وتأييد الحياد الإيجابى وقد أيد الثورة زعماء الطوائف : الدروز الموارنة والشيعة واشتعلت الثورة أمداً طويلا وقاومت فى قوة واصرار بالرغم من تأييد الاستعمار لشمعون بالدبابات والطائرات والقذائف وكشف لبنان عن روحه الحقيقية المؤمنة بالقومية العربية والحياد الإيجابى وأنحى باللائمة على كميل شمعون وسامى الصلح وشارل مالك موقفهما فى الموافقة على مشروع ايزنهاور واندماجهما فى الأحلاف الغربية .

وسوف تنتهى الثورة بانتصار الشعب وإنهاء العهد وبدء عهد جديد ، يسير فى ركب حركة القومية العربية الضخمة التى تألفت فى مختلف مناطق العالم العربى مندفعة للتنادى نحو التجمع والوحدة فى نطاق الأمة العربية .

رأى الغرب فى العالم الإسلامى اليوم

بقلم فردريك ولهم فرنو الـكاتب الألمانى المعاصر

يعتبر العالم الإسلامى اليوم مركز الثقل فى السياسات الدولية بسبب موقفه المتوسط بين بقاع العالم كله وبصفة خاصة الشرق الأوسط . فالعالم الإسلامى هو مفتاح الهند وباب الأتحاد السوفيتى والمنفذ إلى الصين فاليابان ونقطة الوثوب إلى افريقيا .

وما برحت القارة الإسلامية منذ أجيـال قطب الرحى فى التجارة الدولية والمواصلات . وتحتكر الشعوب الإسلامية طرق التجارة الدولية سيما بعد افتتاح قناة السويس التى أعادت إلى العالم الإسلامى أهميته التجارية العظيمة . وقد أضفى النفط أهمية بالغة على مركز العالم الإسلامى فانه يستحوز على أكثر من نصف احتياطات العالم من هذه المادة الثمينة .

وفى العالم الإسلامى ست مجموعات من الشعوب : المجموعة العربية وتمدادها ١٠٠ مليون وتمتد من الخليج الفارسى حتى المحيط الأطلسى والمجموعة التركية وتمدادها ٦٠ مليونا والمجموعة الإيرانيه وتمدادها ٣٠ مليونا والمجموعة الهندية وعددها ١٠٠ مليون .

وهناك المجموعة الأندونسية وتبلغ ٧٠ مليونا والمجموعة الزنجية كما أن هناك اتجاهين أساسيين فى العالم الإسلامى : الأتجاه الوطنى والقومية الإسلامية . كما أن ثمة نزعتين : الأتجاه نحو الغرب وإيجاد نظام سياسى مستمد من تعاليم الإسلام .

بيد أن الاتجاهين يجمعهما العداء الشديد للسيطرة الغربية والاستعمار .

على أن الجماعة الإسلامية تستقل الواحدة بعد الأخرى وتكون دولا وطنية ترعى مصالحها . ويلاحظ الاختلاف فى نظم الحكم فنها الجمهورى والملكى المطلق والملكى الدستورى وما يزال أربعون فى المائة من المسلمين يعيشون تحت سيطرة الحكم الأجنبى وبخاصة فى افريقيا وآسيا الوسطى والهند .

وإذا كانت البلاد الإسلامية تسعى إلى الاستقلال وتكوين دول مستقلة فهناك مظاهر قوية للأخوة الإسلامية مثل الحج والمؤتمرات الاقتصادية الإسلامية وتوحيد التعليم الدينى بفضل الأزهر وتجاوب العالم الإسلامى من اقصاه إلى أدناه بما يحدث فى أى جزء من أجزائه . فالأخوة الإسلامية والتضامن الإسلامى حقيقة واقعة لا يمكن نكرانها أو الغض من شأنها وأثرها فى السياسيات الدولية واضح كما يبدو من تضامن الدول الإسلامية فى مشكلة فلسطين .

والعالم الإسلامى اليوم فى جيشان يتمخض عن أوضاع جديدة فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع . ولم تعد الشعوب الإسلامية ترضى حالة التخلف التى تعانيها . ونلمح بين الشعوب الإسلامية ثلاثة تيارات . القومية العربية . نهضة الإسلام . المطالبة بتغيير الأحوال الاجتماعية . وتوحد التيارات على اختلافها جنبا إلى جنب فى معظم البلاد الأسلامية ويؤلف بينها التصميم البات على مقاومة السيطرة والنفوذ الأجنبيين وأن اختفت فكرة الدولة الإسلاميه الجامعة وحلول الدولة الوطنية العاملة بيد أنه لا يمكن نكران التأثير السياسى للاسلام باعتباره دينا يهتم بالدولة والمجتمع كذلك .

وتعتبر مصر فضلا عن موقعها الجغرافى كمحور للعالم الإسلامى فانها باب أفريقيا ومركز العالم العربى كله وهى مفتاح حل مشكلات العالم العربى والجهة الأصلية فى العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى .

من الأمة العربية

إلى الأمة الإسلامية

منذ خمس سنوات على وجه التحديد أنطلقت من المنطقة العربية شرارة ضياء . لقد أصبحت هذه الشراره نورا يضيء . أنها أوقظت النفاه . ودفعت المترددين ، وأعادت إلى النفس العربية حيويتها وردت إليها أملها فى الحرية بعد أن كادت تسقط تحت سنابك اليأس القاتل . ذلك هو أبرز صورة للاحداث فى العالم الإسلامى . أنها المنطقة العربية أضخم قوة فى الشرق كله تتجه نحو الحريه وتحطم قيود الاستعمار والأحتلال والأستبداد فى مختلف صوره . أن المنطقة كلها اليوم تغلى . أنها تقاوم ، أنها تحطم قوائم هذا الأخطبوط الذى اتجة نحو العالم الإسلامى منذ قرنين وحاول أن يسحق هذا العملاق . هذا العملاق الذى انطلق اليوم من القمقم ليأخذ مكانه مرة أخرى . مكانه المرموق الذى كان له يوما ثم فقده .

لقد اتحدت قوة الصهيونية وقوة الاستعمار ضد العالم الإسلامى .

قال أوجين يونج : أن الحروب الصليبية من يوم إعلانها على العالم الإسلامى لم تخمد نارها ولم تغمد أسلحتها .

ثم جاءت بريطانيا لتضع يدها على العالم الإسلامى ، باسم تكليف العناية الألهية « كأعظم وأخص ما كلف به فريق من الجيش البشرى » كما يقول ذلك غلادستون عام ١٨٨٠ وكان ذلك غاية الكذب والتضليل .

ولم تلبث بريطانيا أن أذاعت بعد إعلان الحرب العالمية الكبرى الأولى [1]

(١) المذكره البريطانية فى ٨ نوفبر ١٩١٨ .

أن السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانجلترا انما هو لتحرير الشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت مظالم الترك تحريرا تاما نهائيا » .

وكان ذلك خدعه أخرى مضلله من بريطانيا .

وظهرت خدعة أخرى هى تصريح ولسون الذى أعلنه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى باسم المبادىء الأربعة عشر والتى قال فيها بالنص :

«لا يصح لأمة أن تكره أمة أخرى على أتباع سياستها . وأنه يجب أن يترك لكل شعب الحق وحده فى تقرير سياسته ورسم طريقة الذى يراه مؤديا إلى التقدم بدون أحراج أو تهديد أو أرهاب . لا فرق فى ذلك بين شعب ضعيف وشعب قوى» .

لقد ألقى « ولسون » رئيس الجمهورية الأمريكية هذا التصريح فى ٨/١/١٩١٨ فأثار روحا من التفائل والتقدير خدع به العرب . واعتقدوا أنهم واجدون من ورائه استجابة لحقوقهم وعونا على مطالبهم العادلة فى الحرية والأستقلال وقد أرسل بعض الزعماء فى مصر إلى الرئيس ولسون يسألونه المعونة لدى انجلترا فى تقرير المصير فى مصر فكان الرد هو ما يأتى :

« أتشرف بأن أبلغكم أن رئيس الجمهورية يعترف بالحماية الانجليزية على القطر المصرى وهى الحماية التى طبقتها حكومة جلالة الملك البريطانية فى ٨/١٢/١٩١٤»

٢٢/٤/١٩١٩ ولسون

وزير خارجية الولايات المتحدة

نعم : لقد تنكر الرئيس ولسون داعيه تحرير الشعوب لتصريحاته المضللة وهكذا كشف الاستعمار أوراقه ولم يستطع أن يخدع شعوب العالم الإسلامى طويلا . لقد ظهر أن هناك عشرات ومئات من التصريحات الخادعة

التي لم يُرد بها ممانوها إلا الخداع والتضليل . ودفع هذه الملايين إلى معاونة الحلفاء في حرب طاحنه بأسم رد حقوقهم وإذا ما أنتهت الحرب حتى كان جزائهم . هذا الجزاء القاسي البالغ غايته في الظلم والأعنات . كان هذا الجزاء أن يقف اللورد اللنبي في فلسطين ليقـــول : اليوم انتهت الحروب الصليبية . ووقف الجنزال غورو في دمشق ليقول : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين !

وقد صور هذا جمال الدين الافغاني قبل وقوعه بأكثر من نصف قرن حينما قال « إن الروح الصليبيه لم تبرح كامنة في صدور الغربيين كمون النار في الرماد . وروح التعصب لم تنفك حية معتلجه في قلوبهم حتى اليوم . كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل » ولـكن هل انخدع أهل العالم الإسلامي منذ اليوم الأول للاستعمار وأسلموا أمورهم له . الجواب : لا ؛ نقولها بالوقائع والأدلة والأرقام في هذا الـكتاب . انما الذين خدعوا أو حاولوا خداع شعوبهم هم عملاء الاستعمار وصنائع المحتلين من الملوك والوزراء المستبدين الطامعين أمثال أسرة محمد علي في مصر والأسرة الهاشميه في الأردن والعراق وهما اسرتان غريبتان عن الأقطار التي حكموها .

وفي خلال هذين القرنين لم يتوقف العالم الإسلامي لحظة واحدة عن الـكفاح . كانت الثورات تندلع هنا وهناك متوالية لا تهمد . ولقد صمدت الشعوب أمام قنابل المستعمر ومدافعه وطائرته وقذائفه ، وقدم ضحاياه وشهدائه راضيا مؤمنا بأنه على الحق وبأنه لا يقبل الضيم ولا يرضاه ولا يستكين إليه .

وكانت ابلغ ثورتين هي ثورتا فلسطين والجزائر . أما الأولى فقد انهزم العرب فيها بالغدر والخداع ولـكنها فتحت بابا ضخما من اليقظة اندلع منه في نفوس العرب جميعا إيمان بالثأر وتصميم على البذل لاستعادة هذه القطعة من الوطن العربي مهما كلفها ذلك من ثمن .

أما ثورة الجزائر فهى مستمرة قوية ، النصر فيها إلى جانب العرب الذين يقدمون الضحايا والشهداء . ويقاومون فى عنف واستبسال لا يبارى · ويكفى أنها مستمرة منذ أربع سنوات كاملة وتزيد لم تتوقف لتعطى صورة النفس العربية الحقة فى تصميمها وإيمانها بالحرية .

وقد حق أن يقول مؤرخ كبير : أن الثورة الصينيه والقومية العربية هما أعظم إحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية .

* * *

وبعد فانى موقن أن شرارة الضياء التى انبعثت من الأمة العربية سوف لا تقف عند حدودها [من الخليج إلى المحيط] ولكنها سوف تمتد ، إلى باكستان واندونيسيا وإيران · والشواهد كلها تدل على أنها تتجه جميعا نحو وحدة شاملة وغاية موحدة تتحطم بها قواعد الاستعمار ويشرق معها فجر الحرية على العالم الإسلامى كله ؟ .

أول محرم ١٣٧٨
« يوليو — تموز » ١٩٥٨

أنور الجندى